الفاشيّة الإِسلاميّة

الفاشيّة الإسلاميّة
مختارات
حامد عبد الصمد

٣٢ شارع صبري أبوعلم، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.org
darmerit98@gmail.com
الغلاف: **عمر مصطفى**
تحرير الطبعة العربية: **رامي يحيى**
المدير العام: **محمد هاشم**
رقم الإيداع:٢٠١٩/٣٣١٣
الترقيم الدولي: **978-977-351-844-8**

حامد عبد الصمد

الفاشيّة الإِسلاميّة

تحرير الطبعة العربية: **رامي يحيى**

ميريت
القاهرة ٢٠١٩

إهداء

إلى روح كل من..
محمود محمد طه وفرج فودة ورسامي شارلي إبدو
إلى كل من أدركوا أنه لا يوجد حل وسط بين الحرية والفاشية.

في هذا الكتاب

ظهرت الفاشيّة الإيطاليّة بطريقة مُشابهة للنازيّة، فقد وُلدت الحركتان من رَحِم الحرب العالميّة الأولى. الشعور بالهزيمة والرغبة في العودة لأمجاد الماضي البعيد كانت وراء نشأة الحركتين. وبنفس الطريقة وفي نفس الوقت تقريبًا ظهرت أيضًا جماعة الإخوان المُسلِمين، التي ولِدت بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وسقوط الخلافة. تشترك هذه الحركات الثّلاث جميعُها بعلامات أيديولوجيّة أساسيّة، تتمثّل في الفكر الجمعي الأممي، والإيمان بوجود قِلّة دينيّة أو قومية مُختارة، وقمع الآخر بعُنف، والسّعي الإمبريالي للهيمنة على العالم.

حامد عبد الصّمد هو أحد أهم نُقّاد الإسلام السّياسي في العالم. إن كتاباته شديدة الصّدق والقسوة. نكتشف ذلك عند قراءة روايته (وداعًا أيتها السماء)، ثم تنبؤه اللاحق عن الاضطرابات في الشّرق الأوسط في كتابه (سقوط العالم الإسلامي). هذه الكتابات لاقت انتقادات حادّة في بعض الدّول الإسلاميّة وبلغت ذُروتَها حين طالب بعض الشيوخ بقتله عام ٢٠١٣م.

النّاشر الأمريكي بروميثيوس

المُقدّمة

الفاشية تحتاج أعدائها أكثر من أتباعها

كل نظام فاشي يلزمه بالضرورة تأسيس سيناريو لخطرٍ وشيك الحُدوث، وتعليم وإعلام يقسِّمان العالم لعدو وصديق، ومخطط خارجي يترصد البلاد، بحيث يتحد الشعب خلف راية قائد معصوم ملهم ضد عدو قد يكون حقيقيًا وقد يكون من نسج الخيال. وقد تعامل النّازيّون مع هذا الأمر بدرجة من الإبداع، فقالوا إن التّهديد للشعب الألماني يأتي أوّلًا من قِبل يَهُود بلادهم والشّيوعيّين الألمان، ثمّ جاء تهديد خارجي في وقت لاحق من قوات التّحالف. ثم أصبح الاتحاد السّوفيتي فيما بعد هو العدو الجديد للنازيين. أما في الاتحاد السوفيتي نفسه فقد أُعتبر المنشقون داخل الكتلة الشّيوعيّة كعدو داخلي، على افتراض أنهم تعاونوا مع الغرب لإضعاف التّماسُك في المجتمع، ثم أصبحت ألمانيا النازية العدو الثاني، وكان الغرب هو العدو الخارجي التقليدي للروس منذ حملات نابليون وحتى قبلها، ووصل هذا العداء ذروته في فترة الحرب الباردة.
على الجانب الآخر فإن الإسلاميّين كانوا دائمي التّحدّث عن نفس الأعداء الثّلاثة: العدو البعيد، والعدو القريب، والعدو الداخلي: الغرب الموجود على الجانب الآخر من البحر، وإسرائيل على مقربة من بلادهم، أما الأقباط والمسيحيون الشرقيون والإصلاحيّون والمفكّرون العلمانيّون فهم العدو الدّاخلي، الذين يُنظر إليهم من الجميع باعتبارهم امتدادًا للغرب.

أينما تمكّنت الفاشيّة الإسلاميّة من السّيطرة، كما حدث في إيران والسّودان ونيجيريا والصّومال وغزّة وداعش، ظهرت الدّكتاتوريّات الوحشيّة، رافضة حتى يومنا هذا إرخاء قبضتها عن السُّلطة. أينما تمّت الإطاحة بالإسلاميّين من الحكومة، يتحوّلون هم ومؤيّدوهم إلى إرهابيّين، يقومون بأعمال عُنف مدمّرة على بلدانهم، كما هو الحال في الجزائر وأفغانستان ومالي وليبيا، وهذا هو المصير الّذي عانت منه كل من مصر وسوريا أيضًا.
وبالرغم من كل ذلك، فلا يزال الإسلام السّياسي يُشكل منارة أمل بالنّسبة لرقعة واسعة من السّكان في الأقطار الإسلاميّة. وذلك بسبب عوامل كثيرة؛ أولها فشل الشعوب والنّخبة السّياسيّة في الدّول الإسلامية في إقامة بديل للإسلاميين يمنح للشعوب هوية صلبة ورخاء اقتصادي في نفس الوقت. وعلى الجانب الآخر فشلت النخب في تطبيق نموذج الديمقراطيّة الغربية أو على الأقل تقديم بديل مقبول لها. وفوق كُلّ شيء، فإن الكبرياء المجروح عند العرب عرقل كُلّ محاولة لإعادة تقييم تاريخ العالم العربي والعلاقات المتوترة مع الغرب، فإن العديد من الدّول العربيّة قد تأقلمت بشكل قوي مع تبني فكرة أنهم ضحيّة، مشجّعين على غرس الكراهية الجماعيّة المعادية للغرب. لقد تغذّت كُلّ من الدّيكتاتوريّات العلمانيّة وخُصومهم الإسلاميّين على هذه الكراهية، وقد أنتج هذا جيلًا ضائعًا، ومُحبطًا، وفوق كُلّ هذا غاضبًا. بعضهم يجد وسائل التّنفيس عن غضبهم من خلال التّمرد ضد النّخبة الحاكمة في

المظاهرات، في حين يجد البعض الآخر المأوى والعزاء بين الإسلاميّين.

وعلى هذا النّحو فإن الحركة الجماهيريّة الّتي كانت وراء الرّبيع العربي، وكانت ذات يوم حركة سلميّة، صارت ذائبة في الاقتتال الدّاخلي بين كتلتيْن متساويتيْن عنيدتيْن، وهي مواجهة اخترتُ أن أصفها بأنها صراع حضارات داخلي، مثل الصّدام بين الغرب والعالم الإسلامي على الساحة الأكبر. لكني هنا أتحدث عن صراع عربي داخلي وإسلامي داخلي على السُّلطة وعلى عقول وقلوب الشباب أيضًا بين الإسلاميين والليبراليين والعسكريين.

يُمكن النّظر إلى العالم الإسلامي باعتباره دكتاتوريّة متعدّدة الطبقات، مثل البصلة، فإن الدّيكتاتوريّة الّتي تُشكل القشرة أو الطبقة الأولى هي ديكتاتوريّة قبلية تقوم على سُلالات العائلات السّياسيّة مثل عائلات مبارك والقذافي وصدّام حسين وبن علي والأسد وممالك وإمارات الخليج؛ وتحت هذه الطبقة تأتي الدّيكتاتوريّة العسكريّة؛ وفي قلب البصلة تجد ديكتاتوريّة الدّين، الّتي تُحدّد كيفيّة تنشئة الأطفال وتعليمهم، وأخيرًا ديكتاتوريّة المجتمع، الّتي تُؤثّر على الحياة داخل الأُسَر من خلال أدوار سلطوية عفا عليها الزّمن بين الأب وأبنائه وبين الجنسيْن. وقبل كل ذلك دكتاتورية اقتصادية تجبر الشعوب على اتباع من يعدهم الاستقرار ولقمة العيش.

إن كُلّ طبقة من هذه الطبقات هي بمثابة جدار مرتفع يفصل العالم الإسلامي عن بقيّة العالم، ويفترض هذا الفصل أن الهدف هو الحفاظ على الهويّة الإسلاميّة. ولكن العزلة لا تحمي

المجتمعات، بل تصيبها بالركود والبارانويا، وهي نفس العوامل التي يحتاجها الدكتاتور كي يحكم قبضته على المجتمع. ومن خلال التّظاهرات الّتي قام بها الشّباب في شوارع العالم العربي خلال الربيع العربي تمكّنوا من إزالة طبقة واحدة فقط، ليجدوا أنفسهم في مواجهة الطبقات التّالية. من المحتمل أن تبقى في النّهاية الطبقة الأساسيّة فقط والتي تمثل قلب البصلة؛ الدّين. وسوف تبقى هذه الطبقة مثيرة للجدل، حتى إن كانت شجاعة الشّباب كافية لخلخلة مكانة الدين في السُّلطة. فإن تمكّنوا من النّجاح في هذا الأمر، فإنهم سرعان ما سيكتشفون أن أساس كُلّ هذه الطبقات ما هو إلا الخوف، وأنه تحت كُلّ هذه الطبقات المتعدّدة، لم يكن هناك شيء يستحق الحراسة أو التقديس. عندها فقط يُمكننا أن نشير إلى انتصار الثورة. وحتى ذلك الحين، فإن سِمات الشّموليّة القديمة للإسلام سوف تستمر بوضع بصمتها، حتى إنّها سوف تنتشر في مناطق لا يلعب فيها الدّين الدور الرئيسي.

الفصل الأول

ثُنائي غريب! الفاشيّة والإِسلامويّة في التّاريخ الحديث

إن الفاشيّة، من بعض النّواحي، هي دين سياسي. ويَعتقد أتباعها أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، يقف قائدهم «المعصوم» وذو الكاريزما على قمة هرم السُّلطة، مُسلحًا بمُهمّة مُقدّسة لتوحيد الأمة وسحق خصومها. تسمم الأيديولوجيّة الفاشيّة أتباعها بالكراهية والضّغينة، وتُقسِّم العالم إلى أصدقاء وأعداء وتُهدِّد كُلّ من يعارضها بالانتقام. إنها تُعارض كُلّ ما هو حداثي وتُحارب قيم التّنوير والماركسيّة واليَهُود، مُمجدةً الرّوح العسكريّة والتّضحيّة بالنّفس حتى الموت في سبيل الأفكار الفاشية.

تشترك الإسلامويّة الحديثة في كُلّ هذه الصّفات، وكونها ظهرت في وقت واحد مع الفاشيّة في عشرينيّات القرن الماضي، فقد ظهرت كُلّ من الإسلامويّة والفاشيّة كنتيجة لشعور ألمانيا وإيطاليا بالذل بعد الحرب العالمية الأولى وشعور المسلمين بالهوان بعد سقوط الخلافة العثمانية، كما توحدهما أهدافٌ لبناء إمبراطوريّة ذات هيمنة وتأثيرٌ واضح على العالم، وإبادة أعدائهم الذين تعتبرهم لا يستحقون الحياة. إن إحدى هاتيْن الحركتيْن تؤمن بالتّفوق العنصري الآري، والأخرى تؤمن بالتّفوق الأخلاقي الإسلامي على الجزء الأكبر من الإنسانيّة «غير المؤمنة».

عندما أسّس موسوليني حركته الفاشيّة في إيطاليا، كان حُلمه أن يستعيد أمجاد الإمبراطوريّة الرّومانيّة أيام يوليوس قيصر حيث كانت روما تسيطر على نصف العالم. وبعد بضع سنوات فقط من صعود موسوليني، وبتطلعاتٍ مماثلة، قام حسن البنّا بتأسيس جماعة الإخوان المُسلِمين، مُستحضرًا ذكرى دولة

الرسول ودولة الخلافة التي بسطت نفوذها على نصف العالم أيضًا. ويَعتبر الكاتب التّونسي الفرنسي عبد الوهاب مأدب في كتابة "مرض الإسلام" أن المشكلة المركزيّة هي أن العالم الإسلامي لم يتقبل بعد فكرة أنه فقد السلطة والسيطرة على العالم منذ العصور الوسطى، فلم يَعد قوة جيوسياسيّة رائدة، لكنه لا يزال يفكر كذلك، ومازال يحلم بسيادة العالم، وهذا يخلق تناقض واضح بين ماضٍ مقدس يفتخر به المسلمون وواقع محزن ومؤسف اليوم. ويسبب ذلك كراهية للغرب الذي أخذ الريادة والذي يقرر مصير العالم بدلًا من خير أمة أخرجت للناس. وهنا تظهر الكراهية بالمعنى الذي تكلّم عنه فريدريش نيتشه، كراهية صادرة من أشخاص يعتبرون أنفسهم أفضل من ظروفهم ومن عالمهم المحيط. ومن وجهة نظر مأدب، إنه مرض مزمن نتج عن الشّعور بالخيانة من قِبَل التّاريخ والعالم. وبالإضافة إلى الماضي المثالي، فإن هذا المرض يُشكّل أحد القُوى الدّافعة للفاشيّة الإسلاميّة، فكل الحركات الإسلامية تتأرجح في خطابها بين خطاب المظلومية وحلم سيادة العالم.

أركان الفاشية الأولى

يسرد الفيلسوف والأديب الإيطالي أمبرتو إيكو، في كتابه «خمسة مقالات أخلاقيّة» أربعة عشر سِمة مميّزة للفاشيّة الخام، أو الفاشية في صورتها الأولى. من بين هذه السّمات «عبادة التّقليد»، حيث يعتقد الفاشيون أن الحقيقة شيء ثابت غير متغير، وينفون بذلك إمكانيّة التّقدم الفكري والتوصل

للحقيقة بالشك والبحث والتجربة. والحقيقة من وجهة نظر الفاشيين هي ما أجمعت عليه الأمة، بلا تفكير مستقل أو دراسة. وعبادة التّقاليد هي ذاتها جُزء أساسي من الفكر الإسلامي، حيث يقال إن القرآن، حقيقة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان، ويحتوي على كُلّ ما يجب على الإنسان معرفته. حتى نصوص الإسلام الثانوية مثل السنة والتفاسير وفقه المذاهب الأربعة يعتبر مقدس ولا مساس به. يعتبر الإسلام السّياسي أن مهمّة الإسلام إلهيّة وعالمية، وهي دعوة يجب أن يُستجاب إليها في كُلّ زمان ومكان، بِغضّ النّظر عن ظروف ومتغيرات الواقع. ويرفض السّلفيّون والجهاديّون -على حد سواء- أطروحات كل من يحاول تأويل النّصوص الإسلاميّة بما يتماشى مع العصر ومتطلباته، فلا يُمكن إعادة تأويل كلام الله لأنه لا يمكن للإنسان المحدود المتغير أن يفسر كلام الله الثابت واللامحدود. ولا يهُمُّهم أن المُسلِم الّذي يأخذ النّص المُقدّس بشكل حرفيّ، على الأرجح سيُعاني وهو يشق طريقه في عالم عصري دائم التّغيير ومُتناقض مع النص المقدس، لأن الإنسان من وجهة نظر إسلامية هو في خدمة النص والشريعة وليس العكس.

بالنّسبة للإسلاميّين فاللهث وراء الحداثة هو ببساطة علامة على مدى ابتعاد النّاس عن الإيمان الحقيقي! أما بالنّسبة لإيكو، يأتي رَفضْ الحداثة والتّنوير رقم ٢ في قائمة سمات الفاشية الأولى، فهذا الرفض مُرتبط بميل نحو اللاعقلانيّة ورَفض التّفكير النقدي بخلاف كراهية الآخر والتّمييز على أساس الجنسانيّة (الذّكورة والأنوثة). ومن المعلن أن حركات الإسلام السياسي تضع محاربة الحداثة من أولوياتها.. ويتفاخرون بذلك.

كتب إيكو: (إن الفاشيّة تتغذّى على هَوَسِ النّاس بالاعتقاد أن «الآخرين» يحيكونَ مخططًا ضدّهم). إنها عُقدة الاضطهاد المصحوبة بشعورٍ يقيني بالتّعرُّض للظلم والإذلال متبوعًا بتعطشٍ للانتقام. وهو شعور منتشر في الفكر الإسلامي منذ بداية الإسلام حيث حذر الرسول المسلمين من الكفار واليهود والنصارى وتنبأ أن الأمم سيحاصرون المسلمين مثل تكالب الأكلة على قصعتها.

إن أتباع الفاشيّة يعيشون، كما يرى إيكو، من أجل الكفاح المسلح أكثر ممّا يكافحون من أجل العيش، وهذا «الكفاح» هدفٌ أكثر منه وسيلة. وينطبق الشّيء نفسه على المفهوم الإسلامي للجهاد، حيث إنّه ليس مجرد وسيلة للدفاع عن النّفس إنما هو واجب لله إلى الأبد ووسيلة لكسب الرزق والقضاء على الهموم والاكتئاب. الفاشيون والإسلاميون لا يؤمنون بفكرة التعايش مع الآخر، لكنهم يحاولون تنقية جسد الأمة من كل عنصر يرونه غريبًا. عند الفاشيين إما أن تكون آريًا أو تموت، وعند الإسلاميين إما أن تعتنق الإسلام أو تموت.

ولكي نضع خطوطًا عريضةً للمزيد من التّشابه، فإن الفاشيّة والإسلام هما، على حد السّواء، مرضان أصيبت بهما «الأمم المتأخّرة»، التي لم تتحدد شكل الدولة الحديثة فيها إلا منذ وقت قريب. فألمانيا وإيطاليا تأخرتا في تحقيق الوحدة الكاملة حتى القرن التاسع عشر، والدول الإسلامية كانت تحت وصاية الخلافة العثمانية ثم وصاية الاستعمار ولم تصبح دولا مستقلة إلا في القرن العشرين. المجتمعات الفاشية والإسلامية تعيش على أمجادها التّاريخيّة بينما هي تمر بعمليّة اضمحلال آني.

وقبل انتشارها في دول أوروبيّة أخرى، فرضت الفاشيّة نفسها أوّلًا في إيطاليا. لماذا إيطاليا من بين جميع الدّول؟ في ذلك الوقت، كانت البلاد في خضم عمليّة توحيد غير مكتملة، والأحزاب السّياسيّة تضرب بعضها البعض، وشعر الإيطاليّون بعد الحرب العالمية الأولى بأن معاهدة باريس للسلام غير مُرضية بشكل كبير، وكانت إيطاليا تُعاني من إنهيار الاقتصاد، ومن مخاوف من اندلاع الثّورة البلشفيّة الّتي كانت تلوح في الأفق. وفوق ذلك كله، كانت إيطاليا دولة كاثوليكيّة مُتديّنة تحتضن الفاتيكان، وأفكارها لا تخلو من تاثير أفكار الكنيسة بما في ذلك مبادئ الشّرف والكرامة، والتّسلسُل الهرمي، والوحدة، والقيادة الكاريزميّة المعصومة، وأمتلاك الحقيقة المطلقة، وكلها عناصر من شأنها أن تجد طريقها إلى الفاشيّة.

مع مطلع القرن التّاسع عشر، ظهرت الحركات القوميّة والفاشيّة في دُول مثل إنجلترا وفرنسا، وقد كانتا من الدّول ذوات التّاريخ الطويل من الوحدة الوطنيّة في إطار دولة واحدة لها تاريخ مع الديمقراطية والنقاشات البرلمانية بعكس ألمانيا وإيطاليا. لذلك كانت الحركات الفاشية في إنجلترا وفرنسا حركات هامشية لم تستطع تعبئة الجماهير وتجييش المقاومة.

يرى المؤرِّخ ارنست نولته أن الفاشية الفرنسية بدأت بحركة كاثوليكيّة مسلحة اسمها Action française وقد تأسّست في فرنسا في عام ١٨٩٨م، كرائدة بين الحركات الفاشيّة التي ظهرت في وقت لاحق في إيطاليا وألمانيا. كانت غاية هذه الحركة في أن تضع حدًا للحداثة في الكنيسة الكاثوليكيّة وفي فرنسا كلها، والعودة إلى النّظام الاجتماعي المسيحي المحافظ،

ولكنها لم تتمكّن من حشد الدّعم الجماهيري لأن العلمانية والديمقراطية كانت أكثر شعبية في فرنسا منذ الثورة الفرنسية، وفقدت الحركة أهميتها إلى الأبد عندما احتل الجيش الألماني النّازي فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية.

وبعد ثلاث سنوات من الضّربة المدويّة للأزمة المالية العالمية وانهيار وول ستريت عام ١٩٢٩م، قام أوزوالد موسلي بتأسيس اتّحاد بريطانيا للفاشيّين. ووفقًا للأرقام الخاصّة به، كان الحزب يتفاخر بخمسين ألف عضوًا فقط لا غير. وقد كلّف موسلي أعضاء الحزب، في وقت لاحق، بضرورة ارتداء زيّ أسود للحزب يتطابق مع زي الوحدة الوقائيّة الخاص بموسوليني وذلك أثناء قيامه بجولة في إيطاليا لدراسة الفاشيّة. وقد استنزفت حركته الدّعم في أعقاب ليلة السّكاكين الطويلة، وبعد فشل محاولة إنقلاب ضد هتلر من داخل جيشه، وكان ذلك خلال الحرب العالميّة الثّانية.

سيطرت الفاشيّة على ألمانيا وإيطاليا، وقام أنصارها بالاستيلاء على مقاليد السُّلطة وتقديم وعود للشّعبين بسحق الأعداء وسيادة العالم. يمكن أن يُنظر إلى الفاشيّة الإيطاليّة باعتبارها نقطة النّهاية لعمليّة التّوحيد الإيطاليّة الّتي ابتدأها مازيني وجاريبالدي في القرن التّاسع عشر. الكلمة الإيطاليّة fascio تعني الوحدة، وتنبع من كلمة fasces اللاتينيّة، هي تعني مجموعة أو حزمة، وتشير إلى حزمة من العصي كانت تُحمل أمام الأباطرة الرّومان، وفي وقتٍ لاحقٍ من قِبل مُوظّفي الخدمة المدنيّة والمسؤولين. إنها رمز للقُوّة، فهي بِمثابة علامة للوحدة، وأيضًا هي أداة للعقاب البدني للمنشقين والمجرمين. عندما أسّس

موسوليني جمعيته الأولى، Fasci di Combattimento، في عام ١٩١٩م، كان يستحضر ذكريات الإمبراطوريّة الرّومانيّة كقوة عالميّة، لأسباب ليس أقلّها أنّه كان يأمل في إعادة بنائها.

ظهرت الفاشيّة الألمانيّة أيضًا في فترة من التّدهور. نذكر على سبيل المثال عددًا قليلًا من العوامل، منها الهشاشة الاقتصاديّة، وضعف الأحزاب السياسية، وقد قدّمت معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى أرضًا خصبة للنازية، حيث أجبرت ألمانيا على دفع تعويضات كبيرة وتنازلها عن جزء كبير من أراضيها لصالح الحلفاء. وقد بدا وكأن الحركة تعد بإعادة إحياء حُلم الإمبراطوريّة الفيلهيميه التي كانت تعد ألمانيا بـ «مكان تحت الشّمس» بعد أن سيطر الانجليز والفرنسيين على معظم المستعمرات في العالم. وهي المحاولة التي أحبطتها القوى العظمى في الحرب العالمية الأولى. ولذلك أصبح العجز السياسي والاقتصادي مُختلطًا مع حُلم الفتوة والسُّلطة المطلقة، ممّا أدى إلى خلق مناخ مثالي لصُعود النّازيّين إلى السُّلطة حيث استخدموا نفس السلاح الذي سيستخدمه الأخوان المسلمون بعد سنوات قليلة، ألا وهو خلط خطاب المظلومية بأحلام عودة السلطة والقوة والازدهار عن طريق وحدة الأمة والكفاح المسلح ضد أعدائها.

ويُمكن أن تُسمّى مُعظم البلدان الإسلاميّة أيضًا بالدّول المتأخّرة، على نفس منوال ألمانيا أو إيطاليا في عشرينيّات القرن الماضي، فمنذ سُقوط الإمبراطوريّة العثمانيّة (وبعد نِهاية الحُكم الاستعماري) لم تعد البلدان الإسلاميّة قادرة على

الاختيار بين الدّولة القوميّة الحديثة، وبين الهياكل القبليّة القديمة أو الثّيوقراطيّة الدينية، فبقيت معظم الدّول الإسلاميّة في حالة جُمود لعقود من الزّمن، يَحكمها مزيجٌ متناقضٌ من هذه الأنظمة. فهناك الدّول ذات الدّيكتاتوريات العسكريّة أو تلك الّتي تحاول بحذر أن تكون دولًا حديثة إلى حد ما، وفي هذه الدول يسعى الإسلاميّون دائمًا للانقضاض على السلطة. وفي الأغلب يصبح لا بديل للإسلاميين غير الجيش ولا بديل لأي حكم ديكتاتوري إلا الإسلاميين، في تجلي واضح لفشل هذه الدول في بناء مؤسسات حقيقية.

شهد القرن العشرون ثورات مضادة عنيفة ضد الحداثة وضد قِيم التّنوير: فبعد البلشفيّة والفاشيّة، اعتبر المؤرخ الألماني ارنست نولته والفيلسوف إرنست جيلنر على حد سواء، أن الإسلام السياسي حركة ثالثة مُناهضة للحداثة. استفادت هذه الحركات الثلاث بالتّأكيد من الابتكارات التّكنولوجيّة للعصر الحديث، ومع ذلك قاومت ثلاثتهم بشدّة أحجار الزّاوية في عصر التّنوير؛ العقلانية والحريّة الشّخصيّة وحريّة الفكر والفرديّة وحُقوق الإنسان واستقلالية الجسد البشري، وكذلك حريّة التّعبير والصّحافة، والتعددية، لأن الحركات الثّلاث تَعتبر أن كُلّ هذه الأمور مصدر تهديد للهوية الجمعية.
تنظر هذه الحركات دائمًا إلى المناطق الرّيفيّة وتقاليدها وتنظيماتها الاجتماعية بعين التمجيد، في حين تنظر إلى المناطق الحضريّة بعين التوجس والقلق، وخطابها السياسي يدغدغ مشاعر الريفي البسيط ويلعن المدينة ومخاطرها.

بالنّسبة للبلاشفة، كانت المدينة هي موقع لاستغلال البروليتاريا «طبقة الأيدي العاملة». وبالنّسبة للنازيّين، كانت برلين ترمُز للانحلال الأخلاقي في فترة العشرينيّات الصّاخبة، وأما بالنّسبة للإسلاميّين أيضًا، فإن المدينة هي مكان الخطيئة والانحطاط وغياب الأخلاق. لذلك نجحت هذه الحركات دائمًا في استقطاب الريفيين في القرى والنازحين من الريف إلى المدن بشكل واضح.
على مر التاريخ، أينما تمكّن الفاشيّون والشّيوعيّون والإسلاميّون من القفز على السُّلطة أصبحت مجتمعاتهم سجونًا كبيرة، حيث يتم مراقبة سجنائهم -أي مواطنيهم- أربع وعشرين ساعة في اليوم. فقد كان -وما زال- يُنظر إلى التّعدديّة على اعتبار أنها تهديد، أما التّوافق المجتمعي فيُنفّذ بشكل مصطنع عن طريق العُنف والتّرهيب والنفاق. فهناك أيديولوجيّة واحدة حقيقيّة فقط، تلك الّتي كانت تَصف المنشقين بالمرتدّين والخونة في أحسن الأحوال، أما في أسوأ الأحوال فقد كانت تحكم عليهم بالموت.

أينما تمكّنت الفاشيّة الإسلاميّة من السّيطرة، كما حدث في إيران والسّودان ونيجيريا والصّومال وغزّة وداعش، ظهرت الدّكتاتوريّات الوحشيّة، رافضة حتى يومنا هذا إرخاء قبضتها عن السُّلطة. أينما تمّت الإطاحة بالإسلاميّين من الحكومة، يتحوّلون هم ومؤيّدوهم إلى إرهابيّين، يقومون بأعمال عُنف مدمّرة على بلدانهم، كما هو الحال في الجزائر وأفغانستان

ومالي وليبيا، وهذا هو المصير الّذي عانت منه كل من مصر وسوريا أيضًا.
وبالرغم من كل ذلك، فلا يزال الإِسلام السّياسي يُشكل الأمل بالنّسبة لرقعة واسعة من السّكان في الأقطار الإِسلاميّة. وذلك بسبب عوامل كثيرة؛ أولها فشل الشعوب والنّخبة السّياسيّة في الدّول الإسلامية في إقامة بديل للإِسلاميين يمنح للشعوب هوية صلبة ورخاء اقتصادي في نفس الوقت.

الفصل الثاني

الإخوان المُسلِمون في مصر.. إصلاحيّون أم فاشيّون؟

إن جماعة الإخوان المُسلِمين هي إحدى أكثر الجماعات السّنيّة نفوذًا في الشّرق الأوسط، وهي تُقدَّم في بعض الأحيان من قبل الخُبراء في الإسلام السياسي على أنها «حركة اجتماعيّة إصلاحيّة» قامت بنبذ العُنف في ماضيها البعيد. هؤلاء هم نفس الخبراء الّذين يدعون أن هناك «إسلاموية معتدلة»، مدّعين أنها تتوافق مع الدّيمقراطيّة. وكان رجب طيّب أردوغان، الرّئيس الحالي لتركيا، يتم ذكره باستمرار بالتّزامن مع ما يُسمّى بالإسلام المعتدل، وكذلك راشد الغنوشي وحزبه في تونس؛ حزب النّهضة، وأيضًا جماعة الإخوان المُسلِمين في مصر، وحركة العدل والإحسان في المغرب. وقد أفطن الإخوان في مصر وتونس وتركيا أنهم يحتاجون إلى ظهير سياسي واقتصادي في الغرب، فتخلوا في خطابهم الخارجي عن ترويج فكرة الجهاد، واكتفوا بترويج خطاب المظلومية وانتقاد الاسلاموفوبيا من ناحية، وخطاب التعايش السلمي وأن الشريعة والديمقراطية شيء واحد، والحجاب هو رمز لتحرر المرأة وتمكينها. وظهرت فئة جديدة من الإسلاميين في الغرب يرتدون رباطات العنق ويقتبسون مقولات من إيمانويل كانط وروسو وجون لوك ليثبتوا أن مشروعهم حداثي يهدف للتعايش. وتوغل هؤلاء في العمل المؤسسي الغربي واشتركوا في الأحزاب السياسية خاصة اليسارية، بل واشتغلوا بالعمل الحقوقي وتوغلوا في المنظمات غير الحكومية وأصبح لهم لوبي كبير ومؤثر في الاتحاد الأوروبي وكندا والولايات المتحدة، حتى أنهم يحاولون الآن تمرير قانون جديد يحرم انتقاد الإسلام في أوروبا وكندا. وعلى مستوى الاقتصاد يسيطر

هؤلاء على البنوك الإسلامية وتجارة المنتجات الحلال، كما أن لهم بنوكهم السرية الخاصة المشتغلة بغسيل الأموال وتخزين الاموال المهربة من الدول الإسلامية. أضف إلى ذلك الدعم المالي الضخم الذي يحصلون عليه من قطر وبعض أثرياء الخليج، ما مكنهم حتى من افتتاح مراكز أبحاث للدراسات الإسلامية داخل أكبر جامعات الغرب مثل أكسفورد وجورج تاون وتوبنجن وغيرها. وهي مراكز لا تقترب من انتقاد الإخوان المسلمين، ناهيك عن انتقاد الإسلام نفسه.

وعندما أظهرت هذه الفرق الثّلاث وجهها غير الديمقراطي الفاسد في مصر وتونس وتركيا، رفض هؤلاء الخبراء الغربيون التّخلي عن اعتقادهم أنه في مكانٍ ما في العالم يوجد حتمًا تيارٌ إسلامي ديمقراطي معتدل، مُتجاهلين حقيقة أن الإسلاميّين مهما كانت ألوانهم وتمويهُهُم فإنهم يدخلون السّياسة بِهدف واحد فقط: وهو تطبيق النّظام الاجتماعي الإسلامي في إطار الشّريعة الإسلاميّة، ولا يفقدون هدفهم الأسمى من أمام عيونهم، وهو الهيمنة على العالم على المدى الطويل.

وفي أعماقهم يحتقر الإسلاميّون الدّيمقراطيّة، ويعتبرون أنها ليست أكثر من طريقة للوصول إلى السُّلطة. ولكن بعد أن شهد إردوغان أستاذه نجم الدّين أربكان وهو يفشل في إقامة حكومة دينيّة من خلال تجاوز المؤسّسات التّركيّة، اختار الزعيم التركي الإسلامي الجديد طريقة التسلُّل والتوغل بدلًا من طريقة الانقلاب، وفي بِداية مسيرته قدّم إردوغان نفسه على أنه علمانيّ موالٍ للغرب، وراغبًا في محاربة الفساد بشدّة وإصلاح الاقتصاد التُّركي والانضمام للاتحاد الأوروبي. بعد بضع

سنوات فقط من انتخابه رئيسًا للحكومة قام باختراق مؤسّسات البلاد من الدّاخل، وتحييد الجيش ثم اخترقه بالإسلاميين، ثم كشف عن استبداده وإمبرياليّته وعدائه للغرب وللعلمانية. فهاهو يغير المناهج الدراسية في تركيا ويحذف منها نظرية التطور ويقرر التعاليم الإسلامية في الكتب، ويروج للحجاب ويسجن الكُتّاب والمفكرين الذين ينتقدون الإسلام. وهاهو بعد أن دعم داعش بوضوح يدخل سوريا بدباباته ويحتل عفرين ومناطق كردية. فما هو إلا نسخة دايت من داعش، لأنه لا يريد تحطيم الجسور التي تربطه بالغرب بعد.

عندما دوّت فضيحة فساد حكومة أردوغان في ديسمبر ٢٠١٣م، لم يكن لدى وزير الشّؤون الاقتصاديّة ظافر كاجليان سوى نظريات المؤامرة لتقديمها، واصفًا إياها بـ «المؤامرة القذرة ضد الحكومة والحزب وتركيا نفسها» وقال إن وكالات الاستخبارات الأجنبيّة وراء تلك الفضيحة. نفس الشيء قاله إردوغان نفسه عن محاولة الانقلاب الفاشلة سنة ٢٠١٦ على أنها مؤامرة غربية ضده، وقال نفس الشيء عن انهيار الليرة التركية سنة ٢٠١٨. وهنا نرى سمة جديدة من سمات الفاشية: تحويل الانتباه من مشاكل البلاد الحقيقية إلى نظريات مؤامرة يكون الخارج وحده هو المسؤول فيها عن كل مشاكل البلد، ثم التورط في حروب عسكرية للفت الانتباه، وهي ظاهرة نعرفها من كل البلاد الإسلامية تقريبًا.

يتضمّن تاريخ جماعة الإخوان المُسلِمين عدّة محاولات للاستيلاء على السُّلطة في مصر بالقُوّة. في مرحلة من المراحل كانوا يعتبرون أن الانتخابات الدّيمقراطيّة هي كُفر محض حيثُ

إنّ السّيادة لله لا للبشر. ولم تسمح لهم القُوّة الغاشمة بتحقيق أهدافهم، ما أدي إلى تغيير موقف الجماعة من الانتخابات -إن لم يكن من الدّيمقراطيّة ذاتها-، وفاز الإخوان في انتخابات مصر عام ٢٠١٢م، لكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا بعد عام واحد فقط من تقلّدهم للسُلطة. ومرّة أخرى، أُلقيَ باللوم على أعداء الإسلام في الدّاخل والخارج بدلًا من أن تُحاسب الجماعة نفسها على استئثارها بالسلطة وإقصاء القوى السياسية المعتدلة.

وأخيرًا في ديسمبر ٢٠١٣م، تمَّت محاكمة الشّخصيات الرّئيسيّة في جماعة الإخوان المُسلِمين، بتـُهْمة التآمر والدعوة للعنف وإعطاء الأوامر بقتل أفراد الجيش والشرطة. فقد باتت أساليبهم الآن مألوفة جدًا، وهي نفس الأساليب الّتي استخدمتها الفاشيّة عبر التّاريخ، حيثُ إنّهم إما أن يحكموا البلاد أو يحولوها إلى كرة نار بالإرهاب والعنف.

لقد كان مسار جماعة الإخوان المُسلِمين فاشيًا مُنذ تأسيسها في عام ١٩٢٨م، ومثل أي حركة فاشيّة تاجرت جماعة الإخوان في عُملتيْن: الغضب والدّم. طوال تسعين عامًا من وجود هذه الجماعة، لم يُقدم أعضاؤها أي مُخطَّط حقيقي لمستقبل مصر على الإطلاق، ولا حتى إجابات عن مشاكل البلاد أو مشاكل أيّة دولة إسلاميّة أخرى. ورغم ذلك فهم ما زالوا مُصرِّين على حُكم تلك البلدان، وأولئك المستعدون للعمل جنبًا إلى جنب مع الإخوان مطلوب منهم اعتماد شعارهم: «**الله غايتنا، والقرآن دستورنا، والرسول قائدنا، والجهاد طريقنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا**».

وحتى لو كان الشّكل الّذي تتخذه سياسة الجماعة معتدلًا افتراضيًا فإن هذه الأركان الخمسة كافية لكشفها على أنها منظمة فاشيّة. كما أنه يُمكن اعتبار الإخوان المُسلِمين مؤسّسين للإرهاب الإسلامي من خلال قناعة أعضائها بأن كل من ليسوا معهم فهم أعداؤهم، فحركات الجهاد الإسلامي والجماعة الإسلامية والتكفير والهجرة وتنظيم القاعدة نفسه هي حركات منشقة عن أو منبثقة من هذه الجماعة. وتاريخ الإخوان المُسلِمين بأكمله هو نتاج ذات العقليّة الّتي تتسم بها النازية ونتائجها المروّعة؛ عقليّة متشبثة بلحظة ما في التّاريخ لا تخرج منها.

قضت الحرب العالميّة الأولى على الكثير من القُوى العظمى. سقطت عائلة هابسبورج المالكة وانهارت معها الأحلام الإمبرياليّة لألمانيا والإمبراطوريّة النّمساويّة المجريّة، وحَلّتْ النازية مكانها. كما سقطت الإمبراطورية في روسيا وقُتِلَ القيصر الرّوسي وعائلته، وأُزيحَ الحكم الملكي في البلاد وحلّت محله الأيديولوجية الشّيوعيّة. كما أن الإمبراطوريّة العثمانيّة المحاصَرة لفترة طويلة سقطت أخيرًا عام ١٩٢٤م، وانتهت الخلافة معها، تلك الّتي حكمت عددًا كبيرا من الدّول والشّعوب الإسلاميّة لمدّة أربعة قرون.
حلت أديان سياسية جديد محل الإمبراطوريات المنهارة بعد الحرب. فانتشرت الفاشيّة في إيطاليا، واستولى النازيون في ألمانيا، في حين أصبحت الشّيوعيّة هي الدّين الرّوسي الجديد.

وبعد انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة، تنافس الإسلام السياسي والقومية العربية على قلوب العرب وعلى كرسي السلطة.
خلال هذه الفترة المتوترة لإعادة التّوجيه، ظهرت مجموعتان تستقل إحداها عن الأخرى وتهدفان إلى استعادة الخلافة الإسلاميّة. في الهند قام الباحث أبو الأعلى المودودي بتأسيس حركته في عام ١٩٢٤م والتي كان من شأنها أيضًا إحياء الفكر الجهادي. أراد المودودي أوّلًا أن يتخلّص من الاستعمار البريطاني لبلاده ومن ثم توحيد الأمة أو المجتمع المُسلِم في جميع أنحاء العالم. كان نداء المودودي: «اخرجوا وانضموا إلى الجهاد» داعيًا بذلك أعضاء الحركة إلى الانخراط في النزاع المُسلَّح. «اقضوا على جميع الّذين يرفضون شرع الله... إذا كنتم تقبلون حقيقة الإسلام، فإن كُلّ ما عليكم القيام به هو بذل كُلّ ما أوتيتم من قُوّة لإقامة حُكم إسلامي على الأرض». لقد انتشرت أفكار المودودي بسرعة أوّلًا في الهند ولاحقًا في باكستان وأفغانستان، ووصل إلى مصر حيث قرأ أفكاره سيد قطب.
بعد ذلك بأربع سنوات فقط، وفي عام ١٩٢٨م، تشكلّت جماعة الإخوان المُسلِمين في مدينة الإسماعيليّة الواقعة على قناة السّويس. كان حسن البنا مدرسًا للُغة العربيّة وكان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا حين صاغ هدفيْن لحركته الجديدة. أوّلًا، كان على المجتمع الإسلامي أن يتطهّر من كُلّ شيء غير إسلامي. وثانيًا، استعادة الخلافة. انتشرت فلسفته بسرعة في سوريا ومصر، واليوم تفتخر المجموعة بممثّلين لها في أكثر من سبعين دولة في العالم إذ يعتبر نشاط الإخوان المُسلِمين

كبيرًا على المستويَيْن السياسي والمالي على حد السّواء، في أوروبا والولايات المتحدة.
في البداية، لم تتولَ مجموعة المودودي ولا حتى مجموعة البنا السُّلطة في أي دولة، ولكن وُلد عنهما بعد ذلك العديد من المنظمات المتشدّدة الّتي كانت مسؤولة في العقود الأخيرة عن هجمات إرهابيّة لا تُعدّ ولا تُحصى في العالم الإسلامي وآسيا وأوروبا والولايات المتحدة. وقد لفتت العولمة انتباه إحدى هاتيْن الحركتيْن إلى الأخرى، حيث تقابل أبناء وأحفاد البنا والمودودي عام ١٩٨٠م في أفغانستان لمحاربة روسيا بأموال السّعوديّة ورصاص الغرب. وبدلًا من أن يضعوا أسلحتهم جانبًا عندما انتهى الحُكم السّوفيتي في أفغانستان، أسّسوا حركة مكرَّسة لتحقيق أحلام هذيْن الرّجليْن من خلال الجهاد على المدى الطويل. واليوم، هذه الجماعة معروفة باسم تنظيم القاعدة.

الإخوان المُسلِمون والنّازيّون.. قصّة حُب وعواقبها

لا توجد أدلة موثقة لتواصل مباشر بين هتلر وحسن البنا لكن الشيء المعروف والموثق هو أن الشيخ أمين الحسينى مفتى القدس آنذاك كان حلقة الوصل بينهما، حيث كان الحسينى صديقًا مقربًا لهتلر وصديقًا حميمًا للبنا. كان الشيخ الحسيني يجند المسلمين اليوغسلاف والسوفييت للجهاد في صفوف النازى ضد الاتحاد السوفيتى. وكافأه هتلر بتخصيص مكان لإنشاء مسجد كبير في مدينة ميونيخ الألمانية. نفس المسجد الذي جعله سعيد رمضان زوج بنت حسن البنا وسكرتيره

الشخصى مركزًا للإخوان المسلمين في أوروبا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. نفس المسجد الذي استغلته المخابرات الأمريكية في السبعينات بالتعاون مع سعيد رمضان لمحاربة الشيوعية في أوروبا، حسب كتاب الصحفى الأمريكى Ian Johnson الحاصل على جائزة بوليتزر الشهيرة في الصحافة، في كتابه A Mosque in Munich: Nazis, the CIA, and the Muslim Brotherhood in the West

كان البنا والحُسيني أصدقاء قبل رحلة الأخير إلى ألمانيا بفترة طويلة. كانت الرّسالة الّتي أرسلها حسن البنا عام ١٩٢٧م والذي كان مازال مدرسًا شابًا في ذلك الوقت، وأعرب فيها للحسيني عن نيّته لتأسيس «الإخوان المُسلِمون»، دليلًا كافيًا للصداقة الّتي كانت بينهما في السّابق. وكان رد فعل الحسيني مليئًا بالحماس، حيث باركَ هذه الخطة، وفي صورة قديمة من أرشيف الإخوان المُسلِمون تُظهر اندماج الرجليْن بشكل ملحوظ.
إن علاقة أمين الحسيني مع النّظام النّازي مُوثّقة تمامًا، حيث قام المفتي بمُناقشة «الحل النّهائي للمسألة اليَهُوديّة» مع الوزيريْن يواقيم فون ريبنتروب ومع أدولف ايخمان، أملًا في دعم هتلر لدولة عربيّة في فلسطين على غرار ألمانيا النّازيّة.
إلا أنّ هناك علامات قليلة للغاية أنه كان للبنا أصدقاء في ألمانيا النازية في ذلك الوقت. في حين أن وثائق الاستخبارات البريطانيّة تشهد على المراسلات بين المخابرات النّازيّة وأعضاء جماعة الإخوان المُسلِمين في مصر، الّذين خطّطوا

لإضعاف قبضة بريطانيا على شمال أفريقيا خلال الحرب العالميّة الثّانية، وما زال نطاق هذا التّعاون غير واضح.
ما يمكن إثباته بلا شك هو أن حسن البنا كان مُعجبًا بالاثنيْن؛ موسوليني وهتلر، ناظرًا إليهما باعتبارهما قائديْن ناجحيْن قادا بلادهما إلى عهد جديد. وكُلما ذُكر أحدهما، كان يكرمُهما بخلع الألقاب الإيطاليّة والألمانيّة «الدّوتشي» و« الفوهرِر» عليهما.
ومن جانبه لم يُعلن البنا عن نفسه باعتباره مُجرّد إمام أو قائد كما اعتاد معظم القادة الدّينيّين والسّياسيّين العرب أن يفعلوا، إنما أعلن نفسه «مرشدًا». وفي وقت لاحق، اعتمد آية الله الخوميني نفس اللقب، وكلمة مرشد هي الترجمة الحرفية لكلمة فوهرر التي كان هتلر يلقب بها نفسه.
في واحدة من مقالاته بعنوان "السينيور موسوليني يشرح مبدأ من مبادئ الإسلام"، يبدو حسن البنا منبهرًا ومسلوبَ العقل بخطاب موسوليني عام ١٩٣٥م، حين ألزم الأخير إيطاليا بحرب أبديّة حين أعلن «إن ايطاليا يجب أن تصبح منذ الآن دولة حربية مشبعة بروح النضال ولقد اتخذت في الاجتماع الأخير لمجلس الوزراء سلسلة من القرارات من شأنها أن تطبع الشعب الايطالى بالطابع العسكرى في أقرب وقت والفكرة الأساسية في هذه القرارات هى أن تكون الجنسية الايطالية والروح العسكرى صفتين متلازمتين في كل إيطالى بين الثامنة والخامسة والخمسين من عمره وهذه فكرة لم يسبق تطبيقها في أى زمن من الأزمان، فهى إذن حدث جديد في التاريخ وتوجد أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بصعوبة الأخذ بهذه الفكرة في أى بلد آخر حيث لا يوجد في العالم شعب تؤهله أحواله

السياسية وظروفه الأخلاقية والتاريخية لأن يُجَنّد عن بكرة أبيه كالشعب الايطالى».
إن النّقطة الأكثر إثارة للاهتمام هي عندما قام البنا بتصحيح ما قاله موسوليني، لافتًا إلى أن فكرة عسكرة المجتمع بأكمله لم تبدأ تحت ظل الفاشيّة، إنما بدأت قبل ذلك الوقت بثلاثة عشر قرنًا من الزمان في زمن النبي محمد. ويقول البنا إن الإسلام قام بتقديس الروح العسكرية، كما فعل موسوليني، ساعيًا إلى زرعها في أعماق كُلّ مسلم. وأكمل قائلًا «في القرآن الكريم قلما تخلو سورة من حث الأمة على الشجاعة والجهاد في سبيل الله، يقول الله تبارك وتعالى:

(انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

التوبة :٤١

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

النساء:٧٤

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

التوبة:١١١

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ

اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

التوبة ١٢٠-١٢١

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ)

النساء:٧٧-٧٨

واختتم البنا مقاله قائلًا:

وإذا كان قوام الروح العسكرية أمرين لا ثالث لهما النظام والطاعة فإن القرآن الكريم جمع هذين المبدأين في آيتين في كتابه فقال تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ)**

الصف: ٤

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ)

محمد :٢٠-٢١

ومن الواضح أنه قد تمَّ تكريس مفهوم النّزاع المُسلَّح لتقوم عليه حركة البنا من اليوم الأوّل لا على أيّة أُسس أخرى، حيث قام

هو شخصيًا بتصميم الشّعار، الّذي هو عبارة عن سيفيْن متقاطعيْن تحت القرآن، وتحتهما الكلمة الافتتاحيّة للآيّة القرآنيّة «وأعدوا». وهي غرة الآية رقم "٦٠" من سورة الأنفال والتي تحمل أحد أهم وأوضح مشتقات كلمة "الإرهاب"، وتُقرأ كما يلي: **«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»**.

هناك روايات كثيرة متناقضة عن أصل شّعار الجماعة، حتى إنّ البعض قال مُدعيًا إنّها النّسخة الإسلاميّة للصليب المعقوف رمز النازية، إلا أن فاتحة البيان الأوّل للإخوان لا تقبل الجدل، فما تزال الدّعوة الواضحة للنزاع المُسلّح مُستخدمة حتى اليوم، بيد أن سياقها يتغيّر مع الزّمن. «**الله غايتنا، والقرآن دستورنا، والنّبي قائدنا، والجهاد طريقنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا**».

وفي الأصل، تُشير هذه الدّعوة لحمل السّلاح إلى الاستعمار البريطاني وكذلك إلى القوى الدّيمقراطيّة في مصر التي وضعت دستورًا علمانيًا عام ١٩٢٢. وعندما حقّقت مصر الاستقلال الصُّوري على الورق في وقت سابق من ذلك العام، كانت البلاد ما تزال تحت الانتداب البريطاني. وقد قام آنذاك عددٌ من المحامين والسّياسيّين المصريّين ممّن تلقّوا العلم في الغرب بوضع دستور ليبرالي وديمقراطي بدرجة كبيرة لا تقبلها جماعة الإخوان المُسلِمين. حتمًا كان هذا الدّستور أكثر

تقدُّمًا بكثير من أي دستور آخر تلاه في مصر، حيث ضمن دستور ١٩٢٣م الحماية في أمورٍ أخرى كحقوق المساواة بين الرّجال والنّساء، وبصورة لا لبسٍ فيها أيضًا حريّة الصّحافة والفكر والعقيدة وحتى حرية الإلحاد.
والجدير بالذّكر، أنه على الرّغم من الشّكوك الأوليّة حول مفهوم الدّيمقراطيّة، جرت في مصر تلك الفترة انتخابات تمكّنت خلالها الأحزاب الليبراليّة واليساريّة من الفوز، بينما فشل القوميّون المتطرّفون والإسلاميّون في حشد النّاخبين. وفي عام ١٩٣٠م، بدأ الملك فاروق بالتّحرُّك للحد من الدّيمقراطيّة في بلاده، وقام بتقليص صلاحيات البرلمان عندما أعلن عن خُططه بشأن ذلك. وشكّل اليساريّون والليبراليّون الأغلبيّة في البرلمان مُقاومينَ الملك فاروق صاحب السُّلطة فعليا وقتها، وخرجت جحافل العمال والطلاب إلى الشّوارع للتظاهر ضد ملك مصر للمرّة الأولى في التّاريخ. وهنا استشعر الإخوان المُسلِمون فرصتهم، فبينما خرج اليساريون في مظاهرات تهتف "الشعب مع النحاس"، خرج الإخوان في مظاهرات تهتف "الله مع الملك". وتعد هذه هي بداية التلون والتملق الذي مارسه الإخوان على مر العصور للوصول لأهدافهم السياسية.

رغم أن حزب مصر الفتاة لم يكن حزبًا سياسيًا بشكلٍ رسمي بعد، فقد انضم أعضاء جماعة الإخوان المسلمين إلى القوميّين المتطرّفين فيه. تأسّس الحزب في أكتوبر ١٩٣٣م على غرار الحزب النّازي، حتى إنّهم قاموا باستخدام تحيّة هتلر كتحيّة لحزبهم. وخرج من هذا الحزب شابان عسكريان قاما بتحديد

مصير مصر فيما بعد، جمال عبد النّاصر وأنور السّادات، حيث أختار الاثنان التّعاون مع الإخوان في بدايات حكمهما.
في تلك الفترة قام كُلّ من حزب مصر الفتاة وجماعة الإخوان المُسلِمين بتطوير أجنحة شبه عسكريّة على غرار تلك الجماعات الفاشيّة في إيطاليا وألمانيا، وجمعوا الأسلحة، وقاموا بتدريب القُوّات في معسكرات سريّة. مُنذُ تلك اللحظة، ارتدى قسم شباب الإخوان المُسلِمون القمصان البنيّة مثل شبيبة هتلر، وهم يهتفون أثناء تدريبهم «الجهاد، الطاعة، الصّمت!» بعد ما اقترضوا الفكرة من قمصان موسوليني السّوداء. بينما كان أنصار حزب مصر الفتاة يرتدون في تلك الأثناء القمصان الخضراء ويطوفون شوارع القاهرة وفي أيديهم مشاعل، صارخين «مصر أوّلًا» وكان هذا النداء صدى لجملة «Deutschland, Deutschland über alles » الّتي تعني «ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع».
بينما كانت رحى الحرب العالميّة الثّانية تدور، أُلْقيَ القبض على أنور السّادات وسُجن بِتُهمة الاتصال مع المخابرات النازية وحيازة مُعدات اتصالات ألمانيّة. ولم يكن الجيش المصري مُستعدًا لخوض الحرب، إلا أن الملك فاروق اعتبر نفسه أقرب إلى دولتيّ المحور برلين وروما مِن لندن، مُحاولًا بحماس الاتصال بالنّظام النّازي. ولأن هتلر كان يعرف ما الّذي تعنيه مصر بالنّسبة لبريطانيا، قبل بامتنان محاولات الملك فاروق للتقرُّب، مدعومًا من حزب مصر الفتاة والإخوان المُسلِمين، ويقال أن هتلر أهدى الملك فاروق سيارة مرسيدس كهدية لعيد ميلاده.

قبل اندلاع الحرب العالميّة الثّانية، كانت قاعدة الدّعم لجماعة الإخوان المُسلِمون ما تزال ضئيلة. ولكن تَغَيرَ هذا عندما تمّ تداول الدعاية النّازيّة في مصر، وتصاعدت المشاعر المعاديّة لليهود في منطقة نهر النّيل.

وأبقت مجلة حسن البنا "المنذر" شرارة معاداة اليهود مُشتعلة. فليس من الصدفة أبدًا أن يستخدم حسن البنا ترجمة حرفية لأول مجلة نازية ألمانية Weckruf وتعني المنذر. وكتب في هذه المجلة أن دول محور برلين وروما وطوكيو كانوا أصلًا شبه إسلاميّين، لأنهم يدعون إلى النظام والكفاح والعمل، ودعا الأزهر إلى إرسال علماء مسلمين إلى هذه البلدان المُلهِمَة، وذلك لتثقيفهم عن الإسلام بشكل مكثّف مقابل اكتشاف المزيد عن أنظمتهم الاجتماعيّة الصّارمة وعقيدتها الأساسيّة.

في مطبوعات أخرى، قام أعضاء جماعة الإخوان المُسلِمون بترويج شائعات مفادها أن هتلر اعتنق الإسلام، وأنه قام بأداء الحج في مكّة بشكل سري مُتخذًا لنفسه اسمًا جديدًا وهو «الحاج محمد هتلر»، وبذلك فعلوا كُلّ ما بوسعهم، وبوضوح، لإثارة التّعاطف مع النازية لدى الشّعب المصري، وكان هذا بالأخص لإضعاف البريطانيّين. فانتشرت الشائعات أنه لو قام هتلر بمهاجمة مصر، فإن المنشآت البريطانيّة هي التي ستتأثر بشدّة، بينما المساجد والمنشآت الإسلاميّة كانت ستنجو بمساعدة الفوهرر الّذي كان يتقي الله!

وإذا كان الإخوان المُسلِمون قاموا بشن هذه الحملة الدّعائيّة لصالح النّازيّين بناءً على أوامر من الملك فاروق بعد اتصاله

بألمانيا، أو أنهم ببساطة فعلوها من تلقاء أنفسهم عن طريق اتصالهم المباشر بالنازيين -هذا أمرٌ ما يزال غير واضح المعالم- لقد انتقد الأديب طه حسين علنًا كُلّ من فاروق والإخوان بسبب موقفهم المؤيّد لألمانيا، لأنها كانت دولة غير ديمقراطية، في حين أن عباس محمود العقاد الذي كان عضوًا في البرلمان، اتهم جماعة الإخوان المُسلِمين بأنهم استلموا مبلغًا سريًا من الاستخبارات النّازيّة لزرع بذور الفاشيّة في مصر. في كتابه عام ٢٠٠٩م «الدّعاية النّازيّة في العالم العربي» أيّد جيفري هيرف الطرح الذي قدّمه العقاد، وقال إن النّازيّين اعتبروا أن جماعة الإخوان المُسلِمين هم أكثر من مُجرّد حلفاء عسكريّين محتملين، في الواقع اعتبروهم وسيلة لنشر أفكارهم الأساسيّة المعادية للسامية في جميع أنحاء العالم.

برنامج الخمسين نقطة

خلال الحرب العالميّة الثّانية انقسمت الأحزاب الدّيمقراطيّة في مصر؛ كان بعضها حريصًا على الانضمام إلى جانب بريطانيا، وبالتّالي ضمان الاستقلال التّام، وبعضهم كان مُصرًّا على أن تحافظ مصر على حيادها، وأن تبقى خارج الحرب.

اقترح حسن البنا عدّة مرّات بأن يُلقَّب الملك فاروق بـ «أمير المؤمنين»، وأن ينصب نفسه خليفة للمسلمين. وعند تتويج الملك عام ١٩٣٦م، قام البنا بكتابة رسالة مفتوحة للملك وقادة العالم العربي الجديد، بعنوان «نحو النّور» وطالب بقائمة من خمسينَ إجراءً يمكن من خلالها التّوصل إلى النّور المعني. في الرّسالة، الّتي هي في حد ذاتها دليل واضح ومقلق على

الشّموليّة والأيديولوجيّة الفاشيّة للإخوان المُسلِمين، ورغبتهم في تغيير هوية المصريين وإعادة تربيتهم تربية شاملة، طالب البنا بهذه الأمور:

- القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصفّ واحد.

- إصلاح القانون حتى يتفق مع التشريع الإسلامي في كل فروعه.

- تقوية الجيش والإكثار من فرق الشباب وإلهاب حماستهم على أسس من الجهاد الإسلامي.

- تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعا، وبخاصة العربية منها تمهيدا للتفكير الجدي العملي في شأن الخلافة الضائعة.

- بث الروح الإسلامية في دواوين الحكومة بحيث يشعر الموظفون جميعا بأنهم مطالبون بتعاليم الإسلام.

- مراقبة سلوك الموظفين الشخصي وعدم الفصل بين الناحية الشخصية والناحية العملية.

- تقديم مواعيد العمل في الدواوين صيفا وشتاء حتى يعين ذلك على الفرائض ويقضي على السهر الكثير.

- القضاء على الرشوة والمحسوبية والاعتماد على الكفاية والمسوغات القانونية فقط.

- أن توزن كل أعمال الحكومة بميزان الأحكام والتعاليم الإسلامية، فتكون نظم الحفلات والدعوات والاجتماعات الرسمية والسجون والمستشفيات بحيث لا تصطدم بقاعدة تعاليم

الإسلام، وتكون الورديات في الأعمال على تقسيم لا يتضارب مع أوقات الصلاة.

- استخدام الأزهريين في الوظائف العسكرية والإدارية وتدريبهم.

- تعويد الشعب على احترام الآداب العامة، ووضع إرشادات معززة بحماية القانون في ذلك الشأن، وتشديد العقوبات على الجرائم الأدبية.

- علاج قضية المرأة علاجا يجمع بين الرقى بها والمحافظة عليها وفق تعاليم لإسلام، حتى لا تترك هذه القضية التي هي أهم قضايا الاجتماع تحت رحمة الأقلام والآراء الشاذة من المُفرِطين والمُفَرَّطين.

- القضاء على البغاء بنوعيه السري والعلني، واعتبار الزنا مهما كانت ظروفه جريمة منكرة يجلد فاعلها.

- القضاء على القمار بكل أنواعه من ألعاب ويناصيب ومسابقات وأندية.

- محاربة الخمر كما تحارب المخدرات، وتحرمها وتخليص الأمة من شرورها.

- مقاومة التبرج والخلاعة وإرشاد السيدات إلى ما يجب أن يكون، والتشديد في ذلك بخاصة على المدرسات والتلميذات والطبيبات والطالبات ومن في حكمهن.

- إعادة النظر في مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج تعليم الصبيان في كثير من مراحل التعليم.

- منع الاختلاط بين الطلبة والطالبات، واعتبار خلوة أي رجل بامرأة لا تحل له جريمة يؤاخذان بها.

- تشجيع الزواج والتناسل بكل الوسائل المؤدية إلى ذلك، ووضع تشريع يحمي الأسرة ويحض عليها ويحل مشكلة الزواج.
- إغلاق الصالات والمراقص الخليعة وتحريم الرقص وما إلى ذلك.
- مراقبة دور التمثيل وأفلام السينما والتشديد في اختيار الروايات والأشرطة.
- تهذيب الأغاني واختيارها ومراقبتها والتشديد في ذلك.
- حسن اختيار ما يذاع أو يعرض على الأمة من برامج ومحاضرات وأغاني وموضوعات واستخدام الإذاعة في تربية وطنية خلقية فاضلة.
- مصادرة الروايات المثيرة والكتب المشككة المفسدة والصحف التي تعمل على إشاعة الفجور وتستغل الشهوات استغلالا فاحشا.
- تنظيم المصايف تنظيما يقضى على الفوضى والإباحية التي تذهب بالغرض الأساسي من الاصطياف.
- تحديد مواعيد افتتاح وإغلاق المقاهي العامة ومراقبة ما يشتغل به رواده وإرشادهم إلى ما ينفعهم وعدم السماح لها بهذا الوقت الطويل كله.
- استخدام هذه المقاهي في تعليم الأميين القراءة والكتابة ويساعد على ذلك هذا الشباب المتوثب من رجال التعليم الإلزامي والطلبة
- مقاومة العادات الضارة اقتصاديا أو خلقيا أو غير ذلك وتحويل تيارات الجماهير عنها إلى غيرها من العادات النافعة،

أو تهذيب نفسها تهذيبا يتفق مع المصلحة وذلك كعادات الأفراح والمآتم والموالد والزار والمواسم والأعياد وما إليها، وتكون الحكومة قدوة صالحة في ذلك.

- تحريم الربا وتنظيم المصارف تنظيما يؤدي إلى هذه الغاية، وتكون الحكومة قدوة في ذلك بإلغاء الفوائد في مشروعاتها الخاصة بها كبنك التسليف والسلف الصناعية وغيرها.

- اعتبار دعوة الحسبة ومؤاخذة من يثبت عليه مخالفة شيء من تعاليم الإسلام أو الاعتداء عليه، كالإفطار في رمضان وترك الصلاة عمدا أو سب الدين وأمثال هذه الشؤون.

- ضم المدارس الإلزامية في القرى والمساجد وشمولها معا بالإصلاح التام من حيث الموظفين والنظافة وتمام الرعاية، حتى يتدرب الصغار على الصلاة ويتدرب الكبار على العلم.

- تقرير التعليم الديني مادة أساسية في كل المدارس على اختلاف أنواعها كل بحسبه وفي الجامعة أيضا.

- تشجيع تحفيظ القرآن في المكاتب العامة الحرة، وجعل حفظه شرطا في نيل الإجازات العلمية التي تتصل بالناحية الدينية واللغوية، مع تقرير حفظ بعضه في كل مدرسة.

- وضع سياسة ثابتة للتعليم، تنهض به وترفع مستواه، وتوحد أنواعه المتحدة الأغراض والمقاصد، وتقرب بين الثقافات المختلفة في الأمة، وتجعل المرحلة الأولى من مراحله خاصة بتربية الروح الوطني الفاضل والخلق القويم.

- العناية باللغة العربية في كل مراحل التعليم وإفرادها في المراحل الأولى عن غيرها من اللغات الأجنبية.

- العناية بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الوطني التربية الوطنية وتاريخ حضارة الإسلام.
- التفكير في الوسائل المناسبة لتوحيد الأزياء بين الأمة تدريجيا.
- القضاء على الروح الأجنبية في البيوت من حيث اللغة والعادات والأزياء والمربيات والممرضات..الخ، وتصحيح ذلك وبخاصة في بيوت الطبقات الراقية.
- توجيه وتشجيع المؤلفين والكاتبين على طرق الموضوعات الإسلامية الشرقية.

يبدو من هذه الطلبات أن مشروع الإخوان لا يحتوي على تصور سياسي واقتصادي حقيقي وإنما برنامج أخلاقي يجب تطبيقه ثم تأتي البركة من عند الله. حتى في بعض الطلبات التي جاء فيها ذكر محاربة الرشوة والمحسوبية والاهتمام بالزراعة والإنتاج والأعمال الحرفية، كان كلامًا عامًا مثل موضوعات التعبير في المرحلة الإعدادية.

هذا البيان ذو الخمسين نقطة ما يزال بمثابة البرنامج السّياسي في الوقت الحالي، وليس لأعضاء جماعة الإخوان المُسلِمين فحسب، ولكن لكل الجماعات الإسلاميّة الأخرى الّتي لا تعد ولا تحصى. وبعد ستة وسبعين عامًا من نشر هذا البيان فازت جماعة الإخوان المُسلِمين في الانتخابات التشريعية المصرية عام ٢٠١٢م، وتمّت مُناقشة مطالبهم بالتّفصيل داخل البرلمان. وعند النظر بعين عقلانية لمثل هكذا قضايا وتوجهات تناقش

داخل برلمان ناتج عن حالة ثورية خرجت من اجل الحرية، فيصبح لُغزًا بالنّسبة لي فهم كيف يمكن لشخص أن يرى في إزاحة محمد مُرسي من منصبه خروجًا عن الدّيمقراطيّة.

إرهاب على طريقة الوحدة الوقائيّة النازية SS

عندما يكون هناك جماعة تمجِّد العسكريّة، فإنها ترى أن الدّيمقراطيّة خطيرة، ولذلك فإنها تقوم بتقسيم العالم إلى مؤمنين وكُفَّار وتعتبر أن الجهاد هو أسمى أهدافها، وعادة ما تكون مسألة وقت قبل أن تبدأ بالتّسلُّح للقضاء على معارضيها. وفي مصر كانت الأحزاب اليساريّة هي العدو الأكبر للإخوان المُسلِمين، ولأن ميول النّاخبين في مصر كانت يساريّة فضَمَّن حسن البنا مفهوم العدالة الاجتماعيّة داخل خطابه باعتباره مفهومًا إسلاميًا في الأساس.

وجعل البنا حربه على خصومه ليس في صندوق الاقتراع، بل في الشّارع. في البِداية، كانت مهمّة الميليشيات الإخوانية تركز على الاعتداءات الوحشيّة على مظاهرات اليساريّين والإضرابات العمالية، وهو نفس الشيء الذي فعلته ميليشات هتلر في بداية ظهورها. ذهب البنا إلى حد تزويد جماعته بمخابرات سريّة خاصّة بها، فيما عُرف بـ **الجهاز السّري**. لا أحد يعلم كيف حصلت هذه المجموعة على الأسلحة والمعدات التقنية الدقيقة والمستوردة بتلك السّرعة، فهذا الأمر مازال لغزًا حتى اليوم. ودون أدنى شك، كانت المساعدات الماليّة السّعوديّة العاديّة مفيدة، ولكن العديد من الخبراء يروْن أن تدريب جيشٍ بشكلٍ موازٍ، بالإضافة إلى إنشاء هياكل إداريّة وخدمة سريّةً

مُستدامة وأجهزة تواصل وأسلحة حديثة وغالية، دليلٌ على وجود تعاون مع أجهزة مخابراتيّة.
علي عشماوي، أحد أوائل قادة **الجهاز السّري**، وقد انقلب على الحركة فيما بعد، يكشف في كتابه **التّاريخ السّري لجماعة الإخوان المُسلِمين** أنه قبل إنشاء الجهاز، قام حسن البنا بدراسة هياكل النّازيّة للخدمات الأمنيّة والجستابو، وقام أيضًا بدراسة أساليب الجماعات الصّهيونيّة الإرهابية مثل **الهاجانا**. وكانت مفاهيم السرية التامة والسمع والطاعة والتضحية بالنفس هي الأسس التي بنى على أساسها حسن البنا **الجهاز السري**، ويروي عشماوي أن البنا كان متأثرًا بأول جماعة إرهابية في تاريخ الإسلام بين ١٠٨٠م و١٢٧٠م، والمعروفة بـ **الحشّاشون** أو assassins بفضل رواية **ماركو بولو** للطائفة الّتي قام أعضاؤها بالقتل عندما كانوا تحت تّأثير الحشيش.
يُقال إن حسن الصّباح (١٠٣٤م-١١٢٤م)، المؤسّس الفارسي للجماعة، جعل أتباعه يقتحمون قلعة جبل الموت، حين أغراهم بعروضٍ من الأفيون والحشيش وتوفير الطعام الجيد والنّساء الجميلاتً لكي يضع في تفكيرهم الجنّة مُسبقًا وقُبيل قيامهم بمهمتهم الخطيرة. ويقال إن هؤلاء الأتباع يطيعوه تمامًا حتى إنّهم كانوا يقدمون حياتهم بأيديهم طوعًا حين كان يأمرهم بذلك، وكان الرجل حازما لأقصى الحدود.. وأقساها، حيث يحكى عنه قيامه بإعدام أبنيْه الاثنيْن بتهمة «سُوء السّلوك».
حتى لو أن بعض قصص **الحشّاشين** بدأت كتخيّلات للرحالة ماركو بولو، إلا أنها تُعيد إلى الأذهان تلك الوعود المخيفة الّتي يُدلى بها الكثير من الدّعاة الجهاديّين اليوم، مُحرضين مُريديهم

على الانتحار باستخدام نفس وعود الجنة. حيث قام آية الله الخوميني ذات مرّة بتوزيع مفاتيح بلاستيكيّة على جنوده القُصَّر مُدعيًا أنها مفاتيح الجنة، قبل أن ينشر الجنود في حربه ضد صدام حسين!
بالتّأكيد حَلُمَ حسن البنا بأن يكون هناك قِسمًا به أعضاء يتبعونه دون تمحيص ودون تردُّد من أجل قضيته مثل **الحشّاشين** من العُصور الوسطى أو وحدة هتلر الوقائيّة SS، فإن الولاء التّام والسمع والطاعة يظل اليوم هو المبدأ الأساسي بالنّسبة لجماعة الإخوان المُسلِمين.

تمَّ إخضاع كل المرشحين للأنضمام للجهاز السّري لفحصٍ دقيقٍ للغاية -بحسب أوامر البنا- قبل قُبولهم، فإنه يُسمحُ بالانضمام إلى الإخوان فقط إذا كان العضو «لا تشوبه شائبة» وأن يكون من مُحيط استثنائي لأسر مُختارة، وأن يكون خضع لأشكال عديدة من التّدريب.

يقول ثروت الخرباوى مُؤلِّف كتاب «سر المعبد. الأسرار الخفيّة لجماعة الإخوان المُسلِمين»، والمنشق عن جماعة الإخوان المُسلِمين، بأن الجناح السّري للجماعة يجمع بين عناصر الشّموليّة والمافيا، لافتًا الانتباه بالإضافة إلى ذلك إلى تشابه تنظيم الإخوان بالحركة الماسونيّة لتسلسلها الهرمي الدّاخلي والتّنكيل الاستهلالي: أي التعنيف والتّعذيب الّذي يتلقاه الأعضاء الجدد كطقوس للترهيب كي لا يتراجعوا عن قرارهم بدخول الجماعة. يصف الخرباوي في كتابه بأنه يُطلب من

الأعضاء الجدد الحضور إلى مكانٍ سري، حيث يُقسمونَ على الولاء أمام أفراد من الجهاز القيادي وهم يضعون أكفهم على المصحف والمسدس، قسم يلزم الأعضاء الجُدُد أنفسهم بناء عليه بالبقاء إلى الأبد موالين للحركة ورموزها بشكل كامل ودون نقاش.. فيما يعرف بمبدء **السمع والطاعة**، ثم يقومون بسرعة بتفكيك وإعادة تجميع المسدس.

في عام ١٩٤٤ خاض حسن البنا الانتخابات البرلمانية وخسر المقعد، فوقف مهددًا بأن يزحف نحو مجلس الأمة في البلاد ومعه مئتا ألف من أنصاره، تمامًا مِثلما فعل موسوليني ورجاله ذوو القمصان السّوداء في عام ١٩٢٢م حين حاصروا البرلمان في روما واستولوا على السلطة، ومثل مُحاولة هتلر الفاشلة بالقيام بالانقلاب في بلده في عام 1923. بعد فشل البنا في الانتخابات بوقت قصير، قُتل رئيس الوزراء اليساري أحمد ماهر على يد شاب قومي يُدعى مصطفى العيسوى. لكن بعد بضع سنوات اتضح أن العيسوي كان عضوًا في **الجهاز السّري** لجماعة الإخوان المُسلِمين. وجاء اغتيال ماهر بعد اقتراح قدّمه في البرلمان لدخول الحرب مع اليابان. وأبلغت بريطانيا الحكومة المصريّة أنه بعد الحرب سوف يتم تشكيل كومنولث للدول، وتكون العضويّة محفوظة لتلك الدّول الّتي أعلنت الحرب على دولة واحدة على الأقل من دول المحور قبل ١ مارس ١٩٤٥م.

كانت بريطانيا تأمل بأن تُعلن مصر الحرب ضد ألمانيا، ولكن الملك فاروق عارض الفكرة بإصرار، واختار اليابان بدلًا منها. يرى حلمي النمنم، الخبير في الحركات الإسلاميّة ومؤلّف كتاب

«**حسن البنا الّذي لا يعرفه أحد**»، أن اغتيال رئيس الوزراء قد يكون مُدبَّرًا من قِبل ألمانيا، بحُجّة أن العلاقات النّازيّة مع الإخوان المُسلِمين كانت أقرب ممّا كان مُفترضًا على نطاق واسع وذلك بِفضل أمين الحسيني. وعلى أيّة حال كان البنا على الصّعيد الأيديولوجي يأمل أن يكون النّصر لألمانيا، من أجل تحرير مصر من الحُكم البريطاني ومن أحزابها الليبراليّة واليساريّة، الّتي تقف في طريق طموحاته الثّيوقراطيّة.

خسرت ألمانيا وحلفاؤها الحرب، ولكن نَجحت أهداف البنا وإرهاب حركته. كان الملك فاروق ينأى بنفسه عنهم منذ فترة. وفي عام ١٩٤٧م شنّت جماعة الإخوان المُسلِمين هجمات إرهابية على العديد من هياكل الدّولة ودور السّينما، ما أدى إلى مقتل اثنيْن من المواطنين البريطانيّين بالإضافة إلى أحمد باشا الخازندار وهو القاضي الذي حكم على العديد من أعضاء الجماعة بالسجن فيما مضى.
مع تأسيس دولة إسرائيل جاءت الفرصة لتوسيع نطاق منظَّمة الإخوان. مصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان كلهم أعلنوا الحرب فورًا على إسرائيل الحديثة الولادة، وانضم مقاتلون بأعدادٍ غفيرة من جماعة الإخوان المُسلِمين إلى الجيش المصري في فلسطين، أملًا في العودة إلى الوطن أبطالًا منتصرين، بَيْدَ أن الجيوش العربيّة الكبيرة واجهت هزيمة ساحقة وعادت إلى ديارها تجر أذيال الخيبة والهزيمة.
في أعقاب هذا الفشل، كثّفت جماعة الإخوان الهجمات الإرهابيّة في الدّاخل، مُستهدفة في المقام الأول هياكل الدّولة

واليَهُود في مصر. عندما أصدر رئيس الوزراء الجديد محمود فهمي النّقراشى عام ١٩٤٨م مرسومًا يَحظر جماعة الإخوان ويَحلّها بالقُوّة، لكنه هو أيضًا قُتل برصاص أحد أعضائها، وكان رد فعل السّلطات قاسيًا، فاعتقلت القاتل ومعه العديد من الأعضاء الآخرين. وأُطلق النّار على حسن البنا نفسه في الشارع في ١٢ فبراير عام ١٩٤٩م، وتشير أصابع الاتهام إلى العائلة المالكة المصريّة الّتي كانت تراقب حركته وأنشطته بانزعاج مُتصاعد، وعلى الرغم من ذلك تم إعادة تأهيل جماعة الإخوان المُسلِمين بعد مرور سنة واحدة، حيث كان الملك يحتاج الجماعة كظهير سياسي بسبب وجود أضطرابات داخل الجيش بعد الهزيمة في فلسطين وصلت لمستوى جود حركة للتمرد على الملك لكن تم السيطرة عليها.

ديمقراطيّة مِثلَ حصان طروادة

تمامًا مثل مثَلَهُ الأعلى هتلر، كان البنا يُعارض نظام الأحزاب مُعتبرًا أن الدّيمقراطيّة ما هي إلا أرض المعركة الّتي يشتبك عليها الأحزاب على حساب المصالح الوطنيّة. إن فشل محاولة انقلاب هتلر عام ١٩٢٣م أجبره على السّعي وراء السُّلطة من خلال صناديق الاقتراع، وعلى الرّغم من خوض انتخابات ديمقراطيّة، إلا أن هتلر لم يُخفِ أبدًا نواياه. فبالنّسبة له كانت الدّيمقراطيّة وسيلة للاستيلاء على مقاليد السُّلطة، وللآسف ساعده على الوصول للحكم ثقة الأحزاب الرّئيسيّة الخاطأة بقُدرتهم على السّيطرة عليه وإلزامه باستمرار العملية الديمقراطية، حيث ادَّعى **فرانز فون بابن** رئيس الرايخ

الألماني، الذي كلف هتلر بتشكيل الحكومة، أنه قريبًا سيتم دفع بهتلر إلى زاوية ضيقة ليولول ويصرخ واصفًا أياه بقليل الشّأن. وكان تعيّين هتلر كمستشار بهدف تلقين الأحزاب القديمة الاشتراكية والمحافظة التي فشلت في التعاون درسًا. لكن على أي حال، فقد وصل هتلر إلى السُّلطة في ظل نظام ديمقراطي، مُستخدمًا قواعدها بشكل جيّد بهدف استبدل هذه القواعد نفسها واحدة تلو الأخرى بقواعد دكتاتوريّة.

وهنا كانت جماعة الإخوان تتبتى ذات الفَهْم للديمقراطية. فبعد وفاة البنا، اعترفت جماعة الإخوان بالحاجة المُلحّة للواقعيّة فعملت على بناء تحالفات سياسية كخطوة حتمية في طريقها إلى السُّلطة. في البِداية حاولت التّقرب من حركة الضّباط الأحرار بقيادة محمد نجيب ثم جمال عبد النّاصر، وكان المعروف عنهم أنهم جماعة من الضباط شعرت بالمرارة بسبب الهزيمة في فلسطين. وفرض التواجد الإسرائيلي، بالإضافة لبقاء الاحتلال البريطاني، ويرون الملك بين غير قادر أو غير راغب للتحرُّك ضد أي منهما.
تخلى الإخوان المُسلِمين عن دعمهم لفاروق وعارضوه علنيّة، وقاموا بدعم الانقلاب العسكري في يوليو ١٩٥٢م، مّا اضطر الملك للتنازل عن العرش والفرار إلى إيطاليا. وهنا أثبت الإخوان جدارتهم في التلون والنفاق ليكونوا بعد يوليو ليس كما قبلها، فكما كان البنا لا ينتقد حاشية الملك الفاسدة وكان معاديًا للإشتراكية التي تهاجم الْإقطاع والملك.. صار يقول أحيانًأ إن الإسلام دين اشتراكي، كما أن ميليشيات الإخوان كانت تفسد

العمل النقابى بشكل ممنهج. ففى عام ١٩٤٦ كانت النقابات العمالية ومؤتمر عمال مصر يجهزون لإضراب عام، ولكن الإخوان شكلوا جبهة للطلاب والعمال خاصة بهم لشق الصف وقاموا بالإعتداء على عمال النسيج في شبرا الخيمة وفى كرموز لفض الإعتصام. وبعد أن حكمت محكمة عسكرية على عاملين من كفر الدوار بالإعدام بعد إضراب عمالى ضخم شارك فيه عشرة آلاف عامل بعد شهر واحد من ثورة يوليو ١٩٥٢، كتب سيد قطب يدعو إلى استخدام أقصى درجات العنف في مواجهته الإضراب قائلا "فلنضرب ونضرب بقوة، ولنضرب بسرعة، أما الشعب فعليه أن يحفر القبر ويهيل التراب".
وفى فبراير عام ١٩٧٧ وبعد انتفاضة يناير الشعبية وصف عمر التلمسانى في افتتاحية مجلة الدعوة الاتتفاضة بأنها "مرض أصاب طوائف الشعب" وطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية وحدود الله على من أسماهم بـ "مثيري الشغب".

بعد ثورة يوليو بدأ صراعٌ على السُّلطة في مصر، وانهار تحالف الإخوان مع حركة عبد النّاصر لأنه كان يُخطِّط لتطبيق الاشتراكيّة في مصر، في حين كان أعضاء الجماعة يطالبون بحكومة دينيّة تطبق الشريعة، بينما ناضل الليبراليّون واليساريّون من أجل استعادة الدّيمقراطيّة. كان ناصر مُستعدًا لتقديم تنازلات لِسَن إصلاحاتٍ ديمقراطيّة، ولكن جماعة الإخوان لوحت بورقة العنف، ما أخضع البلاد للإرهاب مرّة أخرى. وحين وصل الأمر لمحاولة اغتيال عبد النّاصر في

المنشية، أكتوبر ١٩٥٤م، أُلقيَ القبض على رؤساء الحركة وتمّ تنفيذ حُكم الإعدام في بعضهم، وللمرة الثّانية في تاريخها يتمَّ حظر جماعة الإخوان، ولكن هذه المرة تم إرسال الآلاف من أعضائها إلى المعتقلات.

في السجن أصبحت جماعة الإخوان أكثر تشدُّدًا، وتشكّلت مجموعات منشقة وحركات إرهابيّة في الخارج من شأنها أن تُظهر المعنى الحقيقي للإرهاب ليس فقط في مصر بل في العالم بأسره. من بين كُلّ الجماعات المنشقة عن جماعة الإخوان المُسلِمين في ذاك الوقت، أثبتت ثلاثة جماعات أنها الأخطر: (الجهاد الإسلامي، الجماعة الإسلاميّة، التّكفير والهجرة.

اجتاحت مصر موجةٌ جديدة من الهجمات الإرهابيّة في منتصف ستينيّات القرن الماضي، وهاجم الإخوان المصانع والأهداف العسكريّة ودمّروها، وخططت مجموعة منهم لانقلاب ضد عبد الناصر. ونتيجة لذلك، تمَّ اعدام سيد قطب؛ العقل المدبِّر الجديد للحركة. ومع ذلك فإن الفكر الجهادي الجديد الّذي كان ينشُره قطب ما يزال يؤثِّر على الإسلاميّين في جميع أنحاء العالم الإسلامي. (سيرد المزيد عن هذا الأمر لاحقًا). وفي حرب الأيام السّتة عام ١٩٦٧م، سمحت الهزيمة العسكريّة (الثانية لمصر) للإسلاميّين بالتّقدم أيدلوجيًا. معتبرين أن الاشتراكيّة العلمانيّة لعبد النّاصر فاشلة، ولذلك كان الإسلاميّون يتوقون إلى إحياء حلم الدّولة الثّيوقراطيّة، وبذلك وُلدَ شِعار جماعة الإخوان المُسلِمون الجديد «الإسلام هو

الحل» الذي استخدمه الإخوان فيما بعد في عصر حسني مبارك كشعار انتخابي.

وجدت هذه العبارة قبولًا كبيرًا بين الشّعب المصري بالرّغم من أنه لم يكن للإخوان في دولة عبد النّاصر البوليسيّة أي مدخل للسياسة الرّسميّة. وبالتّالي فإن العديد من المعلّمين والأساتذة والأطباء والمهندسين من صفوف جماعة الإخوان المُسلِمون هاجروا إلى المملكة العربيّة السّعوديّة وتم إعارة أعداد كبيرة أيضًا للجزائر. وما بدا في البِداية وكأنه تراجع تحوّل -فيما بعد- إلى فائدة كبيرة حيث قام المنفيّون بنشر أفكار سيد قطب الجهاديّة على نطاق أوسع، وقاموا في عقود لاحقة بإعداد الأرضيّة لزواج ثانٍ بين الوهابيّة السّعوديّة وأفكار الإخوان المُسلِمين في مصر.

بعد الموت المفاجئ لجمال عبد النّاصر عام ١٩٧٠م، تولى نائبه أنور السّادات مقاليد السُّلطة المصريّة. حاول السادات إحداث تغيير للمسار لينأى بنفسه عن روسيا السّوفيتيّة بينما كان يقوم باستئناف العلاقات مع الغرب. تمرَّد النّاصريّون والماركسيّون على حد سواء، وهي حركات طلابيّة ديمقراطيّة تشكّلت لاتهام السّادات بأنه ظلَّ مناهضًا للديمقراطيّة وأنه مازال يحتفظ بالنّمط السّلطوي للحكم الّذي خلَّفهُ ناصر. بعد أن تعرّض السّادات لوابلٍ من الهجوم من جميع الأطراف، سعى لإجراء تعزيزات وتغييرات لم يجد لها من يدعمها سوى جماعة الإخوان المُسلِمين وحلفائهم الإسلاميّين.

أصبح الإخوان المُسلِمون للمرة الثّانية صانعي ملوك، وأصبحوا بمثابة أداة رئيسيّة تساعد السّادات على الاحتفاظ

بالسُّلطة من ناحية، ومساعدة الغرب من ناحية أخرى في تصعيد الإسلاميين إقليميًا لمواجهة المعسكر السوفيتي. ولكن مِن جديد كان مؤيّدوهم يقومون بِعَضْ اليد الّتي أطعمتهم. إن الجماعة الإرهابيّة المسماة **الجهاد الإسلامي،** هي في الأصل مجموعة مُنشقّة عن جماعة الإخوان المُسلِمين، وهم من قتلوا - في نِهاية المطاف- الرّئيس السّادات لتوقيعه معاهدة السلام مع إسرائيل. في المقابل قاموا بِدفع خليفة السّادات **حسني مبارك** ليترأس الدّولة البوليسيّة في البلاد.

أعتاد مُبارك تبرير عمليات القمع القاسيّة وتأجيل الإصلاح الدّيمقراطي زاعمًا أن هذا ضروريًا للحد من تهديد الإسلاميّين.

ومن قبله خرج بعض مُقاتلي مصر الإخوان والجماعات الإسلاميّة الأخرى من البلاد، بمباركة الحكومة والغرب، إلى أفغانستان لمحاربة السّوفييت، -ومن هنا كان إتمام الزّواج الثّاني لجماعة الإخوان المُسلِمين مع الوهابيّين- وعاد نفس الإسلاميّين إلى مصر والجزائر والمملكة العربيّة السّعوديّة بعد الحرب لإطلاق العنان لموجات جديدة من الإرهاب هناك، مُستهدفين الشّرطة والسّياح والبِني التّحتيّة. وظلّ الجناح السّياسي لجماعة الإخوان المُسلِمين نشِطًا في مصر طوال كُلّ هذه الأحداث، يتشدق ظاهريًا بعدم اللجوء إلى العُنف بينما يعمل وراء الكواليس لبناء شبكة سريّة جديدة في جميع أنحاء العالم تمشيًا مع المبادئ الأولى للجماعة التي صيغت عام 1928، أولًا من أجل أسلمة المنطقة العربيّة ثم غزو العالم لتحقيق الهدف الأسمى للجماعة **أستاذية العالم**.

ظاهريًا، كان يبدو أن جماعة الإخوان المُسلِمين تقلّصت إلى حجمٍ ضئيل خلال حُكم مُبارك الّذي استمر ثلاثين عامًا، بَيْدَ أن أحدًا لم يستفد من ركود تلك الفترة بقدر ما استفاد الإسلاميّون. ففي الجوانب الّتي أهملتها الدّولة مثل التّعليم والصّحة، ظهر الإسلاميّون، وأنشأوا بديلًا لهياكل الدولة؛ فأسسوا المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيريّة. في واقع الأمر، لم يكن لدى الإخوان النّيّة لتحسين التّعليم أو الرّعاية الصّحيّة للسكان أو مكافحة الفقر، إنما هو السعي أن يأخذ الناخبين الانطباع بأن جماعة الإخوان تُقدم بديلًا حقيقيًا.

بعد اندلاع الرّبيع العربي في ديسمبر ٢٠١٠، بدا وكأن الإخوان المُسلِمين أصبحوا قاب قوسيْن أو أدنى من تحقيق أهدافهم الكبيرة، فحازوا الأغلبيّة في الانتخابات المصريّة والتّونسيّة بين عامي ٢٠١١م و٢٠١٢م، وانتقلوا إلى تنفيذ أجندتهم الإسلاميّة، المعروفة باسم **التمكين**، بسرعة البرق. لا سيّما في مصر، وحملت هذه الأجندة عناصر فاشيّة، مع برنامج البنا القديم ذي الخمسين نقطة الّذي نوقشَ في البرلمان على النّحو المذكور أعلاه. وبمرسوم من الرّئيس مُرسي تمّت أسلمة النّظام القضائي في البلاد، وتغيّرت قوانين الانتخابات وخُرِبَّت المؤسّسات الوطنيّة، بنفس المقاييس الّتي سنَّها هتلر فورًا بعد توليه السُّلطة في ألمانيا وقام بسن قانون سماه قانون التمكين، وهو نفس الإسم الذي أطلقه هتلر على قانونه الذي سمح لحكومته أن تصدر قوانين وتعقد اتفاقات خارجية حتى لو مخالفة للدستور ودون الرجوع للبرلمان.

ومع ذلك، وعلى عكس الثّلاثينيّات في ألمانيا، اتضح أن المجتمع المُسَيَّس في مصر كان قُوّة حاسمة، فلم يقف المصريون موقف المتفرج وأزاح مبارك بمظاهرات لم تشهد مصر مثيلها من قبل، ولم يقف على الحياد مرة أخرى حينما اشتعلت الصراعات مجددًا بين العسكريّين والإخوان، ولم يكونوا متباطئين في انتظار أن يروْا أي جانب من الاثنيْن سيتمكّن من حسم الأمور لصالحه. وقد خرج الملايين للشوارع للإطاحة بمرسي، فقام الجيش بِخلع الرّئيس مرسي.
فهل أدار الشعب ظهره للديمقراطيّة عندما أطاح بمرسي؟ وهل انتصر هذا الشعب حينها للديمقراطية حين اختار مرسي رئيسًا؟ الموضوع كان مجرد تصحيح خطأ، ربما بخطأ آخر، تمامًا مثلما صحح الشعب خطأ مبارك بانتخاب مرسي. هذه هي ضريبة ألا يكون لديك خيار ثالث غير العسكريين أو الإسلاميين.
وقعت القُرعة الخاسرة على الدّيمقراطيين والليبراليين في أول انتخابات مصرية حرة، وأُجْبِروا على الاعتراف بالهزيمة المريرة. في حين أن الإسلاميّين حقّقوا نجاحًا كبيرًا، وخاصةً في أكثر مُدُن مصر فقرًا، وليس فقط في الانتخابات البرلمانيّة ولكن في الانتخابات الرّئاسيّة في البلاد أيضًا. فحظى مرسي بدعمٍ من فصائل المعسكر الليبرالي، واعدًا بأن يَكون رئيسًا لكُلّ المصريّين. وبعد أشهر فقط من انتخابه، استطاع مرسي أن يثبت بأنه هو أيضًا «مُبارك» ولكن بلحيّة، وبعد أن كان المصريون يخافون أن يورث مبارك حكم مصر لابنه، صاروا يخافون أن يشارك مرسي الإخوان في كل قراراته، وهو ما

حدث فعلًا، حيث قام بركل الدّيمقراطيّة في وقت ضعفها وأصدر المراسيم لضمان السُّلطة المطلقة لنفسه. فتمّ تجريم وشيطنة جميع قوى المُعارضة المُنظّمة، وتسارع العمل على تخريب مؤسّسات الدّولة، والسعي المعلن لإسكات وسائل الإعلام النّاقدة. وبعد عامٍ واحدٍ فقط له كرئيس، خرج الملايين من المواطنين المُحبَطين إلى الشّوارع مرّة أخرى، ما اضطر الجيش للتدخُّل عن طريق إزاحة مرسي من منصبه.

كانت هناك مُناقشات حادَّة حول ما إذا كان ما حدث انقلابًا، حيث يقول البعض بأن مُرسي كان في نهاية الأمر رئيسًا منتخبًا. رأيي هو أنه، بعيدًا عن أن الجيش كان هو القوة الفاعلة، لكن كان إبعاده ضروريًا لتجنب السيناريو الإيراني بعد ثورة الخميني. المشكلة الحقيقية هي أن سقوط مرسي كان ضربة قوية للقوى المدنية، التي وجدت نفسها في مواجهة رئيس جديد يحاول إصلاح الاقتصاد ولا يسعى لأي إصلاح ديمقراطي، بل ضيق الخناق تمامًا على المعارضة والإعلام والفن، وفشل في إحداث تغيير يذكر في إصلاح الخطاب الديني، بالعكس ففي عهده تم حبس عدد أكبر من الناشطين وحُكم على عدد أكبر بالسجن بتهمة ازدراء الأديان. وأحد أهم أسباب عجز السيسي في الإصلاح الحقيقي كانت المواجهة التي بدأها الإخوان بعد سقوطهم في مصر وموجة الإرهاب التي هددت أمن البلاد واقتصاده. وفي حين يتهمه الإخوان بالكفر كان عليه أن يتعاون مع السلفيين والأزهر ليثبت أنه حاكم مسلم يحافظ على هوية مصر الإسلامية. وهكذا يحكم الإخوان مصر حتى وهم بعيدون عن كرسي السلطة.

بعد أن حُلَّ البرلمان المصري، لم تكن هناك هئية سياسية تستطيع عزل مرسي أو سحب الثقة منه. ولم يتبقَ سوى الاحتجاجات الحاشدة، وما تبع ذلك كان عنيفًا بما فيه الكفاية لأن الجيش لم يعد بإمكانه أن يقف موقف المتفرّج. وحتمًا كان تدخله -منذ البِداية- يحمل شبهة الدفاع عن المصلحة الشّخصيّة بشكل أو بآخر، فقد كان للجيش مشاكله مع مُرسي ومع مؤيِّديه، اعتراضًا على سياسته بشأن سوريا، حيثُ إنّ جماعة الإخوان المُسلِمين وتحالفها مع حماس كان مُقلقًا لجنرالات مصر. فجماعة الإخوان وعبر رئيس الجمهورية دعت المصريّين إلى الجهاد في سوريا. وفي صيف عام ٢٠١٢م، قُتِلَ ستة عشر جُنديًا مصريًا على يد مقاتلي حماس في سيناء، وكانت دعوة الإخوان المُسلِمين للجهاد تزيد من الاضطرابات في صفوف الجيش، في حين أن حكومة مرسي سمحت لجماعة أنصار بيت المُقدّس الإرهابيّة بالعمل داخل سيناء. وأعلنت هذه الجماعة أنها جزء من الدّولة الإسلاميّة.. وبايعوا أبو بكر البغدادي. وأخيرًا وقبل كل شيء، داءت قلة خبرة مُرسي اقتصاديًا لتدمّر البلاد ماليًا.

ما زال مستقبل مصر معلقًا في الهواء، وهناك العديد من السّيناريوهات الّتي يمكن التكهن بها، ولكن عودة الإخوان المُسلِمين إلى السُّلطة، على الأقل في المستقبل القريب، هي أقل الاحتمالات. إن قِطاعاتٍ واسعة من الشّعب المصري، وكذلك من الجيش والشّرطة والنّظام القضائي، يُعارضون الآن الإخوان المُسلِمين، والكثير من المصريّين يعتبرون أن داعش

وأنصار بيت المُقدّس هما النّسل الطبيعي لفكر الإخوان المُسلِمين. وقد فقدت الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة بعد انتخاب دونالد ترامب إيمانها بأن الإخوان هم البديل الأفضل للحكم في مصر. عندما حُكم بالإعدام على المئات من أعضاء الجماعة، كانت الاحتجاجات العامّة قليلة في مصر وخارجها، ورغم أن شعب مصر لا يتوهّم/ يتوقّع تحقيق الحُكم الحُرّ أو الدّيمقراطي بعد انتخاب السيسي، ولكنه يريد التصدي للإرهاب، لأنه يعطل مصالح الناس ويضر بالسياحة وقطاعات أخرى تؤثر على دخل الناس مباشرة، ولا يرى للسيسي بديلًا في هذا الشأن.

كانت هُناكَ عبارة واحدة تنتشر في كُلّ مكان بعد الانتصار البرلماني الذي حقّقته جماعة الإخوان المُسلِمين على منافسيهم الليبراليّين؛ «غزوة الصّناديق». إن كلمة «غزوة» تُلمّح إلى الفتوحات الّتي شنَّها النّبي محمد في القرن السّابع ضد أهل مكّة الكفار وضد القبائل اليَهُوديّة والعربيّة، حينما هُوجمت القوافل التّجاريّة المكيّة وسُرقت بضائعهم. وبما أن اليَهُود وأهل مكّة على حد سواء كانوا كُفارًا في نظر محمد لذلك كان طرد اليَهُود وقتلهم واستعبادهم نهجًا شرعيًا. وكذلك فإن الإسلاميّين أتباع مُرسي قاموا بإلحاق نفس المصير بخصومهم، حيث وصفوهم بالكُفّار واستبعدوهم من المفاوضات الرّئيسيّة على الدّستور المصري الجديد. في الواقع، كان تنظيم القاعدة قد أشارَ إلى هجماته على مركز التّجارة العالمي مُستخدمًا عبارة «غزوة مانهاتن». وعندما تحالفَ المتظاهرون المُناهضون لمُرسي مع الجيش، مُوضحين أنه ليس لديهم النّيّة لإعادة الرّئيس المعزول

إلى منصبه، جعل ذلك الرفض الإخوان المُسلِمين يلجأون إلى العنف مرّة أخرى مُنادين بالقضاء على خصومهم. هذا الأمر يُشكل جزءًا من نمطٍ مألوفٍ لدى الإخوان، ويُوضّح بشكل قطعيّ ماهيّة الجماعة الشّموليّة. في يناير ٢٠١٥م، وبعد أن فقدت كُلّ أمل في كسب القلوب والعقول المصريّة مرّة أخرى، أعطت جماعة الإخوان تعليماتٍ لأعضائها لإعداد عملية جهاد مؤلم لفترة طويلة. وفي اليوم التّالي، تمَّ اكتشاف القنابل في جميع أنحاء مصر، وأُشْعِلَت النّيران في البنوك والشّركات والكنائس. وهكذا، وعلى ما يبدو عادت الجماعة للقيام بأكثر ما تستطيع فعله على أفضل وجه: الإرهاب.
لكن ما أصاب جماعة الإخوان المُسلِمين ليس بأي حال من الأحوال هزيمة نهائيّة، فماضيها يكشف عن مواهب وقدرت على التّكيف والتحول. فلا ينبغي التّقليل من حجم دعمها المتبقي، ولا من العقليّة الطليقة العنان طوال تاريخها والّتي تعد جزء من ذاكرة مصر. إن أيديولوجيّة جماعة الإخوان المُسلِمين تقوم على عاتق التّقاليد القديمة.

في هذه المرحلة يمر الإسلام السياسي بصفة عامة بأزمة في أغلب البلاد العربية لكن الغرب يمرر له قارب النجاة ويحتضنه ويعيد تأهيله. وسريعًا ما بدأ يدفع ثمن هذا الغباء، ونحن أيضًا سنواصل دفع الثمن. ليس فقط ثمن مغامرات الإخوان والسلفيين والدواعش، ولكن ثمن تاريخ طويل من حمامات الدم، لابد وأن نعترف أن تراثنا ونصوصنا المقدسة هي السبب الأول وراءها.

الفصل الثّالث

الجذور التّاريخيّة للفاشيّة الإِسلاميّة..

من «سيّدنا» إبراهيم إلى سيد قطب

يحتفل المُسلِمون سنويًا في جميع أنحاء العالم بعيد الأضحى؛ وهو عيد لإحياء ذكرى قصّة إبراهيم وابنه على النّحو المفصَّل في كُلّ من الكتاب المُقدّس والقرآن. من المفترض أن إبراهيم هو جد لجميع اليَهُود والمسيحيّين والمُسلِمين، ويقال إنه رأى نفسَه في المنام وهو يُقدّم ابنه كأضحية إلى الله. في النّسخة القرآنيّة للقصّة، يستيقظ إبراهيم في صباح اليوم التّالي، ويأخذ سكينًا على الفور مُندفعًا نحو ابنه، ويُخبره عن الحلم، «يَا بُنَيَّ» قال له «إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى» فأجابه ابنه بلا تردد «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّابِرِينَ».

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» يستطرد القرآن (الله) «وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ! قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ». في النّهاية، يمنع الله إبراهيم من التّضحية بابنه، مشيدًا ببرّه ونيّته لتنفيذ الفعل، مقدّمًا للأضحية حيوانًا مكان الصّبي.

هُناكَ عدّة جوانب في هذه القصّة من شأنها أن تُثير الاستغراب اليوم. لقد أطاع إبراهيم أوامر القائد الفوهرر بكامل إرادته. بعبارةٍ أخرى، لقد أطاع إبراهيم أوامر الله دون محاولة معرفة ما إذا كانت تلك الأوامر عقلانيّة وأخلاقيّة أم لا، ودون مراعاة حقوق الطفل ومشاعر الأبوة ودون استشارة الأم التي حملت الطفل وأرضعته. إن الطاعة العمياء والتّضحية بالنّفس هما سمتان جوهريّتان تتسم بهما الفاشيّة في في صورتها النازية أو

الإسلامية، فجاءت أعمال إبراهيم وحرصه على هاتيْن الصّفتيْن كاستعراض لمبادئ الإسلام الجوهريّة. وحتى على مستوى المسمى فمصطلح «إسلام» في حد ذاته مُشتقٌ من الفعل العربي «أسلم»، ما يعني أن يُخْضِع أو يُسلِّم شخصٌ نفسَه.

وعلى الرّغم من أن ابن إبراهيم كان طفلًا ليس لديه أيُّ معرفة بالله أو بحجم التّضحية المطلوبة، إلا أن إبراهيم تشاور معه في مسألة مَوْتِه المُحتمَل. وهكذا أيضًا يستخدم الفاشيّون هذا التّكتيك، فيوهمون الجمهور أن لهم حق الاختيار، أما في الحقيقة فالقرارات الّتي تخُص هذا الجمهور اُتخِذت بالفعل منذ فترة طويلة. استخدم جوزيف جوبلز هذا التّكتيك بكل ما فيه من غدر بمهارة شديدة. حدث ذلك في خطاب سبورتبالاست المُشين في برلين، عندما سأل الشّعب الألماني «هل ترغبونَ بحربٍ شاملةٍ؟» زأروا هاتفين «نعم! (Ja!)» فهذه الحرب الّتي تحدث عنها أثبتت، بشكلٍ مطردٍ، استحالة النصر فيها، لكن هتلر بعد خسارة نفس الحرب في النهاية ألقيَ باللوم على الشّعب، ورأى أن التزامهم بالحرب غير كاف، وأن عزيمته كانت ضعيفة، ما تسبب لألمانيا في الهزيمة.

من بعض النّواحي، يمكن للفاشيّة أن تكون قرينة للتوحيد؛ فبشكل عام، تعد الأديان متعددة الآلهة أكثر تقبُلًا للتكيّف وأكثر تسامُحًا من الدّيانات التّوحيديّة خاصة الإبراهيمية: فبين "المشركين"، يتم تقاسُم المسؤوليات بين آلهة مختلفة، حيث تقوم الآلهة، كُلّ إله على انفراد، بتنظيم الحياة أوالموت أوالخصوبة أو الزراعة أو الحب وهكذا. فتجد الآلهة متعاونة

ومترابطة، ويصبح لدى المؤمنين الحق أن يقرّروا إلى من يلجأون بحسب ظروفهم ومتطلباتهم. بيد أن إله إبراهيم هو على النّقيض من ذلك؛ هو إلهٌ دائم الغيرة، ولا يسمح لأي آلهة أخرى أن تكون شريكة له.

أن فكرة وجود إله واحد خالق مسؤول عن كل شيء، وهو من يحدد كُلّ ما يحدث في حياتنا لكونه إلهًا يقوم بمراقبتنا أربع وعشرين ساعة في اليوم، ويَتنصَّت على أفكارنا وأحلامنا، ويوجّه لنا حياتنا بما ينبغي أن نفعل وما لا نفعل، ويُعاقب الّذين يتجاوزونه بعذابٍ أبديّ في جهنم، هذه الفكرة هي أساس الدّيكتاتوريّة في الدّين، الّذي بدوره هو أساس جميع أشكال الدّيكتاتوريّة الأخرى. فخلف كُلّ ديكتاتوريّة يقف مُلّاك الحقيقة المطلقة، ويعرضون خدماتهم لإرشاد الآخرين إلى الطريق، في المقابل يطلبون من الناس أن يسلِّموهم استقلاليتهم وعقولهم وحسّهم السّليم ومصائرهم ليتبعوهم دون نقاش أو سؤال. إن أطروحتهم تقول إن الخلاص لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الحق الواحد الوحيد الذي لا يمتلكه أحد سواهم.

إبراهيم ومحمد وتهديد المعارضة

يُقال إن إبراهيم بحث عن الإله الواحد الحق طويلًا، وورد في الكتاب المُقدّس كيف أنه، بعد صحوته الدّينيّة، افترق عن قبيلته الأصليّة، وقرّر أن يهجر أبيه ويقوم بعبادة هذا الإله الجديد وأن يجعل الآخرين يعرفونه. بينما في القرآن، يبقى إبراهيم مع قبيلته، ويتشاجر مع والدّه آذر -المُحب للآلهة القديمة- ويقوم

بتحطيم الأصنام الدّينيّة الخاصّة به. فقامت الجموع الغاضبة بإلقاء إبراهيم في النّار لأنه حطم آلهتهم، ولكن الإله الحق جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم وأنقذه بمعجزة.
ولأنه كان تاجرًا شابًا دائم السّفر إلى الشام ذهابًا وإيابًا، فإن محمدًا تقابل مع الكثير من المسيحيّين واليَهُود، وتعَرّفَ على قصص الكتاب المُقدّس. وقام بتسمية ابنه إبراهيم، وعلى أمل إغراء المسيحيّين واليَهُود باتباع دينه، قام محمد بالادعاء أنه من نسل إبراهيم تمامًا كما فعلوا هم أيضًا، لكن مع اختلاف طفيف.
وبالإمعان في سماع قصص الكتاب المُقدّس عن إبراهيم، اكتشف محمد قصّة إسماعيل، تلك القصّة التي لا تُناقشها التوراة بالتفاصيل. كان إسماعيل الابن الأول لإبراهيم من الجاريّة المصريّة هاجر. وكُلّ ما نعرفه عن إسماعيل وأمه مِن الكتاب المُقدّس هو أن إبراهيم تخلّى عنهما في صحراء **فاران** في سيناء، حين شعرت زوجته سارة بالغيرة من هاجر. ادّعى محمد أن إسماعيل، وليس إسحاق ابن سارة، هو من كان على إبراهيم أن يقوم بالتّضحية به، وأن إسماعيل، وفقًا لذلك، هو الوريث الحقيقي لإبراهيم. وفي خطوة مستوحاة من جانب محمد، يتحدّث القرآن عن إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان ببناء الكعبة في مكّة كموقع للحج لأحفادهم الحجاج. وهنا سؤال مهم: إذا كانت هاجر مصرية، وكان إبراهيم يريد أن يبعدها عن سارة في فلسطين، فمن الطبيعي أن يتركها في صحراء مصر بالقرب من أهلها، لا أن يسافر معها أكثر من ألف كيلو في الصحراء مع طفل رضيع ليتركها هناك بلا زرع ولا زاد.

كانت مكة بمثابة المركز الدّيني للجزيرة العربيّة ذلك لكونها تقع على الطريق التّجاري الرّئيسي بين الشام واليمن، وقبل مجيء الإسلام، سُمِح للقبائل بتكريم آلهتهم المتعدّدة داخل أو بالقرب من الكعبة -موقع مركزي للمشركين- كما سُمِحَ للمسيحيّين بتعليق أيقونات ليسوع ومريم في الدّاخل، كما يقول الأزرقي في كتاب **أخبار مكة**. ولكون الكعبة نقطة التقاء لكل تجار الجزيرة العربيّة، فكانت هذه التّسوية تُظهِر الحاجة المُلّحة لروح التسامح وللروح العمليّة الربجماتية، تلك الروح التي تلاشت بعد انتصار الإسلام وفتح مكة.

عندما بدأ محمد دعوته لأوّل مرّة في مكّة، كان عازمًا على نشر رسالته الجديدة، لم يعترض في بادئ الأمر على عبادة الأصنام ولم يشتبك مع آلهة العرب، بل قام فقط بالحديث عن الله. حتى فكرة التوحيد في حد ذاتها جاءت فيما بعد.. في أول الأمر تظاهر محمد بأنه منفتح العقل، معلنًا من خلال القرآن أن «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ». فقط عندما سب آلهتهم وبدأ في الحديث إلى التجار في الحج، نشأ الصّراع بينه وبين زعماء القبائل الأخرى، الّذين كانوا يخشون على تجارتهم ومصالحهم في المقام الأول. فكون محمد كان يبشر بدين جديد فهذا لم يكن بجديد، فحول الكعبة كان الكهنة والعرافون والأنبياء المدعون يلقون خطبهم دائمًا ولم يتعرض أحد لهم بأي سوء، لكن مع محمد كان الأمر بمثابة ثورة على التقاليد والمصالح العامة للتجار، لذلك حدث الصراع.

شبه جزيرة العرب قبل الإسلام كانت مرتعًا للصراعات والنّزاعات القبليّة، وكانت المنطقة بأكمها مُلتهبة بسبب الصراع

بين القُوى العُظمى في كُلّ جانب من حدودها؛ الإمبراطوريات البيزنطيّة والسّاسانيّة الفارسية على وجه التّحديد. كانت هاتان الامبراطوريتان كلتاهما تعرفان تمامًا كيفيّة استخدام القبائل العربيّة كبيادق في الحروب بالوكالة في جميع أنحاء المنطقة. كان محمد يحلم، في ذلك الوقت، بإمبراطوريّة عربيّة عُظمى، تكون الكعبة المركز العصبي الدّيني لها، وهو حلمٌ يبدو أنه يجري في عُروق عائلته، فقد حاول جد محمد، قصّي بن كلاب، أن يضم صفوفه مع المدينة آملًا في توحيد القبائل العربيّة المتحاربة. وكان مقدَّرًا لقصّي أن يموت قبل أن يتحقّق حلمه، ولكن محمد حصد أرباح تحالفات جدّه مع المدينة، الّتي كانت تُعرف حينها باسم يثرب، كما ذكر الأستاذ سيد القمني في كتابه الحزب الهاشمي.

ولمدّة ثلاثة عشر عامًا، بَشّر محمد في شوارع مكّة دون جدوى ملموسة. لقد اختار بضع مئات فقط، ومعظمهم من العبيد، اللحاق به. فقط جاءته الفرصة عندما دخل المدينة هو وأتباعه، عندئذٍ توسّط محمد بين المتحاربين من قبائل الأوس والخزرج، وتم تعيّينه في نِهاية المطاف زعيمًا مدنيًا على المدينة. ثم بدأ محمد في عمل تحالفات مع **الصعاليك** وهم عصابات إجرامية مطرودة من قبائلها كانت تعيش على قطع الطرق والسبي، وكانت عسكرة الدعوة المحمدية والتحالف مع العصابات هي السبب المباشر في ميل أسهم هذه الدعوة للنجاح فجأة.

بدايةً حاول محمد التّقرُّب من يَهُود المدينة كتوسيع لحلفه، بعدما لمس أن تقاليدهم تناسبه، فأدخل إلى حركته الفرائض اليَهُوديّة من التزامات ومحظورات وطُقوس مثل التّطهر، والصّلاة،

والصّوم، وتجنُّب لحم الخنزير.. إلخ، حتى إنّه جعل من مدينة القدس وُجهة الصّلاة للمسلمين. وقام محمد بتسمية كُلّ ما يجوز وما لا يجوز بمُسمّى **الشّريعة**، وهي ترجمة مباشرة للمصطلح اليَهُودي **هالاخا؛** الاسم الذي يعرف به التّقليد الفقهي اليَهُودي المُحدّد للسّلوكيّات والتشريعات. وكلتا الكلمتيْن العبريّة والعربيّة، تعنيان «الطريق».

وتمادى محمد إلى أبعد من ذلك بحيث إنّه قام بصياغة دستور يتكوّن من اثنتيْن وخمسين نُقطة، مُوضحًا كيفيّة التّعايش بين اليَهُود والمُسلِمين. ورغم أن الدستور كان يضمن حريّة المعتقد نظريًا إلا أنه وضع الحياد اليَهُودي في العديد من المجالات في خطر، مُطالبًا اليَهُود بتقديم الدّعم العسكري لمحمد وتجنُّب كُلّ أنواع التّجارة المستقبليّة مع المكيّين الوثنيّين.

كان محمد يتذرّع بذِكر إبراهيم ويقوم بدمج روايات التّوراة والأنبياء في القرآن، على أمل أن يتبنّى اليَهُود والنّصارى دينه الجديد، إلا أن غالبيّة الّذين كانوا يعتنقون أديانا مختلفة بقوا بعيدًا عنه. لم يكن يَهُود المدينة على وجه الخُصوص مستعدين للمخاطرة بعلاقاتهم المحايدة والمرنة مع مختلف القبائل العربيّة، لأنهم يعلمون أن العرب كان من خصائلهم القتال مع بعضهم لأتفه الأسباب ثم الصلح بدون مقدمات. وعندما وجدت مكّة نفسها في حالة حرب مع محمد، قام بعض هؤلاء اليَهُود بالوقوف إلى جانب أهل مكة الوثنيّة فكان انتقام محمد هو إبادة يَهُود **بني قريظة** بالجملة. ولم يكتف محمد بقبيلة واحدة، بل قتل وهجّر كل قبائل اليهود من المدينة، حتى **يهود خيبر** الذين كانوا خارج المدينة. وحتى يومنا هذا، مازال الإسلاميّون في جميع

مظاهراتهم في أنحاء العالم يهتفون «خيبر خيبر، يا يَهُود، جيش محمد سوف يعود».
منذ تلك اللحظة بدأ النّبي بإظهار الوجه الآخر، مُستخدمًا العُنف ليجبر كُلّ من يرفض الاقتناع بدعوته على الرضوخ له. ومُنذ أن استعاد محمد مسقط رأسه في مكّة، قام بالتّخلّي عمّا بَشّر به من قبل بأن لكُلٍ دينه. وكما فعل إبراهيم من قبل بحسب الرّواية القرآنيّة، قام محمد بتدمير الأصنام الّتي كانت تحيط بالكعبة. وقال محمد "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب" وبهذا أنهى التعددية الدينية التي كانت تتسم بها الجزيرة العربية.
قام محمد بتطهير الجزيرة العربية تمامًا من اليَهُود والنّصارى، وجمع فرقة عمل من أجل مهمّة محدّدة وهي تجهيز الهجمات ضد معارضيه. وكان من بين الضّحايا شعراءٌ من اليَهُود كانوا انتقدوه أو سخروا منه، وكذلك زعماء القبائل الّتي رفضت حُكمه. وفي واحدٍ من أكثر أعماله الوحشيّة، أرسل محمد فريق اغتيال -بقيادة ابنه بالتّبنّي زيد- لقتل امرأة متقدّمة في السّن لأنها وصفته بأنه كاذب. ثم قام زيد بنفسه بقتل جميع أولادها وحفدتها، غير أنه ترك إحداهن على قيد الحياة بسبب جمالها لتكون جارية شخصيّة لمحمد. فعل زيدٌ ذلك قبل أن يقوم بربط تلك المرأة العجوز بين حصانيْن وهي ما تزال على قيد الحياة، ثم قاد كُلّ حصان بالاتجاه المُعاكس للآخر وفلق المرأة إلى نصفيْن. كما أنه كان يقوم بإخضاع خُصومه للتخويف والتّرهيب.
لقد زرع عُنف محمد بذورَ التّعصب في قلب الإسلام، تلك البذور الّتي أثمرت وحملت ثمارًا فاسدة طوال التاريخ وحتى

اليوم. وبسببه، أصبحت الجزيرة العربية معقلًا لدين واحد وفكر واحد بعد أن كانت مركزًا للتّعدديّة الدّينيّة.
إن كثيرًا من الحروب الّتي شنّها محمد في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة كانت مع القبائل اليَهُوديّة الّتي رفضت الخُضوع لحُكمِه، وكانت تصريحات القرآن عن اليَهُود في ذلك الوقت تنمو بشكل عدائي ومثير للجدل. فبعد أن كان اليَهُود «أهل الكتاب»، أصبحوا «يحرفون الكلم عن مواضعه». وتصاعد هذا النّوع من العداء حتى إنّ القرآن قام بالإشارة إلى اليَهُود بـ «القردة»، «والخنازير». كما تمّ طرد ثلاث قبائل من يَهُود المدينة، وفي ظل اتهام واحدة منهم بالخيانة العُظمى: وبناء على تعليمات محمد، أعدم كُلّ رجالها أمّا النّساء والأطفال فتم بيعهم كعبيد، وصارت مكّة هي وجهة الصّلاة للمسلمين بدلًا من القدس بعدما تمَّ التّخلص من جميع اليَهُود في المدينة.
وتشير سورة الأنفال (السّورة الثّامنة) إلى مُشادات محمد مع اليَهُود، حيث يصف نصُ السّورة اليَهُود بأنهم حيوانات ملعونة تظل خائنة إلى الأبد:
«**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مرّة وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ، فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ** (يا محمد) **فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**». وهكذا بدأ التّطهير العرقي في الجزيرة العربيّة، بنِيّة تخليص المنطقة من جميع الكُفّار لإرساء أسّس لإمبراطوريّة إسلاميّة مُمتدة. وكانت لحظاتها الأولى هي ولادة أبكر شكل للفاشيّة الإسلاميّة.

معضلة الحكم في الإسلام

عند وفاته، ترك محمد للمسلمين القرآن إلى جانب عشرات الآلاف من «الأحاديث»، الّتي تحتوي على تعليمات مفصّلة لجميع جوانب الحياة، بما في ذلك كيف يجب على المُسلِم أن يقضي حاجته بطريقة شرعيّة. لكنه أهمل تمامًا أن يقول لأتباعه من يجب أن يخلفه كقائدٌ لهم، أو ما سيحتاج إليه هذا الحاكم القادم من مؤهلات وخبرات. ونتيجة لذلك، اندلعت نزاعات حادّة بين المُسلِمين وبعضهم البعض، فتركت بعض القبائل العربية الإسلام بعد وفاة محمد وبعضهم تمسك بالدين لكنهم رفضوا دفع الزكاة لبيت المال "المركزي" في المدينة، ما أدى إلى حروب الردة التي فتكت بكثير من القبائل العربية. وبعد بضع سنوات فقط من وفاة محمد بلغت هذه النّزاعات ذروتها في شقاقٍ بين الفرق السّنيّة والشّيعيّة.

مع مرور الوقت، استفحلت الخلافات والانقسامات، وكان من أكثر العلامات الصّادمة الّتي خلّفها هذا الانقسام هو ظهور مفهوم **الحاكميّة**. يُقصد بهذا المفهوم أن الله هو وحده من يقلّد الحاكم السُّلطة وهو من ينتزعها منه، وأن الله يحكم على الأرض من خلال هؤلاء الحكام الممثّلين له، والّذين أُوكلت إليهم مهمّة تنفيذ شرعه.

نتج عن مفهوم الحاكميّة مفهومان للحكم في"دولة الإسلام": صار للشيعة **إمامٌ** وللسُنّة **خليفة** يحكم بشرعية مباشرة من الله. تمّ التّوصل إلى اتفاق بين أهل السّنة على أن التّمرُّد ضد من هم في السُّلطة كان يقع تحت تعريف التّمرد ضد الله، ما يُهدّد الأمة بأكملها بالانشقاق والارتباك. تنص آيتان من القرآن الكريم على

هذا الأمر، واحدة تأمر المُسلِمين «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، والأخرى تقول: «وَالْفِتْنَةُ (أي الانشقاق) أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».
إن مثل هذه القناعات تتساوى والقناعات المؤسسة لكافة الحركات الفاشيّة والأنظمة الشّموليّة، فيصبح كل من يحيد عن إيمانه بالأيديولوجيّة الفاشية الحاكمة أو يفكر في انتقادها يتم فورًا تصويفه بالكُفّار أو الخائن للوطن، فيتم طردُه أو يُنفَّذ فيه حكمُ الاعدام.

ابن حنبل، صلاح الدّين وحلم الوحدة

يوجد أربعة مذاهب مختلفة من «الفِقّه» الإسلامي وتُعتبر ثلاثة منها معتدلة؛ وهي المالكي والحنفي والشافعي، الذين يسمحون بمساحة محدودة لتفسير القرآن والتّقاليد الإسلاميّة، بحيث يجد المسلمون المحكومون بتصورات هذه المذاهب الفرصةَ للاختيار من بين عدّة تعاليم سُلوكيّة من شأنها أن تجعل الحياة في العالم الحديث أسهل دون المغامرة بالخروج خارج مملكة العقيدة الإسلاميّة. في نِهاية المطاف، وبطبيعة الحال، تبقى المذاهب الثلاثة ذات توجه مُحافظ، إذ تسمح للتفسير والتّقدير فقط في حال عدم وجود آية واضحة في القرآن، أو عندما لا يمكن استخراج حديث للنبي حول موضوع مُعيّن. وبما أن النّبي صرّح بعشرات الآلاف من البيانات حول التّعايش يمكن للمسلم استخدامها للإسترشاد في حل أي معضلة محتملة، ما يحافظ على بقاء مجال التّأويل ضيقًا.

أما أكثر المذاهب الأربعة محافظة هو المذهب الحنبلي، الّذي تأسّس خلال القرن التّاسع في بغداد على يد أحمد بن حنبل، بعد الانقسام الشّيعي-السّني. وقتها كانت بغداد أبعد ما تكون عن أن تحكمها الشّريعة الإسلاميّة، فكانت مدينة متساهلة في ذاك الوقت، وانتشر بيها شرب الكحوليّات والغناء والرّقص كأحد مكونات حياتها اليوميّة. وحتى في قصر الخليفة، كانت تُعقد المساجلات بين الشعراء فيتنافس شّعراء يَهُود ومُسلِمون ومسيحيّون منتقدين أديان بعضهم البعض من خلال مؤلّفاتهم. وفي بعض تلك الأبيات الشّعريّة كان هناك هجمات مباشرة تُشن على النّبي محمد، ولكن لم ينظر لها قط خارج إطارها.

لم يكن "تمدن" بغداد قاصر على مظاهر الحياة العامة والحريات الشخصية فقط، بل أمتد ليشمل ما يمكن الإشارة إليه بحرية الرأي والتعبير أو حرية البحث حتى في الأمور الفقهية. ويمكن القول أن الحكم العباسي في فترة هارون الرشيد والمأمون كان حكمًا علمانيًا إلى حد ما، حيث كان هناك فصل واضح بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، أو أن السياسة كان لها الأسبقية. و نتج عن هذه الحرية النسبية ظهور بعض المدارس الفقهيّة الّتي قالت إن القرآن مخلوق بالتالي فهو ليس آزلي. وتعد **المعتزلة** واحدة من أهم تلك المدارس، وهي التي أنكرت مفهوم التجسيد الإلهي. بمعنى رفض فكرة أن لله جسد ويد وعين كما يدعي أهل السنة المعتمدين على التفسير الحرفي للنصوص، وجعل **المعتزلة** العقل هو المعيار الأول لفهم النص القرآني، ما أثار جدلًا واسعًا خاصة وأن الخليفة العباسي،

المأمون، اقتنع بأفكار المعتزلة وجعل مذهبهم المذهب الرسمي للدولة. ولكن هنا أيضًا يظهر أن الإصلاح والعقلانية لم تأت من الشعب نفسه، بل من أعلى. لذلك سقط المعتزلة بسقوط المأمون.
كانت الحياة في بغداد القرن التّاسع مختلفة بما فيه الكفاية عن الحياة في مكّة والمدينة القرن السّابع، ولم يشعر المجتمع بأن هناك أي التزام أن يفكروا ويعيشوا كما كان بدو الصحراء يفكرون ويعيشون منذ قرنين. يمكن القول أنها كانت أول مرة يعرف فيها العالم الإسلامي العلمانية في صورتها الأولى، فبالرغم من أن الخليفة العباسي كان يعتبر نفسه أمير المؤمنين، إلا أن السياسة كان لها دورًا أهم من الدين في الحكم والتشريع.

مع انتشار الإسلام في أجزاء من الإمبراطورية الفارسيّة والبيزنطيّة، اتطلع المفكّرون المُسلِمون على الفلسفة اليُونانيّة والفولكلور اليَهُودي والفارسي وبطبيعة الحال حدث تأثر متبادل، أدى هذا التأثر لظهور الفقه الإسلامي الجديد، مستعدًا للمجادلة بعقلانيّة التغيرات الفكرية والمجتمعية ومواكبة أتباع الدّيانات الأخرى، وهو ما تسبّب في قلق كبير للقُوى المُحافظة.
في بغداد المزدهرة بالحياة والمليئة بالحانات والرقص، وقع لاهوت ابن حنبل في البِداية على آذانٍ صماء. ولم يكن هذا هو العقبة الوحيدة أمامه، فسُجن ابن حنبل نفسه بسبب موقفه المتعصّب الصّارم ورفضه لمذهب المعتزلة الرسمي، فيما سمي بالمحنة الكبرى. على النّقيض من ذلك، ازدهرت مذاهب الفقه المعتدلة نسبيًا في أزمنة القُوّة والازدهار للإمبراطوريّة

الإسلاميّة، وشكّلت مدارس الفقه في الأندلس وبغداد والقاهرة قيمةً كُبرى، إلا أن زمن الحنبليّة كان يعود دائمًا في وقت الأزمات والهشاشة والهزائم والانشقاقات. وبينما كانت الحروب الصّليبيّة تشتعل، اجتاحت العالم الإسلامي موجة من التّعصب حَوّلت مجتمعاتها إلى شعوب تحلم بحاكم مؤمن يقوم بتوحيد جميع المُسلِمين تحت راية الإسلام، ويقوم برد الضّربات على الغُزاة الصليبيّين. وكان صلاح الدّين الأيوبي هو الأقرب إلى تحقيق كُلّ هذا، مُعلنًا الجهاد، إذ هزم القُوّات الصّليبيّة وحرّر القدس من الحُكم المسيحي في عام ١١٨٧م.
تغلغل حُلم الوحدة الإسلاميّة والانتصار ضد الغرب في التّاريخ والوجدان الإسلامي منذ ذلك الوقت، فكل زعيم إسلامي يشعر بالغيرة من نجاح صلاح الدّين الأيوبي ويحلم بالعصر الذّهبي الإسلامي الجديد، رغم أن صلاح الدين كان من أكثر الحكام قسوة وظلمًا حيث قتل في عهده مئات الآلاف من الشيعة.

ابن تيمية ومفهوم الجهاد

في القرن الثّالث عشر وبعد هجمات المغول على العالم الإسلامي، تمتّعت العقيدة المتطرّفة بنهضة كبيرة، فتمَّ إحياء المدرسة الحنبليّة المحافظة للفقه من قبل شيخ يُدعى **ابن تيمية**، وهو الأب الرّوحي لكل من السّلفيّين والوهابيّين في العصر الحديث، لدرجة إن أسامة بن لادن وأبو بكر البغداي كانا يستشهدان كثيرًا بفتاوى ابن تيمية، وخُصوصًا في تفسيره لمفهوم الجهاد.

يرى ابن تيمية (١٢٦٣م-١٣٢٨م) أن مهمّة الحاكم الرّئيسيّة هي تنفيذ الشّريعة في مُجملها وفرض الطاعة لها، وأي حاكم يفشل في القيام بذلك لا يستحق ولاء الرعية. كما فسر ابن تيمية مفهوم «التّوحيد» (أي الإيمان بإلهٍ الواحدٍ)، بتشدُّد بالغ، فهو مثلا يرى الصّوفيّين المُسلِمين غير مُوحّدين بشكل حقيقي؛ إذ أنهم لا يبجلون الله فقط إنما يبجلون كذلك المشايخ/الأولياء الّذين يقومون بزيارة أضرحتهم ويقيمون لهم الموالد بانتظام. بالنّسبة لابن تيمية، فإن تزيين هذه القبور هو من علامات الأوثنية. بناء على ذلك، اعتبر أن التّعليم الشّيعي تزييف تام للإسلام، داعمًا ذلك بكون الشّيعة قالوا بعصمة أئمتهم وتنزيههم عن الخطأ، كما قام بتكفير العلويين والصوفية والفلاسفة.

جاءت آراء ورؤى ابن تيمية كنتاج طبيعي لزمانه وللأحداث الخاصّة التي عاصرها وتأثر بها. بعد أن استولى المغول على دمشق في أواخر القرن الثّالث عشر، قام الحُكّام الجُدّد في المدينة باعتقاله وتعذيبه. ترك ابن تيمية دمشق للتجوُّل في مصر والجزيرة العربيّة، آملًا أن يقنع الحكام المُسلِمين في المنطقة بالجهاد. ومن أهم أطروحات ابن تيمية التي لا تزال تسيطر على فكر الإسلام السياسي عقيدة الولاء والبراء المستوحاة من سورة التوبة التي يتبرأ فيها الله ورسوله من كل الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين والمسلمين العصاة مانعي الزكاة ورافضي الجهاد والأعراب. إلى أخر الأطروحات والقراءات التي جاء سيد قطب ليزيل عنها غبار سبع قرون ويعيد تقديم أفكار الجهاد وتكفير المجتمع إلى الحياة

مرة أخرى في القرن العشرين، لتكون هذه هي بداية التوحش الحقيقي لهذه الأفكار.

وبعد عدة قرون قام شخصٌ آخر في الجزيرة العربيّة بإحياء أفكار بن تيمية التكفيرية؛ ففي خلال القرن الثّامن عشر، وتمشيًا مع تعاليم ابن تيمية، سعى محمد بن عبد الوهاب إلى تطهير العالم الإسلامي من كُلّ ما هو غير إسلامي، بدءًا من تدمير قبور الصّوفيّين ورفع راية الجهاد ضد كل ما هو غير إسلامي.

سيد قطب والرّكن السّادس من أركان الإسلام

بدأ سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦م) مشوار حياته كناقد أدبي مغمور، لكن العالم يتذكر سيد قطب اليوم لأسباب مختلفة تمامًا، حيث تمثل أفكار قطب أزمة الهويّة الّتي يسقط فيها الكثير من المسلمين الذين لهم توجهات غربية حداثية ثم يرتدون إلى فكر أصولي رجعي. مر قطب بهذه الأزمة حين كان يعيش في الولايات المتحدة في أواخر الأربعينيّات.

أرسلت وزارة التعليم المصرية قُطب إلى الولايات لمدّة عاميْن لدراسة نظامها التّعليمي، وهناك تزايد غضبه لرؤية أهَمَّ قِيمة وهي تُداس في أمريكا، قيمة الحرية والمساواة. بالإضافة إلى «العنصريّة والمجون وعبادة المال» كجزء لا يتجزّأ من الحياة اليوميّة. كُلّ هذا حَفَّزَ قُطب على الانفصال الجذري عن حياته السّابقة، جاء التحول في صورة صّحوة دّينيّة بدأ بدراسة أعمال الفقيه الهندي أبو الأعلى المودودي مؤسس أول حركة إسلامية حديثة.

اهتز المودودي بعُنف مع انهيار الخلافة الإسلاميّة عام ١٩٢٤م، ودعا المُسلِمين في العالم إلى رفض الحداثة والعودة إلى جُذور الإسلام. وكان الجهاد عنده مثله عند ابن عبد الوهاب، حيث أتفقا إنه أكثر بكثير من مُجرّد وسيلة للدفاع عن النّفس. كان الجهاد هو السّلاح لمحاربة كُلّ شيء لا يتماشى مع قوانين الإسلام ونّظام الاجتماعي. رأى المودودي أن الإسلام أكثر من مُجرّد دين؛ إنه نظام شامل من شأنه أن يتخلّل جميع جوانب الحياة: السّياسة والاقتصاد والقانون والعلوم الإنسانيّة والصّحة وعلم النّفس وعلم الاجتماع. وذهب إلى أن لابد من ثّورة إسلاميّة عالمية لتحكم الشريعة جميع البشر، دعا المودودي المُسلِمين للمشاركة بثورته سواء كانوا يعيشون أو لا يعيشون في البلدان الإسلاميّة بالفعل. كان على المفكّرين المُسلِمين وعلماء الأدب توفير أساس نظري لثورة المودودي، وأكّد المودودي، «ما كانت النازية الألمانيّة ستتمتّع بالنّجاح الّذي حصلت عليه بدون إطار العمل الّذي وفّره فيشته وجوته ونيتشه، تحت قيادة رائعة وقويّة من هتلر ورفاقه».

ومثل معاصريه الفاشيّين، وضع المودودي قيمة عالية لرغبة مسلمين آخرين في تقديم التّضحيات من أجل قضيتهم. «بمُجرّد قبولهم الإسلام الصحيح»، ذكر ذات مرة: «لم يبق لكم شيء إلا السّعي مع كُلّ ما تبذلونه من عزيمة للمساعدة في السّيطرة على العالم، وتحقيق النّصر أو نوال الشهادة». وفي هذا يتوافق المودودي مع سيد قطب.

جذبت الجهاد التي أطلقها المودودي العديد من الشباب المُسلِم حيث وجدوا فيها الفرصة للتغلّب على مشاعر العجز وقلة

الحيلة، فبدل من أن يكونوا وسط هذه التغيرات العالمية مجرد مفعول بهم لا حول لهم ولا قوة سيكونون جنودًا منتصرين في الجهاد من أجل تحقيق مشيئة الله على الأرض أو الشهادة التي يُكافأها الله بالخلود في الجنة. أي إنهم رابحون في كُلّ الأحوال، إذا جاز التّعبير.

بدأ سيد قطب بتأليف كُتُبِه في الولايات المتحدة مستوحيًا من أقوال شخصيّات مِثل المودودي. وفي أول مقال له بعنوان «أمريكا الّتي رأيت» كان يشكو من الانحطاط الغربي ومن النّزعة الاستهلاكيّة، مُسلطًا الضّوء على الحاجة المزعومة لنظام اجتماعي إِسلامي. وبعد تأسيس دولة إسرائيل خلال الفترة الّتي قضاها في الولايات المتحدة، سمع قطب عن هزيمة الجيوش العربيّة. وبعدها سمع، في السّنة التّالية، عن مقتل حسن البنا، فعاد إلى القاهرة وانضم إلى جماعة البنا؛ الإخوان المُسلِمين في عام ١٩٥١م، وسرعان ما أصبح هو العقل المدبِّر الأوّل لها. وحتى هذا اليوم يعتبر اثنان من كتبه «**معالم في الطريق**»، «**المستقبل لهذا الدّين**»، نصوصًا أساسيّة في أدبيات معظم الحركات الإسلامية والجهادية.

لكونه إِسلاميًا يساريًا، فهو واضع كتاب "**العدالة الاجتماعية في الإسلام**" فأيّد قُطب في البِداية السّياسة الاشتراكيّة للرئيس عبد النّاصر، لكن عندما قام الأخير بحظر جماعة الإخوان عام ١٩٥٤م بعد محاولة فاشلة لاغتيال عبد الناصر، أدار قطب ظهره لناصر، معتبرًا حُكمَه غير إِسلامي. وأعلن -بحسب

تعاليم ابن تيمية- أن الرّئيس المصري لم يناصر الشّريعة الإسلاميّة، فليس من المفترض أن يُطاع ولا أن يُعترف به كحاكم.

منذ ذلك الحين، بدأ قطب ينظر إلى مصر، ليس باعتبارها دولة إسلاميّة في حاجة إلى إصلاحات دينيّة معيّنة ولكن، كدولة جاهلية كافرة، حان أوان أن يفتحها الإسلاميون. وجاء مفهوم «الجاهليّة» ليلعب دورًا رئيسيًا في تفكير سيد قطب، دالًا على جاهليّة العالم غير المتحوّل إلى الإسلام. كان ابن تيمية قام بتوسيع هذا المفهوم في عصره، واصفًا كُلّ انحراف لمجتمعه من الإسلام إلى الجاهليّة، كما طالب قطب المُسلِمين بتطهير أنفسهم من كُلّ شيء غير إسلامي. وكان المُجتمع المستقل حقًا مُمكنًا في عينيْه فقط عندما يقوم كُلّ فرد بإدخال الإيمان الصّحيح والقناعات الّتي يراها صحيحة. كان قطب يأمل في حُدوث تأثير الدّومينو، في إطلاق صحوة دينيّة تجتاح العالم الإسلامي بزخم متزايد؛ صحوة تعيد الأمة إلى أيام مجدها.

بالإضافة إلى ذلك، استعار قطب مفهوم **الحاكميّة** للمودودي، وهي سيادة الله المُطلقة على الأرض، تلك السيادة غير المقيدة بالدّيمقراطيّة وسيادة الشّعب أو بمفاهيم الدّولة القوميّة. في رأي سيد قطب، إن الحكومة تكتسب السّيادة بأمر من الله والحاكم يُمارس سلطانه باسم الله، والقوانين والأعراف هي أمور غير شرعيّة ما لم تستند إلى النّصوص الإسلاميّة المُقدّسة. أما الجاهليّة فهي حالة تصف تلك المجتمعات الّتي خرجت عن الشّريعة ومنحت السّيادة للشعب أو لحاكم متسلط لا يحكم بأمر الله.

وأخيرًا وليس آخرًا، لعب مفهوم ابن تيمية للجهاد طويل الأمد دورًا رئيسيًا في نظرة سيد قطب، فبالجهاد يمكن تثبيت حُكم الله على الأرض والاحتفاظ به على المدى الطويل. ناقش قطب وُجوب الحث على الجهاد، باعتباره وسيلة للحياة وكونه فريضة على كُلّ مُسلم إذ هو -عمليًا- الرّكن السّادس من أركان الإسلام.
على الرّغم من كونه مُحافظًا وأصوليًا فإن أفكار سيد قطب كانت أيضًا ثوريّة في بعض أوجهها. ففي عصور قبل عصره، كان علماء المُسلِمين أحيانًا يتقبّلون الحاكم المستبد والمنحط لتجنُّب الحرب الأهليّة، معتبرين أن الجهاد هو فقط خيار متاح في سياقات معيّنة، مُعلَنًا عنه من قبل الحكام عندما تكون بلاد المُسلِمين تحت الهجوم. أما سيد قطب، في المقابل، فقام بخصخصة الجهاد، زاعمًا أنه يقع على عاتق المؤمنين عزل الحكام غير الشّرعيّين الّذين كانت بلادهم أقل من أن توصف بأنها بلاد دينيّة، مُتحدين معًا ومعلنين الجهاد بأنفسهم. وكانت فكرة خصخصة الجهاد هي الشرارة التي انطلق منها بركان الإرهاب الذي لم يخمد حتى يومنا هذا.

لأسباب ليس أقلها أفكار مثل هذه، ولدوره اللاحق في أعمال إرهابية، تمَّ إعدام سيد قطب عام ١٩٦٦م وبالرّغم من ذلك استمرت كتاباته في الانتشار كالنّار في الهشيم. كانت كُتيباته مُلهمة للجماعات الإسلاميّة مثل حركات المجاهدين والجهاد الإسلامي، والجماعة الإسلاميّة، والقاعدة وداعش.

وقبل شهور من انتخابه رئيسًا لمصر، قال محمد مرسي عن سيد قطب، «لقد قرأتُ كُتبَه واكتشفتُ الإسلام الصّحيح فيها». إن معظم قادة جماعة الإخوان المُسلِمين اليوم هم جزء من الجناح القطبي، أي الّذي يستند في أفكاره السياسية إلى كتابات قطب، وهم الفصيل الدّاخلي الأكثر قُوّة وتأثيرًا لهذا التنظيم، وهو الفصيل الّذي يُكرّس لفلسفة سيد قطب للجهاد ويُجسِّدها. كذلك فإن الأجنحة السّلفيّة والأزهريّة للجماعة، وكذلك ما يُسمّى بالجناح الإصلاحي، جميعهم ينهلون من نفس النبع المر. ومع ذلك فعندما تولّى الإخوان السُّلطة في مصر، لم يتمكّن سوى القطبيّون من إثبات وجودهم على السّاحة.

الفصل الرّابع

من كفاحِ هتلر إلى جهادنا.. العرب ومعاداة اليهود

تتحدّث إحدى قصص أنطون تشيخوف القصيرة عن مريضيْن يمكثان معًا في نفس الجناح، لكنهما كانا يكرهان أحدُهما الآخر بشدة. ولا يكاد أن يمر يوم واحد دون حدوث شجار بينهما. وفي أحد الأيام جاءت الممرّضة لتخبر أحدَهما أن الآخر قد مات، متوقّعة منه أن يقفز فرحًا بسبب السّعادة التي يسببها هذا الخبر له. بدلًا من ذلك، وجدته ميتًا على أرض المستشفى في اليوم التّالي. لقد كان خلاف المريض مع منافسه هو الّذي جعل لحياته معنى، وبعد وفاة الرّجل الآخر لم يعد هناك أيّ معني لأيّ شيء! صحيح أن الرجليْن لم يطيقا العيش معًا جنبًا إلى جنب، إلا أنهما أيضًا لم يتمكّنا من المضي قُدمًا أحدهما دون الآخر. ودعونا نقول أن قصّة تشيخوف تقدم تصوّر حقيقي للعلاقات اليَهُوديّة-الإسلاميّة.

ليس هناك مكان يُوجد به وقع لمعاداة اليهود أكثر عمقًا من ذلك الموجود في العالم العربي. يمكن أن تعود هذه العداوة في العصر الحديث إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أرتبط بها من صّراعات عسكريّة عربيّة-إسرائيلية، فضلًا عن الدّعاية النّازيّة الّتي وجدت آذانًا عربيّة مُتعاطفة خلال الحرب العالميّة الثّانية.

وفي يومنا الحالي، وفي الواقع يعود سبب مُعاداة العرب لليهود إلى كتاب **كفاحي (Mein Kampf)** أكثر ما يعود للقرآن، فالصّور الّتي خلّفتها النّازيّة عن اليَهُود تركت بصماتِها في العالم العربي قبل حتى أن تصبح إسرائيل دولة بسنوات.

إن العرب يقعون تحت نفس الشعور بالذل، وكما أشاد مؤيّدو هتلر الألمان بالأوهام المذعورة لزعيمهم من وجود مؤامرة يَهُوديّة عالميّة، فإن كلا الكتابيْن **كفاحي، بروتوكولات حكماء**

صهيون المحظوريْن في الكثير من دول العالم (ومن حظرهم مُحِقٌ في تصرُّفه) كانا من الكتب الأكثر مبيعًا لعدّة عقود في الدّول العربيّة. حتى إنّ **حركة حماس** تنشر مقتطفات من كتاب البروتوكولات على موقعها الرّسمي على فترات، رغم أن هذا الكُتيب مُزور ومختلق من قيصر روسيا الذي كان وقتها يريد حجة لطرد اليهود من روسيا. في الواقع، شكل هذا الكتاب حجر الأساس للمؤامرة المفترضة التي يقوم بها يَهُود العالم.

في الوقت نفسه، نُحسن التّصرف حين نتوقّف لنسأل: هل تُعتبر معاداة اليهود من قبل العرب ظاهرة حديثة حقًا، أم أن جذورها التّاريخيّة أعمق من ذلك بكثير؟
لطالما تعلّقت كراهية المسلم لليَهُود بصورة الذّات الإسلامية أكثر ما تعلّقت بخصال وتصرُّفات اليَهُود أنفسهم. وكما هو الحال مع جميع أنواع العداء للسامية، التّي جاءت لتُؤتي ثمارها السّامة في ألمانيا عندما خدشت بشدّة الصّورة الذّاتيّة للشعب الألماني المهزوم بعد الحرب العالمية الأولى. فقد عاش اليهود في ألمانيا لقرون ولم يتم طردهم أو قتلهم بهذا الشكل الوحشي إلا حين شعر الألمان بالذل والهوان وبعقدة النقص تجاه العالم.
هذا وتأتي علاقة العرب مع اليَهُود مختلفة تمامًا عن تلك الّتي للنازيّين: فهما شعبان متشابهان بدرجةٍ كبيرة حتى لو لم يعترف أحد الشعبيْن بذلك، خاصة بعد أن تحركّا في اتجاهيْن متعاكسيْن خلال القرنيْن الماضيّيْن. وعلى وجه التّحديد، تحرّك العرب إلى الوراء.

لم يطمح اليهود يومًا أن يعتنق المسيحيون أو المسلمون دينهم، لأن التبشير ليس من تعاليم دينهم، حتى فكرة امتلاك أورشاليم القدس لم تكن مطروحة حتى ظهور الحركة الصهيونية، لأن موسى لم يدخل القدس ويعتبر اليهود أن دخول القدس وامتلاكها هو مؤشر من مؤشرات نهاية الزمان. لذلك بقي اليَهُود شعبًا صغيرًا يعيش كأقلية تحت حكم الآخرين لعصور طويلة، بينما قام المُسلِمون بالفتوحات في كُلّ مكان من الهند إلى بلاد الأندلس. لقد عاش خمسة وتسعين في المئة من يَهُود العالم حتى القرن السّادس عشر تحت الحكم الإسلامي، وكانت موجات الهجرة اليَهُوديّة إلى العالم العربي تتكرّر، وقد هاجر الكثيرون من يَهُود الأندلس إلى مصر وشمال أفريقيا في أواخر القرن الخامس عشر عندما استعادت القُوى المسيحيّة الأندلس. وهناك تمَّ استقبالهم بأذرع مفتوحة، وقامت الإمبراطوريّة العثمانيّة بتشجيع اليَهُود، بشكل صريح، للانتقال إلى اسطنبول وسالونيكي.

فيما بعد، وفي النّصف الأول من القرن العشرين فرّ من أوروبا عشرات الآلاف من اليَهُود بسبب معاداة السّامية، واستقروا في فلسطين. ولكن هذه المرّة، وجدوا أنفسهم غير مرحَّب بهم. فقد أطلّت كراهية المُسلِمين الجامحة لليَهُود بوجهها مع زوال الخلافة الإسلاميّة والشعور بالذل والهوان، وحتى يومنا هذا لم يتم بعد كبح جماح الكراهية. إذًا كان اليهود مرحب بهم في بلاد المسلمين أوقات الرخاء، وكانوا مكروهين منبوذين أيام الضعف والامتهان. وهذا ما قصدته حين قلت إن علاقة

المسلمين باليهود غير مرتبطة باليهود أنفسهم بل بصورة المسلمين أمام أنفسهم.

تعتبر العداوة بين المُسلِمين واليَهُود نزاعًا عائليًا، متجذّرًا في إرث إبراهيم المتنازَع عليه وسيادة كُلّ مدرسة تدعو إلى التوحيد بالله، فبعد تدمير هيكل أورشليم على يد الرّومان عام ٧٠م حسب الرواية اليهودية، غادر العديد من يَهُود فلسطين إلى المدينة (يثرب العربيّة) الّتي سُميت بالمدينة المنورة في زمن محمد. وفي القرن الأول قبل الإسلام لم ينظر العرب أبدًا إلى هؤلاء المستوطنين اليَهُود على أنهم يمثّلون أي تهديد بل إن يَهُود المدينة كانوا يعيشون بسلام، جنبًا إلى جنب، مع الوثنيين العرب لفترة طويلة، يتفقون في العادات وشرب الخمور وأساليب الحياة. وكانوا يُفضّلون الحياد في حالة نشوب الحرب، كما كانوا يتجنّبون الوقوف بجانب أحد الطرفيْن في النّزاعات البينيّة العربيّة، وكذلك كانوا يتوسّطون في النّزاعات بين القبائل العربية على آبار المياه والأراضي بين الحين والآخر.

إلى أن جاء مُحمد

قام النّبي، كما هو مفصّل أعلاه، بتحفيز فكر التطرّف والأحادية، وتحوّل مع مرور الوقت من معجبٍ بالعادات والمعتقدات اليَهُوديّة إلى عدوٍ ملتزمٍ بعدائه لليَهُوديّة. حتى أمر بإبادة اليَهُود أو طردهم بالكامل. لم ينظر محمد إلى صراعه مع اليَهُود ولا مرّة واحدة باعتباره مُجرّد حلقة تاريخيّة، بل على أنه مستمر إن لم يكن أبديًا! ولكن النّصر النهائي سيتحقق

للمسلمين فقط في نِهاية الأزمنة. قال محمد لأتباعه «لا تقوم السّاعة حتى يقاتل المسلمون اليَهُود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليَهُودي من وراء الحجر والشّجر، فيقول الحجر والشّجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا يَهُودي خلفي فتَعالَ فاقتله».
وهذه النظرة لا تختلف كثيرًا عن نظرة هتلر لليهود، حيث كان يعتبرهم مرضًا في جسد الأمة الألمانية ولن تنصلح أحوال الأمة إلا بإبادة اليهود. وفي حين يطلق القرآن على اليهود القردة والخنازير كان النازيون يسمونهم الفئران والحشرات، وهذا ينزع آدمية الخصم حتى لا يشعر أحد تجاهم بالتعاطف أثناء الإبادة، وهذه سمة أخرى من سمات الفاشية.
بعد وفاة محمد وبعد الفتوحات الإِسلاميّة الّتي تلت ذلك، جاءت البراغماتيّة لتشكيل العلاقات بين المُسلِمين الكفار وأهل الكتاب مرّة أخرى. اعتمد الفاتحون المُسلِمون على تعاون المسيحيّين واليَهُود فكان منهم الأطباء والعمال اليدويّين والمترجمين وكفاءات وخبرات كثيرة كانت الإمبراطوريّة الإِسلاميّة الصاعدة بحاجة ماسة لهم. وفيما بين القرنيْن التّاسع والحادي عشر، خلال ما يُسمّى بالعصر الذّهبي للخلافة العباسيّة اقتربت كلتا الثّقافتان إلى فكر الآخر، وصنع العديد من اليَهُود أسماءً لأنفسهم كمستشارين للخلفاء وكعلماء وشّعراء وفلاسفة، وأحاط هؤلاء اليَهُود علمًا بالفلسفة الإِسلاميّة وعلوم الدين.
وعندما كان اليَهُود والمسيحيّون والمُسلِمون يقومون بتأليف أجزاء من نُصوص جدليّة في مسابقات الشّعر في قصر الخليفة على مرأى ومسمع من العامّة في بغداد، لم تكن تلك النّصوص تُشجع المسلمين على الاحتجاجات الواسعة ولا على المذابح. بل

كان المسلمون يستمعون إلى قصائد ألفها شعراء يهود ينتقدون فيها محمد والقرآن دون أن تثور ثائرة المسلمين، لأن الحكم كان على الحجج وجمال القصيدة، وفي بعض الأحيان كان الشاعر اليهودي الذي انتقد محمد يفوز على الشاعر المسلم الذي ينتقد التوراة.

أُسطورة الأندلس

على الرّغم من كونها مُجرّد اختراع حديث، نشأت أسطورة رُومانسيّة تدور حول التّعايش السّلمي بين اليَهُود والمُسلِمين في الأندلس بين القرنين الثامن والخامس عشر. وهي أسطورة اخترعها يهود أوروبا أنفسهم حين تصاعد شعور ازدادت موجات معاداة السّامية الأوروبيّة قرب نهاية القرن التّاسع عشر، وبحث المفكّرون اليَهُود عن أدلة تاريخيّة تثبت أن شعبهم يمكنه العيش جنبًا إلى جنب مع أتباع الدّيانات الأخرى، مستندين على تاريخ الأندلس وجاعلين من أيام مجدها أيامًا رومانسيّة. وهنا وُلِدت أسطورة تقول: عاش المُسلِمون والمسيحيّون واليَهُود معًا في المنطقة ثماني مئة سنة على قدم المساواة والسّلام، ما أنتج واحة من الثّقافة والعلوم والفنون والتّسامح.

أولًا، لم تكن الشّريعة مُطبَّقة في الأندلس ولا في بغداد في القرن التّاسع، وكان احتساء الخمر في الأماكن العامّة، والغناء، والرّقص، وأشعار الغزل من ممارسات الحياة اليوميّة. وكان اليَهُود يتقلّدون المناصب العامّة العليا، ويعملون في السّياسة والجيش، لا من باب التسامح بل من باب المصلحة لدراية

اليهود بهذه المهام. في القرن الحادي عشر، أصبح الشّاعر اليَهُودي والفقيه صموئيل ابن النّجريلي (Samuel ibn Naghrillah) هو الصّدر الأعظم في قصر ملك البربر في غرناطة، أو رئيس الوزراء إذا جاز التّعبير. وعندما تمّ تعيّين النّجريلي أيضًا قائدًا أعلى للجيش، ظهرت المقاومة بين علماء الدّين المُسلِمين في الأندلس بإيعاذ من رجل الدّين المعتدل ابن حزم الّذي كان يعتبر أن تعيّين النّجريلي يُشكّل تهديدًا لقُوّة الإسلام في شبه جزيرة أيبيريا. ولاقت اعتراضاته تعاطفًا خصوصًا بين المهاجرين المُسلِمين من شمال أفريقيا، أتباع فقه بن حنبل الأصولي، وجماهير المهاجرين الكارهون لليَهُود والمسيحيّين على حد سواء، وكذلك المُسلِمين الممتعضون من عدم تطبيق الشّريعة.

عندما أصبح جوزيف، ابن صمويل النّجريلي، قائدًا للجيش ووزيرًا أكبر، بعد وفاة والده، طالب علماءُ الدّين المُسلِمين من الجمهور تنحيته بالعُنف، وحرّضوا المتعصّبين الدّينيّين على التظاهر في الحي اليَهُودي بغرناطة، وقاموا بتدمير بيوت النّاس وقتلوا كُلّ يَهُودي تمكّنوا منه، ما أدى إلى مقتل أربعة آلاف يَهُودي خلال تلك المذبحة، من بينهم الصّدر الأعظم جوزيف النّجريلي.

وفي القرن الثّاني عشر، غزا الموحِّدون الأصوليّون مساحات واسعة من الأندلس، وأحدث المسلمون المهاجرون من شمال أفريقيا تغييرات كبيرة في واحة التسامح، فقاموا بحظر الموسيقى والرّقص وشرب الخمر في الأماكن العامّة، وتمّ التّشديد على القوانين المتعلّقة بالتّعايش مع «أهل الذمة»، ذات

القوانين المذكورة في العهدة العمرية، حيث فرضت على المسيحيّين واليَهُود نفس القيود القديمة، وتم منعهم من ركوب الخيل، وبناء المنازل العالية، ومن تقلّد الوظائف الرّئيسيّة. وطُلب منهم ارتداء الرّموز على ملابسهم الّتي تُشير إلى دينهم. وحدثت التغييرات ذاتها في بلاد المشرق بعد الحملات الصليبية، فقام المسلمين بتطبيق صارم لأحكام أهل الذمة عقابًا لمسيحيي الشرق، رغم أنهم عانوا مثلهم من الحملات الصليبية. ودفعت هذه الإجراءات الصّارمة العديد من اليَهُود والمسيحيّين إلى اعتناق الإسلام.

كما تمَّ تجريم الفلسفة واعتبارها كفر وتجديف يُعاقب عليه القانون، وأحرق المسؤولون في قرطبة الكتب الّتي تحتوي على أعمال الفيلسوف والمؤرِّخ ابن رشد (**Averroës**) وهو من أهم الباحثين في كتابات أرسطو الرئيسيّة إذ قام بترجمتها والتّعليق عليها ما ساهم في ظهور مدارس فلسفية مسيحية فيما بعد مثل المشائية أو المدرسيّة.

نُفيّ ابن رُشد باعتباره مُهرطقًا بسبب موقف علماء الدّين الإسلامي الأندلسي الكلاسيكي. نفس مصير الفيلسوف اليَهُودي موشيه بن ميمون، الّذي أُجبر على الفرار هربًا من غضب المُسلِمين، أوّلًا إلى **فاس** ثم إلى **القاهرة**. كذلك فرّ العديد من يَهُود الأندلس والبعض الآخر أُجبروا على اعتناق الإسلام.

في نفس الوقت تقريبًا وعبر البحر الأبيض المتوسط، كان المُسلِمون يُقاتلون القوات الصّليبيّة. وقبل هذا الوقت كانت القدس مدينة صغيرة ليس لها أي دور بارز في التّاريخ الإسلامي، لكن بمُجرّد وقوعها تحت قبضة الغزاة المسيحيّين

الّذين أعدموا في طريقهم مئات من المُسلِمين واليَهُود، أصبحت المدينة بشكل مفاجئ نُقطة محوريّة ترمز إلى النّضال ضد أعداء الإِسلام. واُستخرجت القصّص والروايات والأحاديث للتأكيد على قُدسيّة النّضال ضد المسيحيّين، من بين هذه الروايات رحلة النّبي محمد في ليلة من مكّة إلى القدس طائرًا على دابة طائرة، فيما يعرف بواقعة الإسراء والمعراج، والتي لم تكن تلعب أي دور من قبل في الذاكرة الجمعية الإسلامية.

عبر التّاريخ، تغيّر أعداء الإِسلام وتنوعوا. لكن أسطورة القدس بقيت كما هي.
بحُلول أواخر القرن الخامس عشر كان التواجد الإسلامي مقصورًا على بعض الإمارات الصغيرة التي تحارب بعضها البعض، وكان بعضهم يتخالف مع الإمارات المسيحية في الأندلس ضد إمارات إسلامية، حتى جاءت حروب سقوط الأندلس (Reconquista، واستعاد المسيحيّون كُلّ الجيوب الأندلسيّة المُسلِمة تقريبًا. وفي عام ١٤٨٠م بدأت الهجرة الجماعيّة لليَهُود والمُسلِمين من المنطقة، كما بدأت محاكم التّفتيش الّتي تستهدف الأسبان الّذين اعتنقوا الإِسلام. ومن عام ١٤٩٢م إلى عام ١٥٢٦م أصبحت الأندلس تقريبًا خالية من اليَهُود والمُسلِمين، فأتباع هذيْن الفريقيْن حرفيًا فرّوا هاربين.

في شمال أفريقيا تم أستقبال اليَهُود الأسبان بأذرع مفتوحة، حيث حظوْا بسمعة جيّدة بفضل مهاراتهم ومعارفهم، واستقر البعض الآخر منهم في أقطار الإمبراطوريّة العثمانيّة. في حين

لعب الأطباء اليَهُود والباحثون والمموّلون دورًا حيويًا في قصر السّلطان، وظل باقي اليَهُود بمثابة مواطنين من الدّرجة الثّانية، ولم يتم إلغاء قوانين الإمبراطوريّة المُتعلّقة بالذّميّين إلا في منتصف القرن التّاسع عشر، ولم يكن لفكرة المساواة حينها أي وُجود سوى على الورق فقط. على النّقيض من ذلك، فبعد الثّورة الفرنسيّة تمّ بالفعل الاعتراف باليَهُود كمواطنين ذوي قيمة متساوية في فرنسا.

حين كانت قُوّة الإمبراطوريّة العثمانيّة تتضاءل يومًا بعد يوم، وقعت أقطار بأكملها في قبضة فرنسا وبريطانيا: شمال أفريقيا في يد الاستعمار الفرنسي، بينما مصر والسّودان والعراق وفلسطين كانت من نصيب الاستعمار البريطاني. وعندها وجد العرب أنفسهم في قبضة الأوروبيّين بدأت موجتان من الهجرة اليهودية، واحدة من البلاد العربية في إتجاه فرنسا أملًا في حرية أكبر، والأخرى من شرق أوروبا وألمانيا في اتجاه فلسطين هروبًا من الإضطهاد.

الصّهاينة والإِسلاميّون والقوميّون العرب

في أواخر القرن التّاسع عشر، اجتاحت العالمَ العربي موجةُ القوميّة الّتي انتشرت بسرعة كبيرة بقدر ما اجتاحت الصهيونية أوروبا، وأفرخت الحداثة والاستعمار حركتيْن كانتا من المقدَّر لهما أن تصبحا إحداها للأخرى العدو اللدود في القرن العشرين، بل تركتا بصماتِهما على مصير الشّرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين. إحدى هاتيْن الحركتيْن هي الحركة

الصّهيونيّة والأخرى هي القومية العربية. نشأت هاتان الحركتان من الشّعور بالظّلم فكشفتا عن التّأثر بالقوميّة وسعت كلتاهما إلى التّحرُّر من وطأة الأوروبي المتعجرف.
كان أمل القوميّين اليَهُود هو الهروب من تصاعد معاداة السّامية في أوروبا، فقاموا بتأسيس دولة مستقلة لليَهُود. بينما كان أمل القوميّين العرب، في الوقت نفسه، التّخلص من نير الاستعمار الأوروبي، والحُصول على الاستقلال مثلما فعل بسمارك عندما أنشأ إمبراطوريته الألمانيّة في عام ١٨٧١م. فظهر الإسلاميّون المعاصرون على السّاحة بسرعة فائقة، وهم أيضًا نتاج الحداثة والاستعمار، مُصرين على إقامة دولة للمسلمين تحكمها الشّريعة.
حين بدأ الصّراع بين هذه الحركات الثلاث كانت منطقة الشّرق الأوسط بمثابة ساحة المعركة. لقد عانى العرب هزيمة مُذلّة؛ هزيمة ما بعدها هزيمة، على أرضهم مرة من قبل الاستعمار الأوروبي ومرة بسقوط الخلافة العثمانية. ثم جاءت هزيمة ثالثة حيث تأسست دولة إسرائيل وسط البلدان العربية وهزمتهم خمسة جيوش عربية. ولأوّل مرّة في التّاريخ، أصبح اليَهُود بالنسبة للعرب ليس مجرد أقلية صغيرة تعيش في كنف الإسلام، بل أصبحوا المنافسين المنتصرين، ما شكَّل صدمة كُبرى، بل بالأحرى جرحًا مازال يُشعرهم بالخجل إلى الآن.
وحتى قبل تأسيس إسرائيل، كانت فعاليّة التّنظيم الصّهيوني تعجب العرب بقدر ما كانت مدعاة للخوف. كانت بداية هذه الفعالية خارج منطقة الشّرق الأوسط، وبالتّالي كانت بداية في ظرف سيئ. ويبقى السّؤال التّحريضي: «كيف نجح الصّهاينة

في بناء دولة ديمقراطيّة حديثة وغنية في حين فشلت المحاولات العربيّة المعاصرة؟»

قام القوميّون العرب ببناء حركتهم على الشعارات والطُّقوس وتمجيد الأشخاص، في حين انتشر الصّهاينة على جبهات عديدة، وبرز الفكر الصّهيوني في كتابات اليَهُود الأرثوذكس مثل ناثان بيرنباوم، كما برز أيضًا في كتابات المعلّقين العلمانيّين مثل تيودور هرتزل. وقامت المؤتمرات الصّهيونيّة على استضافة الصّحفيّين والمحامين والطلاب وسائر فئات العقول الكبيرة من الرّجال والنّساء، مؤكّدة منذ البِداية على التنوّع وعدم إقصاء يهودي بسبب توجهاته للاستفادة من كل الخبرات والتيارات. بينما في مصر وسوريا وتركيا وإيران، كان يتم تشكيل الخطاب القومي فقط من قبل الرّجال الّذين سمّوا أنفسهم قادة وزعماء، وكانوا لا يطيقون معارضة من قريب أو بعيد، بل كانوا يزجون بمعارضيهم في السجون بدلًا من أن يستفيدوا من خبراتهم وأفكارهم.

الحركة القوميّة اليَهُوديّة كانت تعمل على أكثر من مستوى؛ أولًا، الصّهيونيّة السّياسيّة، حيث حاول الصهاينة الأوائل الاتصال بالسياسيّين في الدول القويّة، وتمكنوا من إقناع النّمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وبريطانيا العُظمى بأن الشّعب اليَهُودي له الحق في إقامة دولة قوميّة. ثانيًا، كان هناك صهيونيّة عمليّة، تُشرف على هجرة اليَهُود إلى فلسطين وتأسيس «الكيبوتسات» حيث تمّ تفعيل الأفكار الاشتراكيّة. والأهم من هذا كانت الصّهيونية الثّقافية التي ضَمنت استيراد أساليب التعليم والتقنية الحديثة إلى فلسطين إلى جانب التقاليد اليَهُوديّة.

وتجمّع المثقّفون والفلاحون والعمال ورجال حرب العصابات في فلسطين، وعندما أعلن ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨م، انحنى العالم لسيادتها. فقرر بن جوريون إلغاء كل الجماعات اليهودية الإرهابية وجمع منها السلاح حتى تكون السيادة لجيش واحد نظامي، وأمر بن جوريون بإغراق سفينة محملة بالسلاح في عرض البحر، كان مُقاتلون سّريّون يهود خطّطوا لتهريبها إلى داخل البلاد. وعلى الرّغم من الصّراعات العديدة والتّهديدات المستمرة من الدّول العربيّة المجاورة، تمّ إصدار دستور ديمقراطي وتفكيك كل الجماعات المسلحة أو دمجها بالجيش، وكانت هذه هي أول ديمقراطية في المنطقة، جاءت بدعم شعبي، لا بأمر عسكري أو سياسي من أعلى. ونجحت إسرائيل في أن تصبح بوتقة ينصهر فيها اليَهُود المهاجرون من جميع أنحاء العالم، ونجحت الدولة الوليدة، على مر الزّمن، في تخفيف التّمييز السّابق ضد اليَهُود الآسيويّين والأفارقة. ورغم العنصرية الواضحة ضد عرب إسرائيل اليوم إلا أنهم يعيشون أفضل بكثير من الفلسطينيين في لبنان أو سوريا أو أي بلد عربي آخر.

وعلى العكس من ذلك، فمع مرور الزمن والإخفاقات المتتالية للعرب تلاشى السّعي للوحدة العربيّة. افتقر العرب منذ البِداية إلى أيديولوجيّة واضحة غير المعارضة لإسرائيل، الّتي تعد بمثابة ذريعة مُستمرة لإعادة تسليح الزّعماء العرب وترسيخ ما لديهم من قُوّة وتقويضهم للديمقراطية. فعندما طالب شباب الاتحاد الاشتراكي في مصر بديمقراطية وحياة حزبية، أعلن الرّئيس المصري جمال عبد النّاصر «**لا صوت يعلو فوق**

صوت المعركة». بهذه الطريقة حاول عبد الناصر إسكات المعارضين من الشعب أو في مجلس قيادة الثورة. وتحوّل الحكام العرب إلى طغاة نموذجيين، قاموا باضطهاد الأقليّات والمعارضين السّياسيّين،إعاقوا كُلّ محاولة للتغيير الاجتماعي، قاموا أيضًا بإعداد أرض مثاليّة وخصبة للأصوليّة الإِسلاميّة، وهي ليست بالظاهرة الحديثة، بل لو أننا رسمنا خطًا منذ عصر النّبي إبراهيم وحتى عصرنا الحالي سيظهر «المرض الإسلامي!»، كما كتب المؤرخ التّونسي الفرنسي، عبد الوهاب مأدب.

المُفتي والعقل المُدبِّر: استيراد مُعاداة اليهود من ألمانيا

في عام ١٩٣٤م كانت فرنسا تحكم الجزائر، ووقتها حدثت مذبحة مخيفة لليَهُود في مدينة قسنطينة بالجزائر. حرضت خطبة عُمدة المدينة المعاديّة للسامية المواطنين العرب على مهاجمة السّكان اليَهُود فوقع العديد من الضحايا. إن المذبحة الّتي نتجت عن ذلك التحريض جاءت بمثابة نقطة تحوُّل لليَهُود العرب ونظرائهم الأوروبيّين ولمعظم من كان يرتدي الملابس الغربيّة منذ تلك اللحظة. لقد هاجر كُلّ اليهود الّذين كانوا يحملون الجنسيّة الفرنسيّة إلى باريس. وأثناء هجرتهم، كان العديد من اليَهُود يهجرون ألمانيا وأوروبا الشرقية مُتجهين إلى الشّرق الأوسط، وصار عشرات الآلاف يتدفّقون إلى فلسطين كُلّ عام بعد أن تولى الحزب النازي السُّلطة في ألمانيا.

فرأى كل من القوميّين العرب والإِسلاميّين فرصةً لرفع مكانتهم وتعبئة الجماهير في النّضال ضد الصّهيونيّة، حيث أشار

السّلفي السّوري رشيد رضا، أهم مُعلّمي حسن البنا، إلى مؤامرة يَهُوديّة عالميّة. وقام العرب قبل أن يترجموا أعمال الفلاسفة الغربيين بترجمة كتاب **بروتوكولات حُكماء صهيون** إلى العربيّة، واُستخدم هذا الكتاب كدليل مؤكّد على نوايا اليَهُود. في السّنوات الّتي تلت عام ١٩٢٩م قام أمين الحسيني، مفتي القدس، بنشر لهيب الاستياء المعادي لليَهُود، داعيًا إلى عقد مؤتمر إسلامي بالقدس وذلك عندما حدثت مجزرة أخرى في مدينة الخليل الفلسطينيّة. جاءت المُطالبات بدولة «فلسطين بلا يَهُود» لأول مرّة في مؤتمر الحسيني، ولم يكن الاتصال بهتلر سوى الخطوة المنطقيّة التّالية.

وسرعان ما وجد الإخوان المُسلِمون في مصر أن كُلّ من الرأي العام والسرايا استساغوا معاداة اليَهُود. وهنا جاءت خطابات ومقالات حسن البنا مر بسطور من أقوال النّبي ضد اليَهُود. وقد اعتبر البنا هتلر هو المخلص الذي سيقضي على اليهود، مُترجمًا أجزاء من كتاب **كفاحي**. وفي عام ١٩٣٧م بدأت ثورة عربيّة جماعيّة ضد كُلّ من اليَهُود والحُكم البريطاني. كان رد فعل بريطانيا عنيفًا حيث قامت بتدمير مدينة يافا الفلسطينيّة آنذاك، وتمَّ قمع التّمرد وإجبار الطليعة العربيّة كلها على الفرار.

هرب مفتي فلسطين إلى برلين، واستخدم الحسيني هناك جهاديّين إسلاميين جنّدهم للحرب إلى جانب هتلر، حتى إنّ النّازيّين قاموا بتوفير محطة إذاعيّة باللغة العربيّة والفارسية والتركية لأمين الحسيني لكي تقوم ببث الدّعاية المضادة لليهود في أنحاء العالم العربي والإسلامي. قام هيملر بإبلاغ المفتي أنه

تمَّ قتل ثلاثة ملايّين يَهُودي وأن الحل النّهائي أصبح في متناول اليد، وبالتّالي قام المفتي بإبلاغ مستمعيه العرب بهذه الأخبار السعيدة على الهواء، وأشار إلى احتمال وجود «حل نهائي» مزدوج يخلص العالم من اليهود في ألمانيا وفلسطين. بعد ذلك بوقت قصير، قامت جماعة الإخوان المُسلِمين بمظاهرة جماهيريّة حاشدة مناهضة لليهود في القاهرة. وفي العام التّالي، تمّ تنفيذ مذابح في بغداد ضد اليهود. وأعلن المفتي «سوف نقتلهم حتى آخر رجل منهم. لأنه لا يمكن إلا للسيف فقط أن يُقرر مصير أمتنا».

في عام ١٩٤٧م قامت الأمم المتحدة بإصدار قرار يقضي بتقسيم فلسطين. قرار أسعد الصهاينة المهاجرين من أوروبا لفلسطين، لكنه أتعس الفلسطينين واليهود العرب في مصر والعراق وباقي الدول العربية. فقد شردت حرب ٤٨ الفلسطينيين، واضطرت بعض اليهود العرب للهجرة إما لإسرائيل أو لأوروبا. ومن المفارقات الغريبة أن معاداة العرب لليهود أصبحت منذ هذه الهزيمة هي الّتي تحدّد هويتهم أكثر من أي شيء آخر. والمفارقة الثانية أن هذا العداء لليهود أضر بالعرب أكثر مما أضر اليهود.

في عام ١٩٥٠م قام سيد قطب -العقل المُدبّر لجماعة الإخوان المُسلِمين- بإصدار كتابه **«معركتنا مع اليَهُود»** والّذي أصبح واحدًا من النّصوص المُقدّسة في مجال العداء للسّامية ولكن أيضًا واحد من أهم أدبيات الإرهاب الإسلامي. وفي هذا الكتاب يتبنى قطب فكرة تآمر اليَهُود الأبدي ضد الإسلام ويأصلها، فيسوق أحاديث وروايات مفادها كراهية اليهود للإسلام على

مر التّاريخ. فيكتب قائلًا إن يهود اليوم يشبهون أسلافهم في وقت النّبي محمد، فهم يُظهرون نفس العداء الّذي أظهروه وقت تأسيس دولة المدينة المنورة، حيث هاجموا المسلمون في أقرب فرصة سنحت لهم. وبالخداع والنفاق حاولوا الإيقاع بالمسلمين الأوائل، ثم بخبثهم وحيلهم نجحوا في إبعاد المُسلِمين عن القرآن وعن الدّين الحق. فلا يُتوقع من هذه المخلوقات سوى سفك الدّماء، والعُنف، والشّر بأحط أنواعه، فاليهود على حد قوله هم الّذين كانوا يقتلون، ويقومون بالمجازر، ويشوّهون سمعة النّبي، وهم لا يزالوا بنفس الصفات ونفس المكر. وقال قطب إن الله بعث لنا هتلر لكي ينتصر عليهم، وقد يُرسل لنا آخرين أيضًا لينكلوا باليهود ويسومهم سوء العذاب.

كان سيد قطب يرى أن وعد الله حق وأن خلاص المسلمين لن يأتي إلا بالقضاء على اليهود، مثلما كان هتلر يظن. ولكن الله خيب ظنه كما خيب ظن هتلر، ومات كلاهما الأول منتحرًا والثاني على مشنقة الإعدام، وبقى اليهود وبقى عناء الفلسطينيين الذين لا يزالون يحلمون بوطن.

في جميع أنحاء العالم العربي، أصبحت كراهية اليَهُود جزءًا أساسيًا من دروس التّاريخ ومن الهوية القومية على حد سواء. وهنا لا يختلف القوميون العرب عن الإسلاميين في شيء. لاحقًا، قامت قنوات فضائيّة مثل المنار والأقصى والجزيرة ببث رسائلها الخاصّة لبث الكراهية ضد اليَهُود في جميع أنحاء العالم. حتى إنّ برامج الأطفال باتت تُعزّز الصّور النّمطيّة المعادية للسامية، مُستحضرين أساطير الاستشهاد بالإضافة إلى

الدّعاية العسكريّة. وباسم المقاومة والهوية أصبحنا نسمم أطفالنا بالكراهية.
إذا قام الشّبان الفلسطينيّون اليوم باتخاذ موقف معادٍ ضد اليهود، فإن موقفهم سيكون مفهومًا: أولًا، لأن الحروب دمرت مدنهم وقتلت ذويهم، ولأن بناء المستوطنات الإسرائيليّة كان له أثرٌ مباشرٌ على حياتهم. لكن ما هو غير قابل للفهم هو معاداة السّامية المتزايدة من الشّبان المُسلِمين ممن ليس لحياتهم اليوميّة علاقة كبيرة مع الصّراعات في منطقة الشّرق الأوسط. عندما يقوم كُلّ من المغاربة في الدّار البيضاء والباكستانيّون في لندن، والتّونسيّون في برلين، والاندنوسيون في أمستردام، والصّوماليّون في كوبنهاجن والأتراك في مدينة مالمو السويدية بتبنّي نفس وجهات النّظر المعاديّة للسّامية، حالمين بإبادة جماعيّة لليَهُود، فإن الصّراع العربيّ الإسرائيليّ وحده لا يكفي لتفسير هذا العداء. هذه المشكلة موجودة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهي تترك أثرًا كبيرًا على أجيال كاملة معادية لليَهُود وكارهة للغرب.

المُسلِمون الّذين فرحوا في جميع أنحاء العالم بقراءة كتاب **كفاحي (Mein Kampf)** وكتاب **بروتوكولات حكماء صهيون**، برغم أنهم ليس لديهم فكرة عمّن يكون ديفيد هيوم، أو إيمانويل كانط، أو باروخ سبينوزا، فهم مغيبون ولا يفهمون شيئًا. هم يقرأون لا للمعرفة بل لتغذية الكراهية وهذه قراءة تسمم العقول والقلوب. هي قراءة تضرهم أكثر ما تضر اليهود.

عندما يقوم المُسلِمون المتعصّبون الّذين يرتدون الزّي الخاص بطالبان بالخطابة التي تدعو للكراهية بدون خوف في شوارع فرانكفورت، بينما يتم الاعتداء على رجل يهودي في برلين لمُجرّد ارتداء الكبة، هذا يعني أن لدى أوروبا كلها مشكلة.
وعندما تقوم «دوريات المُسلِمين» بالسّيطرة على أحياء كاملة في لندن لتتأكد من عدم تناول الخمور والتزام النساء بالحجاب، في حين أن اليَهُود يلوذون بالفرار من مدينة مالمو السّويديّة، فإن هذا يؤدي إلى خطر كبير على التّماسك الاجتماعي في جميع أنحاء القارة الأوربيّة. حتى بعد الهجمات الدّامية ضد الكنيس اليهودي في بروكسل عام ٢٠١٤م، وعلى سوبر ماركت يَهُودي في باريس وعلى كنيس ثانٍ في كوبنهاجن في عام ٢٠١٥م، ما تزال المجتمعات الإِسلاميّة ترفض الاعتراف بأن لديهم مشكلة مع معاداة السامية، لأنهم يرفضون أن تكون هناك ضحية سواهم، كما يرفضون أن تكون أمة أخرى هي خير أمة أخرجت للناس. وهم بذلك يريدون الجمع بين دور الفتوة ودور الضحية في نفس الوقت.
إن معاداة السّامية ما هي إلا إحدى أعراض لمرض قديم تفشّى مع مرور الزّمن. وهي توجد اليوم في أوروبا ليس فقط بسبب ضعف صورة الذّات للمسلمين، لكن أيضًا نتيجة لعدم مبالاة الكثير من الأوروبيّين الّذين يبدو أنهم غير راغبين أو غير قادرين على التصدي لنمو الإسلام السياسي بشكل جاد.

غريب في وطنه: جانب من حياة أقباط مصر

التّاريخ هو 25 يناير ٢٠١٢م، الذّكرى السّنويّة الأولى للثورة الّتي أطاحت بالرئيس المصري حسني مبارك. يستيقظ سمير في الرّابعة فجرًا. يعيش سمير في جنوب غرب المقطم بالقاهرة، حيث ما يزال كُلّ شيء مظلمًا، بدون أي أثر لضوء القمر. سمير في التّاسعة عشر من عمره، مُتعب وغاضب، «أنا قبطي»، يقولها لي بتحدٍ. ويستطرد «كوني أقوم بجمع القمامة، هذا لا يعني أنني سلة مهملات». ثم يبدأ مشوار عدة أميال إلى العمل.

كان سمير يسلك نفس الطريق قبل عام للانضمام إلى المتظاهرين في ميدان التّحرير. واليوم بينما هو يتجوّل في العاصمة يجمع النّفايات يعود الميدان إلى أفكاره مُجدّدًا. يُعتبر عمله في جمع القمامة من الأعمال الّتي تثير امتعاض المُسلِمين، فهي بالتّالي مخصّصة بشكل تقليدي للأقباط؛ المسيحيّين الّذين يُعتقد أن نسبتهم من ستة إلى عشرة في المئة من سكان مصر. كان الأقباط يستخدمون بقايا الطعام لإعاشة الخنازير التي يربونها في منطقة المقطم، ولكن هذه الممارسة انتهت بشكل مفاجئ قبل عامين. فبحُجّة تفشي أنفلونزا الخنازير، أمرت الدولة بذبح جميع الحيوانات الموجودة في جنوب القاهرة. بيد أن سمير بات مُقتنعًا بأن المسؤول عن هذا هم الإسلاميون، وأن هذا الأمر لم يكن بهدف السّيطرة على المرض. في الواقع كان هدفهم الرّئيسي هو مُعاقبة «الكفار».

قال لي سمير إن سقوط مبارك لم يضع حدًا للتمييز الموجود ضد شعبه، بل على العكس من ذلك: إن وضع الأقباط أصبح

أكثر سوءًا اليوم من أي وقت مضى. ونتيجة لذلك، فإن سمير يقاطع الاحتفالات بذكرى الثّورة.
كان العديد من زملائه الأقباط غادروا البلاد الآن، لكن سمير يقول: «أنا لست غنيًا، ولا أستطيع تغطية مصاريف مغادرة البلاد. وفي كُلّ الأحوال أنا أرغب في البقاء. أنا أحب هذا البلد برغم أنني هذه الأيام لا يُمكنني تحمل النّظرات الّتي أراها في عيون غالبية المُسلِمين عندما يلاحظون وشم الصّليب على يدي». لا يعرف سمير جميع المُسلِمين، ولكن بعضًا من أصدقائه، «ينظرون بفوقيّة إلى الأقباط». ويستطرد: «إن الكثيرين منهم جاءوا للتظاهر خارج مبنى التّليفزيون معنا في ٩ أكتوبر ٢٠١١م، ولكنهم مع ذلك أقليّة فقط».
ذلك اليوم حاول فيه أقباط القاهرة المطالبة بحُقوقهم كمجموعة دينيّة. عندما حاول سمير العُبور من الحاجز المحيط بمبنى التليفزيون، قام جندي في الجيش المصري بتحيّته بحرارة. وكان هذا فخًا: فخلف الحاجز كان هناك جنديان أخران استقبلوه بالضرب. كان سمير شاهدًا عندما رأى بعينيْه مجموعة من المسيحيّين تُسحق تحت مدرعات تابعة للجيش. كذلك رأى أحد الرّجال ينشطر إلى نصفيْن تحت إحدى المدرعات أثناء محاولته لإنقاذ زوجته. قُتل في ذلك اليوم ستة وعشرون قبطيًا وأصيب مئات الآخرين. أما الشيء الّذي صدم سمير فلم يكن وحشيّة الجنود؛ فهم قاموا بقتل المُسلِمين بنفس اللامبالاة أيضًا كما يقول، المفجع والصادم كان عدد المُسلِمين الّذين ساعدوا جنود الجيش على تطويق جماعته من المتظاهرين الأقباط. يقول «الّذي رأيته في عيونهم لم يكن مُجرّد عداء. كانت

كراهية محضة». كان هناك اثنان من المُسلِمين يقومون بركله مرارًا وتكرارًا، ثم التقطوه من الأرض وقاموا برميه في نهر النّيل.

قبل ستة أشهر فقط قام الأقباط والمُسلِمون بمظاهرات سلميّة جنبًا إلى جنب، ووقتها قام الأقباط في ميدان التّحرير بتشكيل سلسلة بشريّة حول المُسلِمين المُصلّين في مشهد فريد من نوعه تمَّ نشره على نطاق واسع. وفي غضون ذلك شنَّ أنصار مبارك المسلّحون هُجومًا على المُصلّين والذين يحرسونهم. وفي وقت لاحق قام الشّباب المُسلِم برد الجميل إلى الأقباط حيث قاموا بحراسة المسيحيّين أثناء القداس في الكنيسة. ولفترة وجيزة، بدا وكأن الثّورة تخطّت أزمة الدّين، لكن بعد أسابيع قليلة فقط اندلعت الاشتباكات بين المُسلِمين والأقباط في الإسكندريّة. كان اندلاع العُنف هذا ردًا متعجلًا لحملات التّشهير العسكريّة الّتي تستهدف الأقباط في وسائل الإعلام الرسمية، وجدت الخُطب البغيضة آذانًا متعاطفة نتيجة لسياسات التّعليم المضلّلة، كما أشار سمير. في المدارس المصريّة، يكاد لا يُدرَّس شيء عن الأقباط في البلاد أو عن تاريخهم، وعلى أي حال، فإن التراث الإسلاميّ المتعالي ينظر لغير المسلمين على أنهم حثالة.

بالرّغم من كونه غير متفائل حول مستقبل مصر، إلا أن سمير يفعل كُلّ ما بوُسعه على أمل اللحاق بقطار الدراسة بالرغم من عدم وجود وقت للمدرسة، فهو يدرس في المنزل بعد الانتهاء من العمل بدلًا من الذّهاب للمدرسة. وعلى هذا المنوال، يطمح سمير لدراسة إدارة الأعمال أو القانون في الجامعة ربما يحظى حينها ببعض الاحترام. يتساءل سمير بأسى: «ولكن حتى لو

انتهى بي المطاف بأن أحصل على وظيفة ذات قدرٍ عالٍ، فما الّذي يمكنني فعله حيال الصّليب الموشوم على رسغي؟»

في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ليس في مصر فقط، يواجه المسيحيّون الاضطهاد. في العراق، يُهدّد الانقراض واحدة من أقدم المجتمعات المسيحيّة في العالم بسبب هجمات الإسلاميّين الذين يقومون بإشعال النّيران في الكنائس بسبب وبدون سبب على الإطلاق. لا يكاد يمر عيد الميلاد سنويًا دون أن تجد أحدهم يفجّر نفسه في وسط جموع المسيحيّين. بعد سقوط الإخوان في صيف ٢٠١٣ قام أنصار الإخوان بإحراق ٨٢ كنيسة قبطية في كل أنحاء مصر. في ديسمبر من نفس العام، قتل انفجارٌ لسيارة مفخّخة خمسةً وثلاثين مسيحيًا بالعراق كانوا في طريقهم للخُروج من الكنيسة بعد القُداس، وعلى موقع اليوتيوب وفي أحد الفيديوهات الأكثر وحشيّة يظهر اثنان من الإسلاميّين وهم يُوقفون شاحنة في أحد الشّوارع العراقيّة، يسألون السّائق والرّاكبين الّذين معه عن ديانتهم، زعم الرُّكاب أنهم مسلمون وُهم يرتجفون من الخوف، فتمّ إجبارهم على الخروج من السّيارة، وقام أحد الإسلاميّين باستجوابهم حول طقوس صلاة الصّبح لدى المُسلِمين، مُجبرًا إياهم على الرّكوع على ركبهم، وعندما فشلوا في الإجابة قاموا بقتلهم بسلاح آلي رشّاش. وفي فبراير ٢٠١٥م تمّ القبض على واحد وعشرين مسيحي من الأقباط كانوا جميعهم من العمالة الوافدة إلى ليبيا، وتمّ ذبحهم من قِبل داعش التي قامت بتصوير العملية ورفعها على اليوتيوب. وبين ٢٠١٣ و ٢٠١٨ كانت هناك مئات من حالات الهجوم على الكنائس وبيوت الأقباط في صعيد مصر

والقاهرة والعريش، ومئات من حالات الاختفاء القسري لفتيات أقباط تم خطفهن أو حوادث تهجير الأقباط من قراهم. وحين يتم قتل النّاس أو تهجيرهم بسبب ديانتهم أو خلفيتهم، فهذه هي الفاشيّة بعينها!

سيكون من الخطأ أن تجمع كافة المُسلِمين في العالم كلّه في كفّة واحدة معًا، فمعظم المسلمين شعروا بالصّدمة مثل أي شخص آخر جرّاء هذا النّوع من الإعدامات والتهجير. ولكن لا ينبغي الاستهانة بعدد الّذين تربّوا على الكراهية واضطهاد المعارضين والزّنادقة. يُنكر كثير من المُسلِمين اليوم على المسيحيّين الحقّ في الوجود على الإطلاق لكونهم كُفّارًا، بينما يُجبَر المزيد من المسيحيّين العرب على الفرار من الدّول العربيّة تمامًا كما حدث كثيرًا مع اليَهُود العرب. هناك القليل فقط من المسلمين يعترفون بأن هذه ثقافة إيذاء النّفس. إنها الرّغبة المُلحَّة لتطهير القطاعات العامّة والخاصّة من كُلّ ما هو غير إسلامي. إنه الانحطاط الحضاري والشعب المنغمس بالدّين والثّقافة القبليّة الّتي أصبحت بالية، بشكلٍ واضح، في يومنا هذا.

الفصل الخامس

من جوتنبرج إلى زوكربيرج

الاحتكار الثّقافي وديكتاتوريّة الإِسلام

منذ تاريخه المبكر، بُنيّ الإسلام على الأساطير والقصص اليَهُوديّة والمسيحيّة. وازدهرت الثّقافة العربيّة في القرون الوسطى، لا بفضل الإسلام وتعاليمه وفقط، لكن بفضل الشعوب والإمبراطوريات القديمة التي وقعت تحت الحكم الإسلامي. فقام المسلمون باقتراض النّظام الحكومي الفارسي والهيكل العسكري البيزنطي. ومن بغداد إلى دمشق والقاهرة إلى قرطبة، حصد العرب جميع مزايا التّبادل الثّقافي. أثبت الإسلام -وقتها- قدرته على التّكيُّف؛ فلم يعارض العلم ولا حريّة البحث.
خلال فترات الإزدهار، كان الحكام المُسلِمون يميلون إلى الانفتاح وممارسة أقل للرّقابة على أفكار وتصرفات الرعية. هذا السّلوك المتحرّر والسّلس جلب القُوّة والرّخاء لكل من العالم العربي والإسلامي، بصورة دامت على نطاق واسع حتى العصور الوسطى، لكن عند الأزمات كانت الأمور تتغير. جاءت عصور الظلام لتضع الإسلام في الواجهة، فصار وحده مصدر الهويّة لمجتمعات بأسرها، وبذل الإسلام جهدًا للقضاء على كُلّ شئ غير إسلامي واضعًا المنشقين والمختلفين تحت ضغوط واضحة، فبدأ الانغلاق والاضمحلال.

في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي اليوم يتم تجاهل هذه الحقيقة، فالنّظريّة المنتشرة تفيد بأن الإسلام وحده هو الّذي صنع للبدو المتحاربين حضارة عريقة. والكثير من المُسلِمين المعاصرين يقومون بذكر هذه الفكرة كسبب لمكافحة العلمانية، مدّعين أن الثّقافة المتقدّمة الّتي قدّمها الإسلام جعلت العرب

غير المتعلّمين أفضل من أوروبا العصور الوسطى في كُلّ المجالات. ولكن إذا نظرنا لعوامل تقدم المسلمين بين القرنين التاسع والحادي عشر، فإن الإسلام كنظام ديني لم يكن له أي فضل في رفعة المنطقة العربيّة ولا شمال إفريقيا ولا الأندلس، يمكن فقط أن نرصد فضل الأمبراطورية العربية/الإسلامية في تغيير رقعة الجغرافية السياسية وقتها ما أدى لتغيرات اجتماعية واختلاط ثقافات كانت متباعدة أو لم يكن لها أن تتجاور وتختلط في ذاك الوقت لولا الصعود السياسي/الحربي للعرب المسلمين.
استفادت العلوم والفلسفة العربيّة من التّأثير الفارسي والمسيحي واليُوناني، خُصوصًا في المناطق المحتلة حديثًا، فحافظ المسلمون على أفكار الثّقافات الخاصّة بهذه الحضارات. وكانت هناك علاقة مباشرة بين ترجمة أعمال الإغريق والازدهار الإسلامي. ودائمًا كان دور الشّريعة مهملًا، كما في بغداد والأندلس خلال القرنيْن من الثامن إلى العاشر، فكان للأديان والثّقافات المختلفة دورٌ أكبر من مُجرّد التّعايش جنبًا إلى جنب، فكانت الشعوب مختلطة إلى درجةٍ ما ومُتحفزة للقيام بحملة شاملة للتحديث في منطقة الشّرق الأوسط، حيث تمّ تحريك عمليّة حيويّة بشكل كبير من قبل أسماء غير عربيّة مثل ابن سينا، الفارابي، الخوارزمي، يوحنا الدّمشقي، ابن ميمون، وابن رشد. نعم ابن رشد لم يكن عربيًا بل أمازيغيًا. وعمومًا أن أغلب الشخصيات الفارقة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ليسو عرب وغالبا ليسو مسلمين في نظر المحافظين وقتها والآن.
كان لدى قادة الإسلام الجُدد ما يكفي من الثّقة بحيث لا يخشون الاحتكاك بالزّنادقة، واضعين خبراتهم لكي تستخدم من قبل

دمج الثّقافات الفكريّة الأخرى مع ثقافتهم، مُكثرين من ترجمة كتب العصور القديمة إلى العربيّة ومُقلّدين قُدماء الإغريق. واجه الفاتحون العرب مثقّفين من المسيحيّين واليَهُود المتأثّرين بالثّقافة الإغريقيّة، وكانوا يتجادلون معهم حول موضوعات مثل طبيعة الله وكيفيّة خلق العالم. ما أدى لتطوّر علم الكلام من خلال تلك المناقشات، وهو علم إثبات العقائد الدّينيّة من خلال أدلة القرآن والسنة وأيضًا من خلال الحجج المنطقية لرد الشّبهات عن الإسلام، وتطورت تلك المناقشات لتكون اللبنة الأولى لما يمكن تسميته بالفلسفة العربيّة.

في أوقات لاحقة، صار يتمّ تقليص حُرّية الفكر والعمل كلما استشعر المسلمون أي تهديد خارجي، مُصرِّين على تنفيذ الشّريعة. لم تؤدِ مطالبهم تلك إلى القمع واضطهاد الأقليات فقط، لكن أيضًا إلى الجُمود الفكري. ولملأ الفراغ الحادث، تمّت إعادة أفكار الإسلام الأساسيّة والتّشديد عليها باعتبار القرآن أمرًا إلهيًا محضًا، وتقديسًا لمكانة القرآن كوثيقة تشريعية، وباعتبار عالميّة الإسلام المفترضة، وأن الجهاد فرض ديني. فكلما وجد المسلمون أنفسهم أكثر بُعدًا عن زمن النّبي كلما أصبح القرآن والنبي أكثر قدسيّة بالنّسبة لهم، فبات المؤمنون ينفّذون تعاليم القرآن بحذافيرها، دون ترك أي مجال للتأويل، وأصبحوا يعاقبون كل من ينتقد محمد بالقتل.

إن الحروب الصّليبيّة، وكذلك الغزو المغولي فيما بعد، واقتحام بغداد، كُلّ هذا دفع المُسلِمين إلى اتّخاذ موقف متشدِّد ضد المسيحيّين واليَهُود على حد سواء. فبعد أن كانت بغداد وكرًا لشرب الخمر والغناء والرّقص -وهذه الأمور تعتبر خليعة في

حد ذاتها- وجد شيوخ الإسلام أن الهزيمة كان سببها البعد عن شرع الله والتّخلي عن القيم الإسلاميّة، باحثين عن الفجور كونه هو السبب بدلًا من الإخفاق العسكري.

أولا كان "الفقه" يعني "الفهم"، أما بعد الهزيمة صار الفقه هو ترديد المعرفة وتطبيق النص كما فهمه القدماء، تقلّص الفقه الإسلامي وتراجع وصار مجرد تكرار لآراء قديمة. وأصرَّ المحافظون الجُدد على أن القرآن يحتوي على كُلّ المعرفة، مُبعدين المُسلِمين عن الفكر الإنساني في أي مكان آخر في العالم. وحرص هؤلاء على تنقيته الفكر الديني ليتخلّص من التّأثيرات الأجنبيّة غير النظيفة، ومِن ثمَّ شُيطنتْ الفلسفة والعلوم، فضلًا عن اضطهاد الأقليات والنّساء. ما أدى لموت التّبادل الثّقافي الإسلامي مع المُفكّرين غير المُسلِمين الامر الذي أدى بدوره إلى عقم ثقافي وركود مجتمعي وعلمي. أضف إلى ذلك اكتشاف الطريق البحري المعروف باسم رأس الرّجاء الصّالح من قبل المستكشف البرتغالي **فاسكو داجاما** عام ١٤٨٩م ما ساعد على التّقليل من أهميّة الشّرق الأوسط عالميًا. وسهل هذا الاكتشاف على التّجار تجنُّب هذه البقعة من العالم، كما لاقت الأفكار الجديدة من جميع أنحاء العالم صعوبة في الوصول إلى المنطقة. ثم جاء تحريم تجارة العبيد دوليًا كضربة عنيفة لأهم مصادر الرزق عند المسلمين.
هزيمة عسكرية تلاها إنغلاق فكري معادي للأخر تزامن معها تغير في طرق التجارة يسهل على هذا الأخر تفادي الاحتكاك كلها تغيرات ساعدت مع التّغيرات الحادثة في التّعليم على

وضع نِهاية للعصر الذّهبي الإسلامي الذي كانت المدارس فيه تدرس الرّياضيات والفلسفة والطب إلى جانب القرآن، ما دعم -وقتها- الابتكارات والاكتشافات الجديدة.

في أعقاب اجتياح بغداد، انقسمت الإمبراطوريّة الإسلاميّة إلى ولايات أصغر حاربت بعضها البعض، على سبيل المثال لا الحصر خلفاء السّلاجقة والفاطميّين، وانضم إليهم في وقت لاحق المماليك والصّفويّون. وحدث نفس الشيء في الأندلس.
وصارت فاتورة الحفاظ على السُلطة باهظة جدًا، فأي حاكم لا يضمن حياته نفسها إلا إذا أحاط نفسه بالمرتزقة وأمراء الحرب، فتوجه الجانب الأعظم من الموارد الماليّة إلى التسليح وشراء الولاءات ما أثر تلقائيًا بالسلب على مخصصات التّعليم مثلا.
مع تطور الأمر صارت أطماع الأمراء الحرب أكبر حتى أن بعض الحكام كانوا يُكافئون قادة جيوشهم بأن يولوهم كحكام على المدن، وتم ابتكار نظام **الوقف الإسلامي**، حيث أصبحت المدينة كلها ملكًا لقائد عسكري، وفضّل أمراء الحرب بناء المساجد والمدارس الدّينيّة، ولم يعد للعلم والفلسفة أي دور يُذكر. فقط سمحوا بالتّعليم الدّيني. وطُلِب من مدراء المدارس تقديم القائد العسكري كخادم مخلص للإسلام. وكانت مبادئ الطاعة والولاء التّام للدين والقائد هي الشّعارات الجديدة، وصارت هذه المبادي بديلة عن المعرفة والبحث الحر، ومنذ ذلك الحين لم يعد التّعليم يعني شيئًا أكثر من التّلقين الدّيني في مرحلة الطفولة.

في النّهاية، أصبح التّعليم والمعرفة أمريْن بعيديْن عن الواقع، فازدادت الفجوة بين المُسلِمين وباقي العالم بشكل يتوسع مع الوقت إلى أن صار العالم الإسلامي في حالة من العزلة والقطيعة المعرفية مع العالم. أن التّعليم الأساسيّ لمُعظم الدّول العربيّة حتى الآن يسير على نهج «التلقين والتكرار»، لا التفكير والتمحيص، بالإضافة ليقين تام غير قابل للنقاش أن القرآن وحده هو ينبوع المعرفة الإنسانيّة ويجمع كل المعرفة، مع مثل أعلى ثابت بلا منازع هو النبي محمد.

الخطايا المميتة للإمبراطوريّة العثمانيّة

في كثير من الأحيان يُلقي المُسلِمون اللوم على الحملات الصليبية والاستعمار الأوروبي كسبب لتراجعهم الحضاري والاقتصادي. كل كتب التاريخ المدرسية في كل الدول العربية تفرد صفحات كثيرة تندد بالاستعمار وممارساته، لكن بالكاد توجد كلمة واحدة في كتب التّاريخ عن العدوان المغولي أو دمار بغداد، رغم أن اجتياح المغول كان أكثر تدميرًا على الثّقافة الفكريّة العربيّة من الاستعمار. في عام ١٢٥٨م، استولت قُوّات آسيا الوسطى على محتويات كُلّ المكتبات في بغداد، وألقوا بكُلّ الكُتُب في نهر الفرات. وأُعدموا العلماءُ والمثقفون، وتمَّ اعتقال العمال المهرة وشحنهم إلى آسيا الوسطى. ومع ذلك يتم تعليم الأطفال اليوم في مدارس الدّول العربيّة، بتفصيل أكثر، عن الصّراعات في القدس وعن شر الصّليبيّين ولا شيء عن فظائع المغول. هذا الأمر ليس خلل أو خطا غير مقصود، غنما هي أزدواجية معايرية اصيلة في

العقل الجمعي المسلم، فالمغول في نِهاية المطاف اعتنقوا الإسلام، لذلك يُنظر إلى فتوحاتهم بأثر رجعي من خلال عدسة الجهاد والإعلام الإسلامي، بالإضافة طبعًا أن الغربيّين على عكس المغول، حافظوا على إمبراطورياتهم حتى اليوم، فلا توجد وجاهة في معاداة حضارة بائدة؟
فالعرب اليوم ينظرون إلى الأوروبيين بوصفهم امتداد طبيعي للصّليبيّين، الذين ربطتهم بالعرب والمسلمين سلسلة طويلة من الحروب والاعتداءات، وكأن المستعمرين الأوروبيّين وصلوا الشرق الأوسط فور انتهاء الحروب الصّليبيّة مصممين على تخلف وتراجع العالم الإسلامي.
في الواقع فأن الحروب الصّليبيّة أنتهت في القرن الثّالث عشر أما حملة نابليون على مصر فجاءت عام ١٧٩٨م، أي هناك هناك حوالي ٥٠٧ سنة، لم يقترب الغرب فيها من بلاد المسلمين، بل كانت أوروبا تعاني من هجمات العثمانيين والبربر عليها طول الوقت. فما الّذي قام به العالم الإسلامي خلال هذه الفترة للتخلُّص من الجُمود الفكري الذي ساد تاريخه الطويل؟

بالنّظر مجدّدًا إلى التّاريخ، نجد أن سُقوط بغداد وإمبراطوريّة الأندلس الإسلاميّة المنقسمة أدّيا إلى جعل الأتراك القُوّة العُظمى التّالية، بعد أن اعتنقوا الإسلام وشكّلوا الإمبراطوريّة العثمانيّة، استولوا على القسطنطينيّة -قلب الإمبراطوريّة البيزنطيّة- في واحدة من الغزوات الكثيرة الظافرة. وصل العثمانيّون مرتيْن إلى أبواب فيّينا، في ١٥٢٩م و١٦٨٣م،

معلنين أن حملاتهم العسكريّة كانت من أجل خدمة قضية وحيدة وهي نشر الإِسلام. قد يكون ذلك مفهومًا لو قام الأتراك بافتتاح أوروبا فقط، لكن لماذا جاءوا إلى مصر وسوريا وشمال أفريقيا الذين كانوا مسلمين بالفعل؟
كان من شأن أربعمائة عام من الحُكم العثماني من المغرب إلى ساحل الخليج الفارسي أن يقضي على ثقافة الهلال العربي وأن يبعده عن ثقافة أوروبا المجاورة. لقد قام الأتراك المنتصرون بالتّرويج لأيدولوجيّات أكثر مُحافظة وانغلاقًا. على وجه الخُصوص، فمثلا انتشرت ثقافة **الحريم** التّركيّة، خاصة لتماشيها مع فكرة العودة إلى التّقاليد القبليّة العربيّة الّتي تفصل بين الجنسيْن وترسِّخ فكرة النّظرة غير الإنسانية إلى المرأة.

كان يمكن للعثمانيّين أيام مجدهم أن يتقدّموا إلى أوروبا في ضعفها، لكنهم اختاروا الإنغلاق على أنفسهم بعيدًا عن التّأثير الخارجي ما جعل إمبراطوريتهم ضعيفة.
في بِداية القرن الخامس عشر، قدّم الألماني يوهانس جوتنبرج للإنسانيّة اختراعًا المطبعة. واستطاع اختراعُه هذا أن يُحطّم احتكار الكنيسة الكاثوليكيّة والطبقات الحاكمة للتّعليم والمعرفة، حين مَكّن الجمهور من الوصول إلى العلم والمعرفة بشكل مستقل عن الكنيسة والبلاط. ما كان من شأنه حرفيًا أن يُغيّر العالم؛ فلم يكن الأثر الّذي فعله إنجيل مارتن لوثر والخمسة والتّسعين أطروحة مُمكن الحدوث بدون المطبعة التي نشرت هذه الأفكار في كل أوروبا. رفعت المطبعة مستويات محو الأميّة بين العامّة كما مكّنت القُرّاء في كل أوروبا من قراءة

أفكار فرانسيس بيكون وديكارت وجون لوك وديفيد هيوم، وروسو وفولتير وإيمانويل كانط، وسائر مُفكّري التّنوير الآخرين الّذين قاموا بنقل الكتب إلى لغاتهم المختلفة والتخلص من سطوة اللغة اللاتينيّة، التي صارت لغة مقدسة وجامدة لأنها لغة الإنجيل. وأصبحت المعرفة في متناول جميع النّاس في القارة، قاد هذا الانفتاح إلى ثورة فكرية وفلسفية وعلمية أودت إلى ثورة صناعية أنتجت طبقة وسطى طالبت بحقوقها من الإقطاعيين والملوك عبر ثورات شعبية، فجاءت الديمقراطية والليبرالية كتلبية لطلبات الطبقة الوسطى.

على الرّغم من المطالب المتزايدة داخل الإمبراطوريّة العثمانيّة لاستيراد آلة جوتنبرج إلى إسطنبول إلا أن الأمر واجه اعترض شديد من علماء الدّين الإسلامي، والّذين كان بيدهم زمام الأمور هنالك. كانوا يُناقشون إمكانيّة أن يُؤدي هذا الجهاز إلى تحريف القرآن. ما شغلهم هو أن هذا الإنتاج الضّخم قد يتسبب في فقدانهم السّيطرة على محتويات كتابهم المُقدّس. لهذا السبب بقى العالم الإسلامي لثلاثة قرون بمنأى عن اختراع المطبعة وبعيدًا عن آثاره العلمية والمعرفية والاجتماعيّة.
حتى عندما وصلت -أخيرًا- مطبعة واحدة إلى إسطنبول عام ١٧٢٩م، خُصّصت فقط للأعمال الإدراية في المكاتب الدّاخليّة للسلطان. وحين تمَّ شحن أول مطبعة للعالم العربي إلى ميناء الأسكندرية مع نابليون عام ١٧٩٨م، اعتبرها علماء الأزهر جهازًا شيطانيًا. وبينما كان الفرنسيّون يقومون بتفريغ الشحنة

في ميناء أبو قير هاجمهم المتعصّبون الدّينيّون وحطّموا بعض ألواح الطباعة على رصيف الميناء.
أن الهُوّة الثّقافيّة بين أوروبا والعالم الإسلامي تتجلى تمامًا في علاقة كُلّ منها بالمطبعة؛ ففي حين استفادت أوروبا من الاختراع إذ قامت بخرق سلطان البابويّة الدّينيّة والاحتكار الثّقافي لرجال الدّين وإرساء ثقافة جديدة للتفكير النّقدي، كان العالم الإسلامي -خوفًا على فُقدان هُوّيته الدّينيّة وتحريف نُصوصه المُقدّسة- ينتقدها على أنها آلة شيطانيّة.
في تلك العُزلة الثّقافيّة، شدّدت ديكتاتوريّة الإسلام قبضتها على الحياة في الشرق. بينما أوروبا على الجانب الأخر تتجاوز الإيمان إلى التفكير والتحليل والعلم لتحل المعرفة محل الميتافيزيقا والغيبيات. فعلى المستوى الفردي صار الإنسان الأوروبي صانع ومنتج وبقى الإنسان العربي حبيس السحر والأفكار الميتافيزيقية. وعلى المستوى الجمعي فأن أفكار التّنوير والابتكارات التّكنولوجيّة أدّت إلى ثورات صناعيّة وفكريّة دامت طوال القرن الثّامن عشر في أوروبا كلها وقامت بتغيير الغرب بالكامل في عقود قليلة، بينما ساد الخُمول الفكري وكثُرت الخُرافات في الشّرق الأوسط.

محمد ابن عبد الوهاب «و«التّجديد»

بينما كان الأوروبيون يناقشون أفكار فولتير وروسو وإيمانويل كانط، كان في الشرق رجل يقوم بوضع «إصلاحات» خاصّة به في الفكر العربي. إنه محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣م-١٧٩٢م)، مؤسّس الحركة الوهابيّة الذي كان يتوق لرؤية

تطهير الحياة والثّقافة اليوميّة من كُلّ ما هو غير إسلامي. شدد بن عبد الوهاب على إلزامية قتال الكُفّار، وحتى المتصوّفين المُسلِمين كانوا يُعدّون ضمن الكُفّار. الغريب في الأمر أن أفكار ابن عبد الوهاب كانت تعتبر «تجديدًا» وإصلاحًا!

أسّس عبد الوهاب أفكاره على وعد محمد الّذي يقول إن الله سوف يُرسل للمسلمين كُلّ مئة سنة «مُجدّدًا» لكي يقوم بتجديد دينهم. والتّجديد في هذه الحالة يعني العودة إلى المبادئ الأولى، لأن الدين هو شيء ثابت ومقدس غير مطروح للنقاش أو التطوير، وإنما يجب تطهيره من كل ما علق به من أشياء دخيلة وغير إسلامية. لقد حاول محمد علي والي مصر أن يسحق الوهابيّة في بِداية القرن التّاسع عشر، معتبرًا أنها عائق كبير أمام مسيرة التّحديث الّتي كان يقوم بها. لكن التاج البريطاني وآل سعود والحركة الوهابية ارتبطوا معًا في تحالف غير مقدَّس ما زال قائمًا حتى يومنا هذا.

فما تزال الوهابيّة الحديثة هي الدّاعم الرّئيسي ومانح الشرعية للعائلة المالكة السّعوديّة، وهي المسؤولة عن تنظيم التّعليم والتّدريس الدّيني للأطفال في المملكة مقابل إضفاء الشّرعيّة الدينية على سُلطة العائلة المالكة. فكونهم الأوصياء على أخلاق الأمّة، فإنهم يقومون بإرسال دوريات في الشّوارع لاعتقال «المذنبين» من الرّجال الّذين قد يجدونهم في الخارج أثناء وقت الصّلاة أو النّساء يظهر منهن ولو شعرة واحدة.

في مُعظم الدّول الإسلاميّة يقوم المسؤولون الدّينيّون بأداء نفس الوظيفة لكن في أشكال أقل حدّة، ما يضمن بقاء سُلطة الطبقة الحاكمة بلا مساءلة، ويُبقي حالة التّعليم والصحّة في البلاد على

النّحو الّذي يراه الحُكّام مناسبًا. إنهم يقومون بكتابة التّاريخ على هواهم، فصار التاريخ مقدسًا مثل النصوص، لأنه يمجد الإسلام ويشوه صورة أعدائه. صار الحكام ورجال الدين يرفضون كُلّ المحاولات الرّامية إلى توسيع الآفاق الفكريّة لأمّتهم، مُحافظين على احتكار الفكر الثّقافي الخاص بهم؛ ومُحذّرين العامّة من مغبّة المؤامرات والتّهديدات التي تحيق بالأمة، ما يضمن وُجود شبح العدو الخارجي في كُلّ مكان وفي كُلّ كتاب من الكُتب المدرسيّة ووسائل الإعلام.

في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر قامت بعض الدول الغربيّة الحليفة بالضّغط على الدول الإسلاميّة لكي يتأكّدوا أن الكتب المدرسيّة لم تعد تحمل الكراهية ضد الكفار أو ضد الغرب. وفي عمل سياسي إيمائي غريب، قامت بعض الدّول المعنيّة - بشكل أساسي مصر والمملكة العربيّة السّعوديّة- بإلغاء هذه المواد الّتي تحرّض محتوياتُها على الكراهية من المدارس، مُضيفين موادًا جديدة بديلة تدعو إلى التّعايش في سلام. في النّهاية كان هذا التصرُّف دليلًا على مقياس قصير النّظر، لأن الكتب المدرسيّة مبنيّة على نُصوص القرآن وأحاديث النّبي، وما زالت هذه النصوص والأحاديث على ما هي عليه في جميع النّواحي الأخرى.
يظهر نفس هذا التّناقض شّبه الفصامي في جميع مناحي الحياة في العالم الإسلامي وليس فقط في الكتب المدرسيّة. فبقدر ما هي مشكلة فلسفيّة هي أيضًا مشكلة واقعيّة، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بتقسيم الإسلام للعالم بين مؤمنين وكُفّار أو دار السلام

ودار الحرب. وبالمثل، فإن جُذور هذه المشكلة جغرافيّة سياسيّة، فهي مُرتبطة بالشّعور بالنّقص الّذي يجعل العديد من المُسلِمين يشعرون أن خيارهم الوحيد هو النّضال بقُوّة وعدوانيّة ضد الغرب الّذي بلا روح. هذا الفصام (الشّيزوفرينيا) موجود -بأوضح أشكاله- في المملكة العربيّة السّعوديّة، فنجد أن سياسات واشنطن صديقة الأسرة الحاكمة في أمور الطاقة، والواردات الغربيّة، والقواعد العسكريّة الأمريكيّة كلها موجودة جنبًا إلى جنب مع الإسلام الوهابي المتشدّد دينيًا واللاإنساني الّذي يُسيّس ويُراقب كافة جوانب الحياة. إنهم يسعوْن، بشكل مُفرط، إلى اقتناء كل طُرق الحياة الغربيّة التي يتمتّعون بها بشكل واضح ولكن باطنيًا يحتقرونها، ما يجعل هذا الفصام ذا خُطورة كبيرة جدًا. لذلك ليس أبدًا أمرًا غريبًا أن خمسة عشر من بين تسعة عشر من المتورِّطين في أحداث سبتمبر ينتمون إلى المملكة العربيّة السّعوديّة.

بعد أن أعلن سفير السعودية لدى واشنطن أن كُلّ المواد الدّراسيّة في بلاده «خالية من الكراهية» قامت صحيفة الواشنطن بوست بمراجعة بعض كتبهم الدّينيّة «التّي تم تعديلها» في مايو ٢٠٠٦م، وكانت الخُلاصة أنها وجدت عدد من الكُتُب ما تزال تُظهر الإسلام أنه هو الدّين الوحيد الحق، وتقدّم الجهاد ضد الكُفّار والمشركين بوصفه واجب على كُلّ مسلم مؤمن، وقامت الصّحيفة بإدراج أمثلة عديدة في تقريرها، من بينها التّمرين التّالي من كتاب الصّف الأول:

إملأ الفراغات بالكلمات المناسبة (الإسلام، نار جهنم):
كُلّ دين غير ________ هو باطل.
من يموت وهو خارج الإسلام يدخل ________.

كما يُوجد تمرين آخر لطلاب الصّف الرّابع: «الإيمان الحقيقي يعني أن تكره المشركين والكفار ولكن لا تظلمهم». ويتعلّم طلاب الصّف الخامس أن «كل من يطيع الرّسول ويؤمن بوحدانيّة الله لا يمكنه الحفاظ على صداقة مُخلصة مع أولئك الّذين يعارضون الله ورسوله، حتى لو كانوا أقرب المقرّبين بالنّسبة له»، وكان من الصعب حذف هذه العبارة لأنها تستند إلى آية قرآنية واضحة **"لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ"[٤]**. أما كتاب الصّف الثّامن فيوضح أن «القردة هم اليَهُود، شعب السّبت، في حين أن الخنازير هم المسيحيّين، أي الكُفّار من أتباع عيسى». ومع وصول الطلاب الصّف الثّاني عشر يدرسون عن الجهاد ما يلي: «أن الجهاد في سبيل الله الذي يشتمل القتال ضد الكفر والقمع والظلم، وكل من يُؤيّده هو أفضل ما في الإسلام. فقد نشأ هذا الدّين بالجهاد وبرفْع راية الجهاد».
تصوروا إن المملكة العربيّة السّعوديّة -من بين جميع الدّول!- تعلّم أطفالها أن الجهاد هو نضال ضد الظُلم والقمع، وهذا شيء مثير للسخرية. فلا توجد دولة تقهر مواطنيها وخاصة النساء منهم مثل السعودية. نحن إذا أمام نظام يضع -بكل دهاء- غشاوة على عيون وأحاسيس شعبه حتى يكاد لا يكون هناك أي

شخص في وضع يُمكّنه من إدراك هذا التناقض. وهذه سمة جديدة من سمات الفاشية: أن يعيش الناس تحت نير القهر والطغيان وهم يظنون أنهم يعيشون أزهى عصور الحرية والرخاء.

هذا النّوع من الكتب هو بمثابة المواد التّعليميّة ليس فقط في المملكة العربيّة السّعوديّة، ولكن أيضًا في تسعة عشرة دولة عربية وأوروبية أيضًا، حيث توجد أكاديميّات داخل أوروبا يُديرها سعوديّون ووهابيون ينشرون عبرها أفكارًا رجعية متعصبة. ولو نظرنا إلى البلاد التي من الإرهاب في أوروبا ستجد أنها لا تخلو من المساجد الوهابية، فحين تعقبت الشرطة الفرنسية خط سير منفذو الهجوم على مجلة شارلي إبدو اكتشفوا أنهم كانوا يزورون مسجدًا سعوديًا سلفيًا في بروكسيل، عاصمة بلجيكا، وحين تعقبت بلجيكا خط سير المقاتلين البلجيكيين في صفوف داعش وجدت أن معظمهم تربى على أفكار نفس المسجد. قد يقوم السعوديين بتعديل مناهجهم في المستقبل فقط لحفظ ماء الوجه أو لإرضاء ولي العهد السعودي، لكن حتى يأتي هذا الوقت، لن تتغير عقليّة المدرسين والأئمة والشباب، الّذين سبق وتمّ تشكيل عقولهم بالتّلقين المبكّر.
الشّئ نفسه ينطبق على برنامج مكافحة الإرهاب الذي قام بإنشائه وزراء سعوديّون بعد أحداث ١١ سبتمبر، مُجنّدين المفتي بنفسه لكي يقول لشباب الأمة إن الإسلام دين سلام وتسامح. هذا المفتي الّذي تضمّنت تصريحات سابقة له هي الأكثر شرًا على الإطلاق عن مقتل المرتدّين وضرورة الكفاح

المسلّح ضد الكُفّار. لذلك ليس غريبًا أن نعلم أن العدد الأكبر من مقاتلي داعش جاء من السعودية، يليهم المقاتلون الأوروبيون الذين تربوا في مساجد سعودية.
وفي تقرير عن الكتب المدرسيّة في اليمن تمّت كتابته بتكليف من حكومة صنعاء عام ٢٠٠٩م استخلص واضعو التقرير أنهم غالبًا ما يصوّرون «الآخر» -بكل وضوح، الّذي هو الغرب- كعدو غاشم، ويُصوّر دائمًا في صورة سلبيّة. وانتهت الدّراسة بجعل الحُجّة أن هذه الأوصاف هي رد على صورة الإسلام المشوهة في الغرب. وكذلك فإن نظرة خاطفة على الكتب المدرسيّة في الأردن تكشف أيضًا عن صورة مشابهة، حيث يظهر «الآخر» بدون استثناء على أنه النّقيض لمجتمعهم، والآخر يمثل كُلّ ما يرفضه المسلم وينأى بنفسه عنه، وفي الوقت الذي يتم فيه إبراز بعض الإنجازات الغربيّة التكنولوجية والعلمية، لا يوجد أي ذكر للدّيمقراطيّة والتنوير والجوانب الاجتماعية أو السياسية، حيث تضع الدّكتاتوريّة العربيّة جدارًا عاليًا آخر بين أبنائها والدّول الدّيمقراطيّة إذ ترفض هذه الديكتاتوريّات أن تتعامل مع الديمقراطيّات الغربيّة على أنها قدوة، حتى لا يطالب بها أبناء الشعب.

نفس التناقض ينطبق على محاولات إصلاح الخطاب الديني في مصر والمغرب. في كل سنة تقريبًا يطالب الرئيس السيسي الأزهر بتجديد الخطاب الديني، في حين تسجن الدولة الأصوات الإصلاحية المطالبة بإصلاح حقيقي وتنقية التراث مثل إسلام بحيري ومحمد عبد الله نصر وآخرين ممن يدلون

برأيهم في مسألة الإصلاح. ولا شك أن ملك المغرب لديه رغبة في إصلاح الخطاب الديني وطالب بالفعل بحذف آيات القرآن التي تدعو إلى العنف من المناهج الدراسية. لكن في المغرب نفسه تم منع كتاب الباحث رشيد أيلال "صحيح البخاري، نهاية أسطورة" الذي يوضح مأساة الخطاب الديني وتقديس السنة. ما يؤكد عدم تواجد نية حقيقية للإصلاح وأن الكل يسعى إلى إيجاد حل وسط بين الفاشية والحرية، لأن الحاكم يحتاج رجل الدين كي يضفي شرعية مقدسة على حكمه الفتقر للشرعية الديمقراطية. من جانب أخر يأتي الشعب مغيب وغير مدرب على الحوار والتفكير الحر ونقد الذات. ما يسهل على الحاكم أستخدام أسلحة كثيرة يبتز بها الشعب مثل: التجويع، الفوضى، الغرب الذي يتربص بدوائرالإسلام.

ومن الواضح أن هذه الأنظمة صارت محترفة في مجال تخريب التعليم فهذه الكتب المدرسيّة تعزز الأحكام المسبقة للمجتمعات العربية عن الغرب، وتأسس المقرّرات الدراسيّة للأفكارَ الّتي ترغب السُّلطة تشكيلها في أذهان الشعب. هم يستفيدون من هذه الحلقة المفرغة بالكامل، حتى إنّهم يقومون بانتقاء الأفكار لمواطنيهم لكن من نفس إناء الذاكرة الجمعية وإعادة تلقينه بطريقة تخدم السلطة. هذه الكتب المدرسيّة المذكورة أعلاه وغيرها من الكتب تقول الكثير عن الطريقة الّتي ينظر بها العالم الإسلامي إلى ثقافاته الخاصّة، كذلك عن العالم الّذي يأمل أن يتركه لأبنائه، كما تعكس حالة غضب وكراهية زرعتها العلاقات الإسلاميّة مع الغرب في وجدان أجيال كاملة.

بعيدًا حتى عن التّعليم المدرسي، يمتلك رجال الدّين السُّلطة في مساجدهم، فيتم استخدامهم مِن قِبل السُّلطة كأدوات لحماية مصالحهم الخاصّة حتى في الدّيكتاتوريات العربيّة المفترض أنها علمانيّة. ولذكر مثال واحد، كان جمال عبد النّاصر هو الرجل الّذي جعل من جامعة الأزهر في مصر أحد أهم مؤسّسات الدّولة، وقام هو شخصيًا بتعيين كُلّ من الأئمة الكبار منذ ذلك الحين، ووضع التّعليم والثّقافة والإعلام في يد السُّلطة، وكان التّعليم الدّيني للأطفال يستخدم كرافد للدعاية الحكوميّة.
في ضوء ما سبق وعند النظر إلى **الدّولة الإسلاميّة** (داعش) وحين تدّعي أنها استلمت أيديولوجيّتها من السّماء، فإننا نرى بالفعل العديد من مقاتليها تلقّوا مفاهيم الجهاد والخلافة لأوّل مرّة في المدارس في بلدانهم عبر تلك المناهج سالفة الذكر.
ومن العبث إنكار أن محاربة الإرهابيّين دون مهاجمة الأفكار الّتي جعلتهم يتصرفون بهذا الشّكل هي مضيعة للوقت: فبينما تنضم الدّول الغربيّة، بشكل مُضحك، مع دول مثل المملكة العربيّة السّعوديّة وقطر في حرب مفترضة ضد الإرهاب، نجد أن نفس هذه الدّول تنفق المليارات لنشر أفكار ورؤى دينية داعمة لتنظيم **الدّولة الإسلاميّة**. فيتسائل الإنسان السوي: إذا كان هؤلاء هم الحلفاء ما هو شكل الأعداء؟!

المعارضة في عصر جوجل

بعد خمسة قرون من اختراع جوتنبرج للمطبعة قدّم الغرب للعالم هديّة ثانية؛ اختراع من شأنه أن يُغيّر العالم بلا رجعة كما فعلت المطبعة. قدمت شبكة الإنترنت تحديًا لجميع الدّول

العازمة على إبقاء النّاس في الظلام، وإبعادهم تمامًا عن الفكر العالمي. وما يثير الدّهشة أن علماء المُسلِمين ثاروا ضد هذا الاختراع منذ البِداية تمامًا كما فعلوا مع اختراع جوتنبرج. فحذّروا من الأخطار الكامنة وراءه. إنما لحسن الحظ كان أداؤهم ضعيفًا هذه المرّة؛ إذ أن الشّباب المُسلِمين في يومنا هذا يقومون بتصفح الإنترنت لعدّة ساعات يوميًا، ويتناقشون في السّياسة والدّين، ويستمعون إلى الموسيقى الغربيّة ويُشاهدون المواد الإباحيّة والبرامج التي تنتقد الأديان.

أثر الإنترنت بطبيعة الحال في شباب المجتمعات الإسلامية وظهر الأثر على أخلاقهم وميولهم الفكريّة على حد سواء، فلم يعد الشّباب المُسلِمين اليوم مجبرين على تلقّي المعلومات من المعلّمين أو الباحثين وتقبُّلها بوصفها الحقيقة المطلقة، صار قطاع كبير منهم قادر على التّحقق من دقّتها والبحث في وجهات النّظر المعارضة.

أن جيل الفيسبوك هو الجيل الّذي خرج إلى شوارع مصر أكثر من مرّة لمعارضة (بل في الواقع لعزل) مبارك ومرسي، وكذلك الدّول الأخرى الّتي يحكمها الطغاة؛ مثل بن علي في تونس، وصالح في اليمن، والقذّافي في ليبيا، والأسد في سوريا. وإلى الآن ما زالت مظاهراتهم متواصلة في المنطقة، ويُعتبر أطفال الإنترنت "الجيل التالي" فضوليّين وذوي تفكير ناقد، ولم يعودوا على استعداد لتقبُّل أي سياج حول أفكارهم، ولا حتى حُرمة المرجعيّات الدّينيّة.

عام ٢٠١٢م تمت دعوتي لاجتماع للنقاش في القاهرة، وكان من بين الموجودين خبير بارز في الاقتصاد من جماعة الإخوان المُسلِمين أيضًا، وتحدّث عن خطط الجماعة في المجال الاقتصادي. قال هذا الخبير: «إن شاء الله، نأمل أن يتضاعف عدد السّياح الّذين يزورون مصر في السّنوات الخمس المقبلة». فقفز واحد من الشّباب الحاضرين فورًا على قدميْه، ورد بشكل حاسم: «أنا مسلم أيضًا، وأصلي خمس مرّات في اليوم، ولكن نحن نناقش الاقتصاد والسّياحة. ما دخل مشيئة الله بالأمر الّذي نناقشه؟ هل لديك مانع بأن تخبرنا شيئًا ملموسًا بالفعل عمّا تنوون القيام به وكيف ستنجزون هذه الخطط؟ قل لنا كم هي ميزانيتكم. أخبرنا أين ستقوم ببناء فنادق جديدة. ولأجل الله، رجاءً، اترك الله خارج النّقاش، لأنني لا أريد أن أسمعك وأنت تقول إن الله لم يشأ عندما تفشل الخطة الخاصّة بكم في وقت لاحق». كانت كلماته «اترك الله خارج النّقاش» مثل الصّاعقة، خُصوصًا من مسلم مؤمن، لكنها تعكس تأثير الانترنت على طريقة النقاش، ففي الماضي كان إمام المسجد والسياسي والمعلم في المدرسة يتحدثون من فوق لأسفل بلا مجال للنقاش مع المصلين أو الطلاب أو الشعب.

وبفضل الإنترنت تتم الآن مناقشة مفهوم العلمانيّة بشكل متوسع في العالم العربي. بالأمس القريب كانت العلمانيّة تعني الكُفر، لكن تجارب الشّعب المصري المريرة في ظل حكم الإخوان المُسلِمين في أعقاب انتخابات ٢٠١٢م، وتجربة داعش في العراق وسوريا كسرت الحظر على مناقشة الفصل بين الدّين والدّولة.

نتوقف هنا قليلا... فلربما مازال البعض يتسأل ما شأن المطبعة ووصولها إلى العالم العربي بالفاشيّة الإِسلاميّة؟ ويبح التساؤل ذا وجاهة إذا اشار إلى هتلر واعتلاءه منصة الحكم في ألمانيا ونشر النازية؟ في ضوء وجود المطبعة، بل أنه استخدمها لنشر خُطب الكراهية. وهذه الأشياء كلها حقيقيّة؛ فالفاشيّة الألمانيّة أظهرت مهارة هائلة في الاستفادة من المنجزات الحديثة، واستخدامها في النّهوض بأهدافها وتطوير أسلحة وادوا تعذيب جديدة من خلال مواكبة تطور التّكنولوجيا مع الزّمن.

لكن قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت أفكار التنوير منتشرة في ألمانيا وكانت جزءًا لا يتجزء من تعليمها، وبقيت هذه الأفكار كبوليصة تأمين ضد الدكتاتورية، فبعد انتهاء الحرب العالميّة الثّانية، عادت ألمانيا لأفكار التنوير وأسست دستورًا جديدًا يضمن الحريات ويفصل بين السلطات ويساوي بين كل أبناء الشعب أمام القانون.

على النّقيض من ذلك ففي العالم الإِسلامي، كان هناك معارضة طويلة الأجل للصحافة والطباعة، فضلًا عن الإنجازات الّتي تلت اكتشاف المطبعة ما عمَّق حالة عدم التّناسق بين العالميْن.

إن الولاء لمن هم في السُّلطة مهما كانت عيوبهم الشّخصيّة، والقرآن الّذي لا تُنتهك حرمته، والعلماء الّذين يدّعون امتلاك الحقيقة المطلقة، كل هذه الأشياء صارت من متطلّبات التّسلسل الهرمي الاجتماعي الّذي يرى العالم بالأبيض والأسود ويقوم بتقسيم العالم إلى أصدقاء وأعداء، مؤمن وكافر. يطمح الفاشيّون الإِسلاميّون اليوم إلى الحفاظ على مثل هذا التّسلسُل

الهرمي واقفًا على قدميْه، إلى جانب النّظرة الشمولية المتعجرفة. فبينما يقوم جيل جوجل بالاحتجاجات والجدل مع مُعلّميهم ومع الأئمة في المساجد غير مقتنعين بعد بأن القرآن يحمل جميع المعارف البشريّة، فإن الإسلاميين يقفون حرَّاسًا لمعبد الأمس وثقافة التّسلسل الهرمي.

ومع ذلك فالحراك الفيسبوكي واليوتيوبي المتزايد شيء وعمليّة خلق ثقافة ديمقراطية شئ آخر تمامًا، فالاحتجاجات والمظاهرات وخلع الحكام المستبدين كل هذا جزء واحد فقط من هذا الحراك الديمقراطي. أما بناء ثقافة سياسيّة وديمقراطيّة سليمة وتطبيق سياسات اقتصادية تأتي بالرخاء فمازال شيء آخر بعيد المنال. فهناك خمسة قرون من الفكر والمعرفة والخبرة بين عصرَي **جوتنبرج** و**زوكربيرج**، وفي هذه القرون قام العالم الإسلامي بعزل نفسه عن العالم. وتصفّح الإنترنت هنا أو هناك قد لا يكون كافيًا لتعويض هذه الفجوة الفكرية وهذه التجارب التي لم نخضها. ومع ذلك فقد يحقّق الانترنت بالفعل أكثر بكثير ممّا يحققه المدرس والداعية والإعلامي.

الفصل السّادس

«يحيا أسامة».. دُول فاشلة وإرهابيّون ناجحون

في عام ٢٠٠١م، قام بعض المُسلِمين حول العالم بالإشادة بهجمات ١١ سبتمبر لكونها «نصرًا مجيدًا للإِسلام». رأى البعض في غزوة مانهاتن «انتصارًا ظافرًا» أمام القُوّة العُظمى الأكثر عجرفة وغطرسة؛ الولايات المتحدة. وعلى النقيض، أدانت أقليّة قليلة تلك الهجمات. وفي الوقت نفسه، كانت الشكوك تنتاب فئة ثالثة؛ إذ كانوا غير متأكّدين ما إذا كان ينبغي أن يستنكروا هجمات ١١ سبتمبر أو أن ينظروا إليها بكل فخر. يا له من فصام قاتل!

في عام ٢٠٠٢م شارك فرانسيس فوكوياما، الأمريكي المتخصّص في علوم السّياسة، في كتابة مقال بعنوان «يحيا أسامة». في هذا المقال يستغرب فوكوياما مدى تأليه المُسلِمين لأسامة بن لادن، على الرّغم من فشله في حل ولو حتى مشكلة واحدة من مشاكل العالم الإسلامي. في واقع الأمر، بن لادن -نجل المقاول السعودي- لم يقم ببناء أي شيء بنفسه في العالم الإسلامي، إنما قام فقط بتنظيم عمليّة تدمير أبراج أمريكية في نيويورك. إنه لم يحارب الفقر ولا الرّكود الاقتصادي، ولا الأميّة ولا البطالة، وبكلمات أخرى هو لم يفعل شيئًا يستحق كل هذا التأييد العربي والإسلامي الجارف. وكان سؤال فوكوياما «ما الشّيء البُطولي في رجل كهذا؟» في الحقيقة، إن مجتمعات إسلاميّة كثيرة فاشلة اليوم إذ تواجه تحديات لا يمكنها التّغلب عليها. وكالعادة، فإن إلقاء اللوم على عدو وهمي أسهل من البحث عن طرق لحل مشاكل العالم الإسلامي التي لا تُحصى.

حَذّر فوكوياما في مقاله أنه، قريبًا جدًا، سوف يدفع المُسلِمون المؤيِّدون لأسامة بن لادن نفس الثّمن الّذي دفعه الألمان بعدما كانوا يمتدحون هتلر بهتافات مدوية بدون أي نقد أو تمحيص لأفكاره ومخططاته، وأوصل هتلر بلاده إلى حالة من الدّمار ضمن نصف العالم الذي دمرته الحرب قبل أن ينتحر هو بينما بقيت ألمانيا وكل أوروبا يدفعون الثمن لعقود طويلة من بعده.

هذا النمط يتكرر بكثرة من حين لآخر. في أوقات الأزمات والهزيمة تتزايدت مشاعر المرار والعجز، فيظهر ديماجوجيّون مثل هتلر وبن لادن، يحتاجون فقط لتحميس الاستياء الشّعبي وتأجيج نيرانَ الخوف والكراهية.. ثم يُقدّمون كبش الفداء المناسب مع كثير من نظريّة المؤامرة سابقة التجهيز، يصبح عندنا وهمًا شاملًا؛ فيفقد النّاس كُلّ ما لديهم من وعي، ثم يفقدون أوطانهم مثل ما حدث للأفغان والسوريين بعد أن هللوا للمجاهدين!

إن التركيز على التّهديدات المفترضة للأعداء الخارجيّين أو لفئات اجتماعيّة معيّنة يحول دون إيجاد حُلول حقيقية للمشاكل، بل تجلب الدولة لها وللمجتمع المزيد من المشكلات. فيحل الابتهاج بانهيار برجيْن في الجهة الأخرى من العالم محل الشّعور بالغضب من وجود ملايين الأطفال بلا مأوى في أوطانهم. تكثر المشاكل الخطيرة في الدّول العربيّة، وهي غالبا متراكمة ومعقدّة بما فيه الكفاية لدرجة أن أحدًا لا يعرف من أين يبدأ العلاج، لكنهم في المناهج والمساجد ووسائل الإعلام لا

يبحثون عن طرف الحل قدر ما يبحثون عن شبح العدو الوهمي.

استند بن لادن على ثلاثة مصادر أثناء صياغته خُرافة تنظيم القاعدة:
١. التناقض التّاريخي المُزمن في رُوح العالم الإسلامي.
٢. مسلّمة الحق الإسلامي في السيادة على العالم، الّذي يفتقر تمامًا إلى أي أساس له.
٣. سُلطة البترودولار العربي المزدهرة، كعلامة للثراء دون إنتاج.

كان محمد عطا والثّمانية عشر من زملائه الإرهابيّين أطفالًا ضمن جيل تربّى على «الالتزام الدّيني» في بلدانهم قبل أن يقعوا ضحيّة لإغراءات الحداثة، فبعد أن ذاقوا الثمرة المحرَّمة وجدوا أنفسهم مُثقلين بالذّنب، فكراهيتهم لأمريكا شديدة جدًا لدرجة أنه من أجل ضربها بقُوّة، كانوا على استعداد لتفجير أنفسهم مع عدد مهول من الأبرياء أثناء وجودهم «في السّماء» بكل ما في الكلمة من معنى.
كم من الوقت والمال والتّخطيط وأحلام اليقظة ذهبت مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وما الّذي جناه العالم الإسلامي منها؟ أو بالأحرى: كَم كانت شدّة النّتائج العكسيّة عليه؟
إن التّسعة عشر شابًا السّابق ذكرهم، تلقّوا جميعهم العلم في الغرب، وبدلًا من استغلال هذه الفرصة الكبيرة لتوسيع آفاقهم

الفكريّة ومعها حياتهم اليوميّة، استسلموا لإغراء التّطرُّف. ومع عدم وجود مفهوم لمعنى الحريّة، تمسّكوا بالدّين بشكل يائس، وقاموا بحماية أنفسهم من رياح التّغيير. وبعبارة أخرى، حفظوا أنفسهم بعيدًا عن الحداثة. هذه ظاهرة نعرفها من كل المتحولين في كل المجالات: الذي يتحول من دين لدين يكره دينه القديم ويبالغ في نقده، وغير المدخن المقلع عن التدخين لا يتسامح مع رائحة سيجارة بالقرب منه مثلما يفعل غير المدخن الذي لم يدخن من قبل. وبالمثل، فإنه يبدو على المرتدّين «والعائدين» للدين أنهم قليلو التسامح أحيانًا حتى مع خطاياهم الخاصّة، آملين في إخفاء كُلّ أثر لما فعلوه في ماضيهم "المُنحل"، غير قادرين على إيجاد الأخطاء في أنفسهم أو ثقافتهم، فقط يجدوها في أولئك الّذين يلعنوهم بمرارة لأنهم أضلّوهم!

هؤلاء الخاطفون المتورّطون في هجمات ١١ سبتمبر يمثلون جيلٍ مُحطّمٍ، فهُم مُمزّقون بين أمريْن: الانجذاب للحياة الغربيّة من جهة، والعيش في عالمٍ مغلق بإحكام من القرون الوسطى من جهة أخرى. إنه الجيل الّذي أنتج مُعظم المعلّمين والأئمة والمُفتين وأساتذة الجامعات الحاليّين في العالم الإسلامي. وعدد قليل فقط من هؤلاء القادة سيصبحون إرهابيّين فاعلين لكنهم يذهبون يوميًا إلى العمل، يضحكون مع أصدقائهم وزملائهم، يذهبون لمشاهدة الأفلام الغربيّة ويهتفون مُشجّعين لبرشلونة أو ليفربول، ويلبسون الجينز ويرقصون على أنغام الموسيقى، إلا أن العديد منهم يحمل فيروسًا كامنًا قابل دائمًا للنشاط، مُهدِدًا بالانتشار في أي وقت: هذا الفيروس يُعرف باسم الجهاد.

حرص الإسلاميّون المتشدِّدون أن يكون وجودهم واقعًا ملموسًا داخل كُلّ بلد مسلم. حيث عانى كُلّ مواطن في هذه البلاد بشكل أو أخر من الأعمال الإرهابية وعواقبها الاقتصادية والسياسية، فالإرهاب لا يسقط الحاكم أو يقلل من رفاهية قصوره، بل يزيد الحاكم تسلطًا باسم محاربة الإرهاب، ويزيد الشعب فقرًا وضيقًا. والأمر نفسه ينطبق على أوروبا وأفريقيا والأقليات المُسلِمة في آسيا. سواء كانوا قادمين من دول الخليج الغنيّة أو من شمال أفريقيا الفقيرة، من إندونيسيا أو نيجيريا، وسواء كانوا يعملون في الفلبين، أو الصّومال، أو ألمانيا، أو إسبانيا، أو إنجلترا يُعتبر الجهاد اليوم وباءً شرسًا ونشطًا يصيب أول ما يصيب الضعفاء والفقراء.
وفي كُلّ أنحاء العالم، يقوم جميع المُسلِمين الرّاديكاليّين بإظهار نفس العقليّة والقُدرة على ممارسة العُنف. ونتيجة لذلك، ولأن فيروس الجهاد يستمد قُوّته التّدميريّة من تعاليم الإسلام وتاريخه فإن الجهاد الإسلامي هو ظاهرة لا يُمكن فصلها إطلاقًا عن الإسلام نفسه. فالجهاد ليس من اختراع الإسلاميّون المُعاصرون، بل هو سُنة نبوية، وهناك العديد من الأحاديث النبوية تأكّد على شموليّة الإسلام وتُحرِض ضد الكُفّار، الأمر المذكور في القرآن نصًا وليس مجرد تأويل لسيد قطب وأبو الأعلى المودودي. وما لم يتم الاعتراف بالجُذور السّياسيّة والدينية الحقيقية للإرهاب لن يمكن لنا أن نحاربه بشكل فعّال.

جاءت ردود أفعال الفقهاء متفاوتة على أحداث سبتمبر. الشّيخ يوسف القرضاوي قام بتأليف مُجلد من١٤٠٠ صفحة بعنوان

«فقه الجهاد»: يُفسِّر فيه متى يكون الجهاد ضروريًا، ومن الّذي لديه الحق في أن يُعلن عنه، وتحت أي ظرف يمكن أن يفعل ذلك. وملخص هذا الكتاب الطويل هو أن منفذي الأعمال الإرهابية مخطئون لأن الحاكم وحده هو من له حق إعلان الجهاد. كما قام العديد من المثقفين العرب بنشر مقالات للتبرير ولإدانة الهجمات، متحدّثين عن الإسلام كدين للسلام وأن **القاعدة** لا تمثل الإسلام. وهي شبيهة بنفس المقالات التي نشرت مع ظهور توحش **داعش**. ونفس الشيء تكرر بعد مذبحة تشارلي إبدو في ٢٠١٥م، والأعمال الإرهابية في برلين ومانشستر وبروكسيل، حيث يعمل رجال الدّين بكل همّة ونشاط لتطهير صورة الإسلام عن طريق وصفه بأنه دين سلام.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت بعض الأصوات الإسلامية التي تربط بين خلل في فهم التراث وبين أعمال العنف، إلا أنه لم يجرؤ فقيه واحد حتى الآن على الإشارة إلى أنّ الشّريعة والجهاد قد يكونان مفهوميْن عفا عليهما الزّمن في القرن الحادي والعشرين. ولا يجرؤ فقيه واحد اليوم على الاعتراف علنًا بقِدم فيروس الجهاد هذا. فهو قديم قدم الإسلام نفسه ويأخذ شرعيته المباشرة من نصوص القرآن وسيرة الرسول والتاريخ الإسلامي كله.

إن المشكلة الّتي تواجه العالم اليوم ليست سوء فهم لمفهوم الجهاد، بل المشكلة هي الجهاد نفسه كما فَهِمه ومارَسه نبيُّ الإسلام وخلفاؤه. إن المشكلة تكمن في تقسيم القرآن للعالم إلى مؤمنين وكُفّار. المشكلة هي حُرمة انتقاد تصرُّفات النّبي وتعاليم

القرآن، وعدم قُدرة فقهاء المسلمين على التّحرُّر من تمجيد تراثهم وتنزيه النبي عن أي نقد باعتباره مثلًا أعلى للأخلاق ونموذجًا سياسيًا وتشريعيًا لجميع العصور. المشكلة هي الإيمان بالجهاد كغاية في حد ذاته، فهو صراع لا ينتهي بالحصول على مكسب سياسي معين، بل فريضة يجب أن يمارسها المسلم حتى نِهاية الزمان، لأنها أفضل فريضة يتقرب بها العبد المؤمن إلى ربه.

الفصل السّابع

(Pornotopia) جنة الإباحيّة.. الجهاد والجنس في الإسلام

يمكننا أن نقسم تاريخ الأديان بطريقة مبسطة إلى عصر الأديان الأرضية وعصر الأديان السماوية. في البداية كان الإنسان بدائيًا ونقيًا. كان يؤمن بما يرى وبما يفيده بصورة مباشرة. فكان يعبد الشمس والأشجار والأنهار والمرأة. المرأة كانت مرادفًا للطبيعة لأنها تهب الحياة وتحافظ عليها. كانت مرادفًا للأرض التي تعطي ولا تطلب. وظهرت عبادة المرأة في حضارات عديدة، فعبد اليابانيون **أماتيراسو** الذين كانوا يعتقدون أنها ولدت الشمس، وعبد المصريون **إيزيس** وعبد السومريون **عشتار**، وهكذا. وكانت الديانات الهندية القديمة تعتمد على تعدد الآلهة، فبما أن حياة الإنسان وسعادته وتعاسته كانت محصورة على الأرض فقط، ظهر إله لكل جانب من جوانب الحياة، فكان هناك إله للخير وإله للشر، وإله للحب وإله للخصوبة، وإله للسعادة، وآخر للحزن، وكان هذا يخلق نوعًا من التسامح، حيث لا يسود إله واحد لأن الإنسان يحتاج أكثر من إله حسب احتياجاته وحسب مخاوفه.
يختلف علماء التاريخ متى ظهر إله السماء ومتى بدأ التوحيد بالضبط، فبينما يذهب المؤرخ الألماني يان أسمان إلى أن اخناتون هو أول موحد في التاريخ وأن اليهود المصريين قاموا بتطوير فكرة التوحيد متأثرين بإخناتون، يقول هارالد شتروم إن التوحيد والديانات السماوية بدأت بالديانة الزرادشتية، لأنها أول ديانة فصلت بين الحياة الدنيوية والحياة الأبدية، وهي أول ديانة نقلت سعادة الإنسان لتكون مؤجلة للحياة بعد الموت.
وسواء كان اليهود أو الفرس هم أول من تحدثوا عن إله السماء، فقد أحدث ظهور الديانات السماوية تغييرًا جذريًا في

علاقة الإنسان بالأرض وبالتالي بالمرأة. فبعد أن كانت الأرض والمرأة مركزًا للحياة والعبادة والتقديس، خلق الرجال صورة إله على صورة الرجل: **يهوه** أو **أهورا مازدا** أو **الله**، إله متعالي جبار يعاقب ويدمر. وبعد أن كان الرجال يسجدون للأرض والمرأة، صار الرجال في الديانات الجديدة يريدون أن يحكموا الطبيعة ويسيطروا على المرأة فظهرت طقوس وقوانين جديدة تحد من حرية المرأة وتلعن الجنس، فظهر النقاب كأول مرة كمطلب ديني في اليهودية ثم قانون رجم الزانية، ثم طقوس الغسل من الجنابة. وبعد أن كان القدماء يقدسون الدورة الشهرية للمرأة ويعتبرونها رمزًا لدورة الحياة، أصبحت الديانات السماوية تعتبرها نجسًا يجب على الرجل أن يتجنب زوجته بسببه.

أخذ الإسلام من اليهودية فكرة قوامة الرجل على المرأة لكنه أبدع في تصوير المرأة على أنها خطر وعبء أخلاقي على الرجل، لكنه وقع في ازدواجية غريبة، حيث شيطن الجنس في الدنيا وجعله مكافئة للرجل المسلم في الآخرة، أما المرأة فتبقى في كلتا الحالتين خادمة للرجل وأحد وسائل الترفيه عنه. هي تحفزه على القتال في الدنيا حين يقول محمد لأصحابه "اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر" وتكون مرحاضًا جنسيًا في الجنة أيضًا حين يعد القرآن الرجل بحوريات ذات أثداء كبيرة.

في السّورة التّاسعة من مصحف عثمان يُقدم الله للمسلمين حافزًا قويًا للجهاد، حيث يقول إن الهدف الأسمى لحياة الإنسان هي الموت في سبيل الله: «**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ**

وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». "التوبة ١١١"

هنا يصبح التساؤل حول مواصفات الجنة التي اشترى الله بها أنفس المؤمنين أمر طبيعي في سياق بحثنًا، بالنظر للمواصفات مقدمة في أدبيات الإسلام المختفلة لما يعرف بـ"وصف الجنة"، يبدو من الوهلة الأولى إنه تمّ ألتقاط هذه المواصفات مباشرة من الأحلام المحمومة لقوم يعيشون في الصّحراء شديدة الحرارة في نهار الصيف وشديدة البرودة في ليل الشتاء، وتحديدًا للذكور منهم، فوعد الله أبناء الصحراء جنةً ذاتَ مناخ معتدل (**لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**). إنها حدائق مُظلّلة مليئة بالمقاعد المريحة (**الْأَرَائِكِ**)، وأنهار من الماء النّقي والخمر الّذي لا يسبّب السكر أو الصّداع، ثم يخصص وعوده للذكور دون غيرهم في الوعد الإلهي بتوفير عذارى يرتدين أثوابًا من حرير بالكاد يُغطي صدورهن الممتلئة (**كَوَاعِبَ أَتْرَابًا**)، وغلمان يقومون بتقديم فاكهة لا نِهاية لها، وأباريق من الخمر.
يحمل الإناث الجميلات اللواتي يقدم للمؤمنين في الجنة اسم **الحور العين**، وهن عذارى أبديات وصفهن القرآن بـ(**اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**). لكن يرى العالِم اللُغوي كريستوف لوكسنبرج أن هناك سوء فهم أو ترجمة خاطئة لمعنى «حور»، وهي كلمة مصدرها اللغة السّريانيّة-الآراميّة ومعناها «العنب الأبيض».
في كل الأحوال لم يكن القرآن نفسه دقيقا في تحديد عدد هذا العنب أو العذروات الّتي تنتظر الشّهداء في الجنة، ولكن عديد

الأحاديث النبويّة حسمت أنهن نساء وتقول إن العدد يصل إلى اثنتيْن وسبعين من الحور العين، كل حَوْرَاءٍ منهن تقوم بخدمتها سبعين من الجواري، بمجموع ٥٠٤٠ من النّساء لكل شهيد، وهذه المكافأة المعتبرة لمن يموت في معركته ضد الكفار، أضف لذلك أن مدة الجماع بين المؤمن والحَوْرَاء في المرة الواحدة هي سبعون سنة، إذا سوف يقضي المسلم الشهيد مئات الآلاف من السنين فقط لينام مع كل حورياته للمرة الأولى.

أطلق المفسّرون المُسلِمون العنان لخيالاتهم الخاصّة في الكتابة عن العذارى وما ينتظر شّهداء المُسلِمين من متع مثيرة، إن الأمور المكتوبة في كُتُبِهم عن موضوع الممارسة الجنسية في الجنة لا يمكن أبدًا أن يقوم أي روائي عربي اليوم بنشر مثلها دون تصنيفه أنه ينشر مواد إباحيّة. فيقول **جلال الدين السّيوطي،** في كتاب لا أستطيع ذكر إسمه خوفًا من الرقابة، إنه في كل مرّة ينام فيها لمسلم مع واحدة من الحور، تستعيد عذريتها بعد ذلك. ولن يضعف أبدًا قضيب أي رجل مسلم، وسوف يكون انتصابه دائمًا، ولسوف يكون نعيم الجماع سماويًا وحلوًا بشكل لانهائي. حيث يحصل كل مؤمن على سبعين من الحور العين بالإضافة لزوجاته في الدّنيا، وكل واحدة منهن لديها مهبل حلو مثل الثمرة الطازجة.
يندهش الكاتب والخبير في الإسلاميّات توماس ماول قائلًا: إن الخيالات الإسلاميّة عن الجنة لا تدور حول اتحاد الإنسان مع روح الله بل حول الجنس اللانهائي في بيت سماوي للدعارة، فتبدو الجاذبيّة الرّئيسيّة للجنة كأنها الانحلال الكامل وإشباع

للغريزة الجنسيّة للذكور، وكأنها اتفاقية مفادها أن يتنازل المسلم عن جميع المُتع الحياتية بوصفها محرمات على أن يكافئه الله بمكان في الجنة يعكف فيه على ممارسة ذات المتع المحرمة بلا توقف وإلى مالانهاية، فأين الحكمة في ذلك؟

وإذا نظرنا لوضع النّساء في هذا التصور للجنة، فإنهن لا يزلن أدوات جنسيّة للرجل، فلا فائدة لهن من الجنة سوى التخلص من أعباء الدّورة الشّهريّة والحمل والولادة. وهو تعديل في صلبه يضمن أنهن متوفّرات بشكل مستمر للذكور المتعطّشين للجنس في يوتوبيا إباحيّة خلقها الله لرجال قتلوا من أجله.

فُحولة محمد الأسطوريّة

كل أشكال الشّموليّة تحتوي على أدوار ثابتة بين الجنسيْن، الرّجال يعملون في الحقول/المصانع ويقومون بالدّفاع عن الأرض، أما النّساء فتُكرّس نفسها بإخلاص للعناية بالمنزل وإنجاب الأطفال وتربيتهم على الأهميّة العُظمى لحُب الملك والوطن. إن الجزء الأهم في الجنس هو التكاثر للحفاظ على عِرق الإنسان، كما في النازية، وهو واجب أساسي للوطن.
إما علاقة الإسلام بالحياة الجنسيّة فهي علاقة متناقضة جدًا. فلنتأمل العالم الإسلامي في عُصوره الوُسطى وصُور الحريم كاشفات النهود والخصيان والغلمان يرقصون رقصات جنسيّة صريحة؛ بالمقابل نرى العالم الإسلامي الآن والنّساء محجبات بل محجوبات عن مُعظم -إن لم يكن جميع- مجالات الحياة العامّة. ما يُشكّل تحديًا للمسلمين ليقرّروا ما إذا كانوا يمثّلون

دينًا متكرسًا للنزوات لا يفكّر إلا في الجنس أو يعتنقون دينًا زاهدًا يخاف من الجسد. والحقيقة الرّاسخة هي أن الإسلام لا ينظر إلى الجنس سوى من خلال عيون الرّجال.
وبين هذا وذاك يقف الشّباب المسلم الجائع جنسيًا، متأرجحًا بين غريزته تارة وتعاليم دينه الأخلاقية الصارمة تارة أخرى.
تبدأ مشكلة الإسلام مع النّساء والجنس مع رسول الإسلام الّذي تُوفيت والدته وهو ما زال طفلًا، ولم يعش معها أساسًا فترة طويلة حيث سلمته لمرضعة بعيدة في الصحراء فكان هذه عادة معروفة وقتها. وفي ٥٩٥م كانت المرأة الأولى التي تزوّجها محمد هي سيّدة تكبره بخمسة عشر سنة؛ **خديجة** الأرملة الثرية التي جعلت محمدًا شريكًا لها في عملها، وكانت بمثابة أكبر مُعلّمة له وأمًا بديلة في نفس الوقت، وبقيت خديجة زوجته الوحيدة إلى أن توفيت عام ٦١٩م. وبعد وفاة خديجة تحطم الحاجز الجنسي لمحمد. فبالإضافة إلى زوجته الثّانية سودة بنت زمعة، تزّوج عائشة ابنة التّاسعة. وإجمالًا تزوّج محمد إحدى عشرة امرأة بعد وفاة خديجة، هذا بخلاف الجواري وسبايا الحروب، ومعظم هذه الزيجات تمّ بعد أن صار له من العمر ٥٥ سنة، وهو السّن تقل فيه فحولة الرجل إلى حد ما.

قام المفسّرون الأوائل للإسلام برسم صورة لنبي الإسلام فحلًا قويًا جنسيًا، مدّعين أن لمحمد «قُوّة ثلاثين رجلًا»، وهي مبالغة نموذجيّة من كُتّاب السّيرة الذّاتيّة لمحمد بشكل عام، وهذا ليس من قبيل الصّدفة.

فخلال التّوسعات العسكريّة للإسلام، لم تنفصل شخصيّة الذّكر الفحل عن شخصية الجندي الجسور القادر على الحرب. لذا يمتلئ التراث الإسلامي بروايات كتبت -وقتها- من باب الفخر، فيذكر أنه بعد انتصار المسلمين على قبيلة بني قُريظة اليَهُوديّة، أمر النبي بقطع رأس كل رجلهم وآخذًا النّساء والفتيات سبايا. وعند تقسيم السبايا على المقاتلين، هكذا كان القانون الشرعي المتبع، طلب أحد جنود النّبي الإذن أن يأخذ سيدة معينة لتكون جارية له، قاصدًا بذلك صفيّة الجميلة، وحين سأل النبي عن من تكون أخبره صحابي آخر إنها ابنة زعيم القبيلة المهزومة، فما كان من النبي إلا أن اختار صفيّة لنفسه، وقام بممارسة الجنس معها في نفس اليوم الّذي قطع فيه رأس كل من والدها وزوجها وشقيقها، وهو أحد أنواع الجهاد، يمكن أن نسميه جهاد الأرحام، فقتل الرجال يعني قتل المقاتلين وسبي النساء هو احتلال للأرحام التي كانت بالأمس تلد أعداءًا لكنها من اليوم ستلد مسلمين. وهنا يأتي دور الجنس الإمبريالي التوسعي في نشر الإسلام.

إن روايات مثل هذه تجعل الاغتصاب عملًا عاديًا، بل وتكرمه وتعظّمه وتُضفي عليه الشّرعيّة. لذلك لا مفاجأة حين تروي فتاة أيزيدية -اختطفتها داعش- أن أحد أمراء الجماعة كان يغتصبها وهو يقول لها إنه يتقرب من الله بهذا العمل.

برغم المبالغة في فحولته، إلا أن موقف محمد الصّارم مع النّساء وحذره منهن قد يكون نتاج لغيرته وعدم شعوره بالثقة في نفسه. تتحدث الرّوايات عن أحد المواقف المُهمّة حين

أُتهمت عائشة، وكانت آنذاك في سن المراهقة، بالخيانة الزّوجيّة بعد أن اختفت في الطريق عندما أخذها محمد معه في إحدى غزواته. كان محمد مُسنًا في هذه المرحلة، وفي الصّباح تمّ العثور على عائشة برفقة رجل آخر. وقبل وصول محمد إلى المدينة المنوّرة، كانت هذه القصّة صارت حديث المدينة، وقيل إن محمدًا كان يشعر بحزنٍ شديد وبقى يبكي لعدّة أيام. فاقترح عليه علي بن أبي طالب أَن يطلقها، لكن محمد عرف أنه لو طرد عائشة بسبب خيانتها، سوف تنتشر الإشاعات التي تخدش كبرياء محمد قبل سُمعة عائشة. ما الّذي يجب القيام به إذًا؟ لحُسن الحظ، وصلت النّجدة من السماء: حيث جاء القرآن بعد شهر من الواقعة ليعلن في سورة النور أن الكُفّار قاموا بتلفيق الحكاية لتشويه صورة الرسول!

مع ذلك بقيت هذه القصّة البائسة عالقة بالأذهان، وعندما قامت زوجات محمد باتهام ماريا القبطية بممارسة الجنس مع عبد مصري، أمر محمد بقتل العبد فورًا. وقبل أن يتم تنفيذ هذا الحكم الخطير، قيل إن مُنفّذ الحكم (ابن عمه؛ علي، مرّة أخرى) اكتشف أن العبد كان عِنّينًا أى عاجزًا عن الجماع، فنجا من الموت. وبدأ محمد بمراقبة زوجاته بعناية أكثر، وقام بإدخال قوانين أكثر صرامة بالنّسبة للباسهن ولتفاعلهن الاجتماعي. هل من الممكن أن تكون التّقارير الّتي تتحدّث عن فحولة النّبي الجنسيّة هي لتبديد الشّكوك حول عجزه ومشكلته في تلبية رغبات زوجاته؟

أمر محمد زوجاته بالاحتجاب، سامحًا لهن بالتّحدث إلى الرّجال فقط مع وراء حجاب يفصل بين الفريقيْن. عاد محمد

إلى بيته في أحد الأيام ليجد اثنتيْن من زوجاته تتحدّثان مع رجل أعمى. انتابته حالة من الغضب العارم، وطالب بمعرفة السبب الّذي جعلهما تعصيان أمره في حجب نفسيهما. وعندما احتجّت إحدى زوجتيْه قائلة: «إنه أعمى»، أجاب محمد غاضبًا «أفعموايان أنتما؟!»

يقوم التراثيون اليوم بتصنيف حكايات مثل هذه بالرّومانسيّة، مُعتبرين أن زوجات النّبي بمثابة جواهر مكنونة يجب إخفاؤها، وأنهن قُدوة لجميع النّساء المُسلِمات، ومازال المُسلِمون المحافظون يبّررون الفصل بين الجنسين كوسيلة للحياة «وفقًا لتعاليم النّبي» ولا يخطر على بال أحد أن هذه التعاليم قد تكون نابعة من عقدة نقص عند محمد وخوفه من أن تخونه أو تتركه النساء. ذلك الخوف الذي يمكن أن تبرره طفولته التي تركته أمه مرة لامرأة غريبة ثم ماتت وتركته إلى الأبد. وعقدة أخرى سببها الغيرة لأن اثنين من نسائه تم اتهامهما بالزنا.

بالطبع لم يخترع محمد عادة اتخاذ النّساء كغنائم حرب، فسبقته لذلك قبائل وأمم أخرى. ولم تعتبر هذه الممارسة جريمة حرب إلا في العصر الحديث. بيد أن الإسلاميّين المتشدّدين ما زالوا مُتمسكين بها باعتبارها سُنة فعلية، ومُعتبرين أنفسهم حُراسًا على هذه السُنة وغيرها من التقاليد الإسلاميّة، فنراهم يهاجمون القُرى المسيحيّة والأيزيديّة في سوريا والعراق ويغتصبون النّساء "الكافرات"، بل أحيانا يتركوهن حوامل باسم النّضال الإلهي.

بشكل عام فأن تصريحات محمد الخاصّة بالنّساء يمكن وصفها على أقل تقدير بالمتناقضة، والكثير منها أسفر عن حُدوث توتُّرات بين أصغر زوجاته عائشة من جهة وبقيّة زوجاته اللاتي يعشن في نفس المنزل من جهة ثانية. ففي بعض الأحاديث ينصح محمد أصحابه بزواج البكر (لم يكن من بين جميع زوجاته أي عذراء سوى عائشة فقط)، وعلى جانب أخر تنسب له أحاديث عن فضل الزواج من المرأة الثيب "سبق لها الزواج". وفي مناسبة أخرى أعلن محمد أنه نظر في جهنم فوجد أن معظم أهلها من النساء. في حين أنه أيضًا من قال لأتباعه: أوصيكم بالنساء خيرًا، وخيركم خيركم لأهله، وأن الجنة تحت أقدام الأمهات.
وهنا يكمن الخطر في تعاليم الإسلام ونظرته للمرأة، لأنها لا تشيطن المرأة على طول الخط ولا تقدسها على طول الخط، بل ترسل للمسلم رسائل متضاربة ومتناقضة تجعله لا يعرف كيف يتصرف معها بالظبط. ونفس الشيء ينطبق على علاقة المسلم بالمسيحي واليهودي، فبعض الآيات تقول لا ينهاكم الله عن الذين لم يحاربوكم في الدين، وبعضها يقول لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وأخرى تقول قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

يدّعي المسلمون أن محمد هو أوّل من منح نساءَ العرب الحقَ في الإرث، وأن النساء قبل الإسلام كانت تنتقل مع الرّجال مثل الإثاث، وأنه من أكّد على حُقوقهن في أملاكهن الخاصّة وتجارتهن وأفاد أن الرّجال والنّساء متساوون في نظر الله.

وبالطبع كل هذا كلام جميل. لكن هل حقا كان الأمر كذلك؟ بالبداهة وطبقا للتاريخ الإسلامي نفسه فأن هذا الإدعاء باطل تمامًا. وإلا فمن سمح لخديجة قبل الإسلام أن ترث كل تلك الأموال من زوجها الأول وأن تصبح تاجرة وسيدة قومها، قبل أن تستأجر النبي ليعمل في مالها ومن بعدها أن تطلب هي يده بنفسها وتتزوجه رغم رفض أبيها؟
نفس الشيء ينطبق على أسطورة وأد العرب للبنات التي أنهاها محمد. فلو كان العرب يقتلون بناتهم، فمن أين أتت كل هؤلاء النساء اللاتي تزوجهن محمد وأصحابه وسبوهن في غزواتهم داخل شبه الجزيرة. بل كيف لم ينقرض العرب أصلًا؟

التمييز بين الجنسيْن والتّقديس الأعمى للعُذريّة

إن الأخلاقيات الجنسيّة في الإسلام وعدم الثّقة في النّساء هي موروثات يَهُوديّة. وبشكل أكثر تحديدًا، تحريم ممارسة الجنس خارج نطاق الزّواج وتقاليد رجم الزّناة كلها أمور يَهُوديّة. لكن التمجيد المفرط للعذرية أصبح مُكثفًا أكثر فقط في ظل الإِسلام، وظلت هذه النظرة تسيطر على أذهان المسلمين حتى الآن.
تاريخيًا، كانت النّساء تُمارس العلاقات الجنسيّة المتعدّدة، وبذلك لم يكن هناك وسيلة لمعرفة من هم آباء أطفالهن. وفقًا لذلك، فإن الإِسلام يُجرّم مُمارسة الجنس خارج نطاق الزّواج للحفاظ على سلالة كل أسرة، وهذه تقاليد عربية قديمة لأن العرب يتفاخرون بأنسابهم وبنظافة عروقهم. إلا أن الأب في الإِسلام هو أكثر من مجرد رب أسرة، فهو يحمل مسؤوليّة

تسليم الإيمان إلى أولاده (في اليَهُوديّة، على النّقيض من ذلك، الأم هي من تحدّد دين طفلها).
التوحيد بصفة عامة قام بتأميم الجنس واحتكاره عن طريق وضعه في إطار أخلاقي صارم، وبالتالي تأميم جسد المرأة ورحمها واحتكاره من قبل الرجل. في الإسلام تبقى الزّوجة معزولة وحياتها تحت الحراسة، ولا يرمز الحجاب فقط إلى عدم ثقة المجتمع في النّساء حين يخرجن من بيوتهن، لكن أيضًا إلى عدم ثقة أزواجهن بهن. وهو ما صرح به **الشعراوي** صراحة بقوله أن «المرأة غير المحجبة يحق لزوجها أن يشك في بنوة أطفاله منها».

إن الفصل بين الجنسيْن والتّقديس الأعمى للعذريّة لها أسباب أخرى غير المحافظة على السّلالة، فكما يوضّح توماس ماول في كتابه **الجنس والجهاد والاستبداد**، مسترشدًا بدراسة حول قانون العقوبات لجمهوريّة إيران الإسلاميّة يثبت أن عذريّة المرأة لها قيمة أكثر من حياتها.
فالإسلام يحتوي على مفهوم **الدّيّة**، وهو **مال الدّم** الّذي يُدفع لضحايا الإصابات الخطيرة أو لأسر ضحايا القتل من قِبل الجاني. وكما يُسمح للمرأة بأن ترث فقط نصف المبلغ الّذي يرثه الرّجل، فإن **دية** المرأة هي أيضًا نصف **ديّة** للرجل إذا قُتِلا. أما في حالات الإصابة البدنيّة، تُصبح الحسابات أكثر تشويقًا: فالمادة ٢٩٧ من قانون العقوبات الإيراني تحدّد الغرامة بتهمة قتل الرّجل بمائة من الإبل، ووضع المُشرِّع نفس القيمة على خصيتيه، الخصيّة اليسار ٦٦,٦ من الإبل، والخصيّة

اليمين ٣٣,٣، وهو تباين عجيب لنفس الجهاز عند نفس الإنسان.. لكن مع الشّريعة نكتشف أن الخصيّة الأولى مسؤولة عن إنتاج الصّبيّة والأخرى مسؤولة عن إنتاج البنات. ليصبح طبقًا لهذا القانون **دية** خصيّة الرّجل اليسرى أكبر من **دية** حياة المرأة، والّتي تُقيّم فقط بخمسين من الإبل. أما إذا فُضّ غشاء بكارة امرأة بعُنف، فإن غشاء بكارتها له **ديّة** أغلى من حياة المرأة معتدى عليها ذاتها وذلك وفقًا للمادة ٤٤١، وجدير بالذكر أن فكرة المهر الّذي تطلبه المرأة عند الزّواج هو بمثابة ضريبة أو تعويض عن عذريتها.. فنجد أن الزواج من بكر يكلف شرعا أكثر من الزواج من أمرأة سبق لها الزواج، ويتم تعريف الفروق عبر الإشارة للعذراء بـ **البكر** وغير العذراء بـ **الثيب**.

في إيران أيضًا يتم رجم النّساء حتى الموت إذا قُمن بممارسة الجنس مع الرّجال الّذين يُحبّونهم دون عقد زواج. بينما إذا قدّمت المرأة نفسها لرجل جديد كل أسبوع في مقابل عقد زواج متعة، تظل في هذه الحالة امرأة شيعيّة ورِعة وتقيّة في نظر قوانين الزّواج الدّينيّة الّتي تسمح بفعل هذا بحريّة، كما تسمح للرجال بالذّهاب إلى الفراش مع نساء كثيرات كل يوم دون انتهاك لحُدود الإسلام.

إن منهج الزّواج في الإسلام ليس له أي علاقة بالحُب، بل على العكس من ذلك، حيث تعتبر هذه المؤسّسة بمثابة ترتيبات تعاقديّة بين رجل وامرأة، تخوّل لكل منهما حقوقًا ومسؤوليات معيّنة يتم تحديدها وتنفيذها تحت إشراف الدّولة. إن الهدف الوحيد من أي زواج هو نشر الإسلام، وأي علاقة تُقاوَم أو

تحاول التملُّص من سيطرة الدّولة تعتبر تهديدًا ويتم معاقبتها بدون تردُّد. هكذا نرى الاعتداءات بماء النّار على النساء غير المحجبات، وتشويه أعضائهن التّناسليّة بالختان، وجرائم الشّرف والرّجم كلها موجودة جنبًا إلى جنب مع الزّواج بمثابة أمور تعبّر عن الضّغينة ضد النّساء وأجسادهن في المجتمعات الإسلاميّة عبر التّاريخ، فخوف المجتمعات الإسلاميّة من الخيانة في حالة استقلاليّة الإناث لا يختلف كثيرًا عن خوفها من مشاعر المرأة وثقتها بنفسها. الإسلام يعشق المرأة الضعيفة المنكسرة المنكرة لذاتها والمتكرسة لزوجها وللأمة. إنه يشبه كثيرًا الكابوس الأسوأ للفاشيّة حينما يقوم أعداء الأمة بالهجوم أثناء النّوم. إنهم يجعلون من الخوف فضيلة.

إن مُواجهة واقع الحياة في العالم الإسلامي اليوم يعني مُواجهة قدر كبير من البؤس، فضلًا عن ازدواجيّة المعايير الأخلاقيّة في كل أمور الجنس. ليس هناك مكان في العالم تتم فيه عمليّة إعادة ترميم غشاء البكارة على نطاق واسع أكثر من الدّول الإسلاميّة، وهو أمرٌ معروف ومنتشر بشكل شائع ولكن قلّة من المسلمين من هم على استعداد للاعتراف به. والبلدان الّتي يعتبر فيها الجنس وصمة عار؛ الدّول الأكثر تطرُّفًا كأفغانستان وإيران ومصر، هي نفس البلدان التي انتشرت فيها ظاهرة الحجاب والنقاب بشكل ملفت، وهي نفس البلدان التي وصلت فيها نسبة التّحرش بالنّساء في الشّوارع إلى مستويات لا تُحتمل، ولكي تكتمل الدائرة يقوم الإسلاميّون بجذب الشّباب إلى الانضمام إلى الصّراع السّوري مع وعود بجهاد النكاح وسبي الأيزيديات والنصرانيات.

إن الفتيات المُسلِمات من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومن شمال أفريقيا خاصّة، يقُمن ببيع أنفسهن للجهاديّين في مناطق الحرب في سوريا، في حين يقوم علماء الدّين السّنة بالتّبشير عن هذا الجهاد الجنسي مُستشهدين بالنّبي نفسه، الّذي سمح للجنود «بالزّيجات قصيرة الأجل» كوسيلة للتنفيس عن الكبت الجنسي خلال الحملات العسكرية الطويلة. وثابت من الأحاديث النبوية أن محمد كان يحفز جنوده على القتال بقولة "أغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر!". وسعيًا لتحقيق هدف أسمى ألا وهو الجهاد، وقدوة بالرسول الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق، يقوم الإسلاميّون بتعليق إيمانهم بتحريم مُمارسة الجنس خارج إطار الزّواج، ويقومون بتحفيز الجنود من خلال الوعد الدنيوي بالنّساء وكذلك الحلم بالجنة المليئة بالممارسات الجنسية.

الفصل الثّامن

القنبلة الإِسلاميّة والفاشيّة الشّيعيّة

ليلتان من التّسكع في المقاهي والحانات والنّوادي الدّاخليّة لمدينة بيروت. تكاد هاتان الليلتان أن تكونا كافيتيْن لتجعلني أصدق أن أنماط الحياة الغربيّة هيمنت على لبنان، وأن المفاهيم الأوروبيّة للحريّة أخيرًا أصبحت حقيقة ملموسة في العالم العربي، لكنها كانت فقط القشرة.
في ثالث أيامي بالمدينة توجّهتُ صوب الضّاحية الجنوبيّة، وخلال عشر دقائق بسيارة الأجرة تغيّر المشهد بشكل جذري. لا توجد امرأة واحدة في الشّوارع بدون حجاب، صُور الجنود الّذين استشهدوا في الصّراعات اللبنانيّة مع إسرائيل تغطي أغلب الجدران الخارجيّة. تحت الصّور كلمات تمكّنتُ مثل: لن ننسى أبدًا. حالة تغير مجتمعي تشي أن جنوب بيروت هو دولة داخل الدولة، إنها دولة **حزب الله**.

مرت السيارة الأجرة الّتي كنت أركبها بين مخيمات الأمم المتّحدة حيث يعيش الفلسطينيّون الّذي وُلدوا في لبنان والّذين عاشوا كلّ حياتهم كلاجئين، مُتوقّعين العودة إلى بلادهم يومًا ما، فهم لا يملكون الحق في الحُصول على الجنسيّة اللبنانيّة، ما يمنعهم من الحُصول على مُعظم فرص العمل في البلاد. بينما في أوروبا وكندا والولايات المتحدة يعيش الفلسطينيّون حياة مختلفة تمامًا فمنهم الأطباء والمحامون ورجال الأعمال، وأصبحوا مواطنين بالتجنُّس في أوطانهم الجديدة حتى في إسرائيل لدى المواطنين من أصل فلسطيني مقاعدَ في الكنيست. هؤلاء المنفيّون يتوارثون الشتات ويلهثون خلف المنفي، حتى صار الضياع هو هويتهم. في الغرب ينجح الفلسطينيون

ويحصلون على جنسيات البلاد المتقدمة، لكنهم يورثون لأبنائهم ذكريات الانكسار وأفكار المقاومة. أما الدّول العربيّة فتعامل الفلسطينيّين بتمييز بدلًا من مساعدتهم على الحُصول على الجنسيّة السّعوديّة أو الكويتيّة أو اللبنانيّة، فحسب المسؤولين العرب والعديد من السياسيين المستقلين فأن توطين الفلسطينيين يضر بالقضيّة الفلسطينيّة ويقوض حق العودة.

في لبنان أحد الحركات السياسيّة القليلة الناجحة في تحقيق الأفكار الأساسيّة للفاشيّة إلى حد بعيد.. مثل **حزب الله،** فقمصانهم السّوداء ليست مُجرّد زي لميليشيا بل لشرطة مسلّحة في دولةٍ داخل الدولة. ودعائم الفاشية هناك هي فكرة المقاومة الأبدية حتى بعد تحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي، لكن قائد الحزب وأمينه العام، **حسن نصر الله،** مثله مثل أي الفاشي لا يسمح للمعركة أن تنتهي، فهي المبرر الرئيسي لبقائه في السلطة، واذكر أني قرأت جملة (المقاومة شرف الأمة) على لافتة بين لوحات كثيرة تضم صورة **الخميني** و**نصر الله**.
أن المعادة التاريخية لليهود مع الولاء الأعمى لقائد واحد والاستعداد التّام للحرب واحتماليّة الاستشهاد جعلت كوادر الحزب ومريدينه ينضوون تحت راية الحزب ومرددين خطابه بلا تفكير ولا تأمل لأبسط القواعد والتفاصيل، حتى أن التّحيّة النّازيّة الشهيرة هي أحد سمات العروض العسكريّة لحزب الله.

حزب الله وحماس

مُستوحيًا من الثّورة الإسلاميّة في إيران ١٩٧٩م، قام رجل الدّين الشّيعي محمد حسين فضل الله وغيره من الشّيوخ باستيراد مفهوم «ولاية الفقيه» إلى لبنان. وعلى شكل الحرس الثّوري الإيراني، تشكّلت الميليشيات الشّيعيّة في جنوب لبنان، وبطبيعة الحال عندما قامت القوات الإسرائيليّة بغزو الجنوب اللبناني توسعوا على صعيد "التمكين" العسكري، هذا قبل أن يطلق آية الله الخوميني، المرجعية الدينية للحزب، فتوى تشرعن لحزب الله التّدخل في الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

وكما قامت القُوّات الخاصّة بالخوميني بتنفيذ عمليات انتحاريّة خلال حربه ضد العراق، قام حزب الله بتنفيذ أوّل تفجيرات انتحاريّة مُسلمة ناجحة ضد أهدافًا غربيّة. في ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣م، قادت عناصر **حزب الله** شاحنتيْن تحملان مواد شديدة الانفجار داخل قاعدة أمريكيّة في بيروت -تم إنشائها بعد اندلاع الحرب الأهليّة- وقام مقاتلا الحزب بتفجير الشّاحنتيْن بينما كانا ما زالا بداخلهما، ما أسفر عن مقتل ٣٠٥ شخص، ٢٤١ من مشاة البحريّة الأمريكيّة، و٥٨ من المظلّيّين الفرنسيّين وستّة مدنيّين. جاء ذلك الهُجوم مُلهِمًا للإِسلاميّين في أنحاء العالم، ليس فقط بسبب قوته التدميرية أو الخسائر التي سببها، لكن لأنه في أعقاب ذلك، انسحبت القوات الأمريكية من لبنان.

وبقدر ما كان انتصارًا لنظام الملالي الإيراني، الّذي كان يرى أن أميركا هي الشّيطان بعينه، كان النصر أعظم وأهم بالنسبة

للمليشية الوليدة.. **حزب الله**، الّذي صار نجم المقاومة في العالم العربي.. فقد «هزم أمريكا».

وما هي إلا سنوات وظهرت **حماس** داخل فلسطين المحتلة، ونجحت ليس فقط في مُحاكاة بِنية حزب الله وأيديولوجيته الفاشيّة، لكن في الأهم.. وهو محاكاة تكتيكاته. وصار في جميع أنحاء العالم الإِسلامي الانتحار عملًا سياسيًا، وعن طريقه أثبت الإِسلاميّون قُدرتهم على العُنف والكراهية باستهداف مترو أنفاق لندن، والسّياح في الأقصر وشرم الشّيخ، والحانات في جزيرة بالي وحافلات تل أبيب والسّفارات الغربيّة في كينيا وتنزانيا والمعبد اليَهُودي في جزيرة جربة التّونسيّة ومركز التّجارة العالمي في نيويورك والبنتاجون في واشنطن.... إلخ الآلاف الهجمات تمّ تنفيذها في شتى بقاع الأرض ودائمًا المُسلِمون هم أوّل الضّحايا.

إيران ليست فقط المرجعية الفقهية لحزب الله؛ فالحزب يعتمد بشكل أساسي على الدّعم العسكري الآتي من الجمهوريّة الإِسلاميّة ويعتمد كذلك على دعمها المالي. حتى يمكن القول أن حسن نصر الله هو زعيم لأحد أذراع جمهوريّة إيران، ومنذ عام ١٩٩٢م انتزع عدد من أعضاء **حزب الله** المقاعد في البرلمان اللبناني. ثم جاء تغير الخريطة السكانية في لبنان ليزيد من سيطرة الحزب، حيث كان في الماضي عدد المسيحيين يفوق المسلمين، أما الآن فالمسلمين هم الأكثرية. كما أن المجموعات الشّيعيّة لم تعد هي الوحيدة الّتي تقدّر قيمة حزب

الله، فهناك دروز ومسيحيون يناصرونه خوفًا من نمو النفوذ السعودي "السُني" من الجانب الآخر.
وحزب الله ليس محبوبًا فقط في لبنان لكن أيضًا بين المهاجرين العرب في أوروبا والولايات المتحدة، ويرجع الفضل في ذلك إلى قناة المنار الفضائيّة الّتي تصل إلى جميع أنحاء العالم.
بفضل هذه القناة وعندما اندلعت الصّراعات العسكريّة بين لبنان وإسرائيل -في العقد الماضي- كسب الحزب تعاطف وشعبية كبيرتين، حتى صار لحزب الله قاعدة دعم كبيرة خارج الشرق الأوسط. وكان لإجباره القوات الإسرائيليّة على التّراجع في الجنوب الأثر الكبير، فمنذ ذلك الحين يعد **حزب الله** هو حارس لبنان الرّئيسي. بل أن كثيرين من المحسوبين على النخبة والمثقفة العربية يرون في **حزب الله** "حتى الآن" رمزًا للمقاومة.

سنة ٢٠٠٨م أراد قادة الحزب الرد على منعهم من إنشاء شبكة اتصالات خاصة بهم، فنظم الحزب مسيرات ضخمة لأعضاءه بأزيائهم السّوداء في شوارع العاصمة -خاصة وسط بيروت- مُهددين المدينة كلها بالاحتلال. ما أدى لتراجع نسبي في شعبية الحزب، خاصة في الداخل اللبناني، حيث قام النّاخبون بمعاقب الحزب من خلال صناديق الاقتراع في الانتخابات الّتي أعقبت ذلك.. متجنبين بذلك الصدام المباشر.

بالعودة إلى رحلتي إلى لبنان فإنه في نفس المتفق عليه للتحدُّث مع أحد مسؤولي الحزب، طلب مني ضيف آخر، أكثر أهميّة، مقابلته في أقرب وقت. فكانت المقابلة مع الفقيه الشّيعي الرّاحل هاني فحص، أحد أكثر الأشخاص المعروفين في لبنان والأكثر إثارة للجدل قبل وفاته في عام ٢٠١٤م.

حين كان رجل دين شابًا في بيروت، كان **فحص** صديقًا شخصيًا لياسر عرفات خلال تواجد منظمة التّحرير الفلسطينيّة في بيروت قبل أحداث أيلول الأسود. قال لي فحص عندما التقينا «أن عرفات شخص نرجسي بشكل كبير، وعادة ما يحاول تصحيح الخطأ بخطأ أسوأ بكثير». كان فحص يقوم بتدقيق رسالة عرفات الأولى لآية الله الخوميني، ويقوم بصقل صياغته للرسالة وتوصيلها شخصيًا للخميني في مدينة النّجف العراقيّة أثناء نفيه من إيران.
عام ١٩٧٨م، التقى فحص بالخوميني في باريس، ثم لحقه إلى طهران بعد الثّورة الإسلاميّة. إلا أنه لم يكن مُقدّرًا له أن يكون جيفارا الإسلام. فلم يهتم بالالتحاق أو الالتصاق بنظام الملالي، إنما تركز نظره على أعداد جرحى الثّورة من الأطفال وما حدث للبلاد عموما، ترك الرجل إيران وعاد إلى بيروت خائب الأمل.. غير مؤمن بأي ثورة شعبية لا تسبقها حركة تنوير فهي ستفضي، في رأيه، للأسوء أو إعادة إنتاج القديم في أفضل الأحوال.

في أوّل لقاء لنا، كان فحص يجلس مُرتاحًا في غرفة معيشته، والجدار وراءه مُغطّى بصُور له مع الخوميني وعرفات وغيرهم من السّياسيّين في الشّرق الأوسط، ومن بينهم صورة الرّئيس الإيراني السّابق أحمدي نجاد يحتضن في الصّورة الأم المنكوبة على ابنها رئيس الوزراء الفنزويلي هوجو شافيز. حتمًا لاحظ فحص نظرتي المطوّلة، لأنه علّق قائلًا «أحمدي نجاد يُظهر فشل الثّورة الإسلاميّة، هذه الصّورة مثلًا تبيّن أزدواجية الثّيوقراطيّة في إيران.. وإنها مُجرّد خدعة. إن الملالي هناك يقومون بمعاقبة النّساء اللواتي قد يتحرّك حجابهن قليلًا، في الوقت نفسه، يقوم رئيس الدّولة بمعانقة النّساء اللاتي لا يرتدين الحجاب». الْتَوَت زوايا فمه، واستطرد «صورة لطيفة، في الواقع»، ثم أشار إلى نجاد قائلًا: «لكن هذا الغبي أفسدها».

وعندما التقينا في وقت لاحق جاءت وجهة نظر هذا الفقيه صريحة تمامًا فيما يخص **حزب الله** «إنهم أكثر فاشيّة من الفاشيّة نفسها. أيدولوجيتهم، والهيكل بكامله، منقول بالكامل من الفاشيّة. اسمح لي أن أقول إن الّذي يفعله حزب الله في سوريا هو الفاشيّة وهي ما تزال تمر بمرحلة المراهقة. لقد تحوّل حزب الله إلى قاتل من أجل الأسد. يصعُب على أي حزب ألا يكون مُستبدًا إذا تأسّس على الدّين، ولكنهم يرتكبون ذنبًا آخرًا كذلك، إنهم يخدمون سيديْن؛ واحدًا في إيران وواحدًا في سوريا. وهذا من أجل مصلحتهم، وليس من أجل مصلحة لبنان».

سألتُ **فحص** ما إذا كان يعتقد أن الثّورة الإسلاميّة كانت فاشيّة. مرّة أخرى، جاهد لكي يكون أكثر وضوحًا. قال: «كل ثورة لديها هامش فاشي في البِداية. وهذا أمر لا يمكن تجنُّبه. لكن الثّورة الّتي تتحصن بكلام الله وتدّعي أنها تنفذ مشيئته هي الفاشيّة بعينها. فيصبح القتلة ينفذون قدر الله، ويصير ضّحايهم هم أعداء الله. وتقام عمليات الإعدام يوميًا كالطقوس الدّينيّة!»

قبل وفاته قال **فحص**، إن نظام الخميني أختطف الشعب الإيرياني، قام بتضييق المجال عام لأول مرّة متحججا بالحرب العسكرية مع العراق، وبعد نهاية حرب جدد حججه تلك المرة بالحرب الإيديولوجيّة ضد الغرب. أضاف **فحص** إنه يعتقد أن كلًا من التدين الصارم ومفهوم **الحاكمية** في المجتمعات السّنيّة والشّيعيّة، تسبّبا في جعل العالم الإسلامي عاجزًا على مستوى السياسة وجافًا وفارغًا على المستوى الروحانيّ.

الفاشيّة مذهب الدّولة

تعد إيران أوّل دولة إسلاميّة في العصر الحديث تعتمد الفاشيّة بنسختها الحديثة. ولأكثر من خمسة وثلاثين عامًا كانت المبادئ الإسلاميّة الفاشيّة هي دعائم الجمهوريّة الإسلاميّة، مثل إعدام مُنتقدي النّظام، والمُراقبة الكاملة للسُّكان، واضطهاد المرأة. وبالطبع تأتي معاداة السّاميّة بشراسة كجزء من هوية الدولة.
جاءت الثّورة الإسلاميّة في إيران عام ١٩٧٩م لتترك أثر كبير في منطقة الشّرق الأوسط وأماكن أخرى، كما أشعلت فتيل حرب الخليج الأولى (إيران-العراق)، وأطلقت العنان للحرب

في أفغانستان، الحرب الّتي مازال تأثيرُها على السّياسة العالميّة قاتلًا حتى اليوم، كما أنها "الثورة الإسلامية" ساهمت في سكب الزيت على النار في الحرب الأهليّة اللبنانيّة أيضًا، حيث قام المتطرِّفون اللبنانييون بتقليد نظرائهم الإيرانيون. وعزّزت الثّورة الإيرانيّة ثقة الإسلاميّين في جميع أنحاء العالم، حتى بين أهل السّنة، وأصبح الحكم الثّيوقراطي واقعًا سياسيًا للمرّة الأولى في التّاريخ الحديث.
ثم اندلعت الاحتجاجات ضد الشّاه محمد رضا بهلوي لأسباب مختلفة، لا يمكن لكتاب في حجم هذا أن يسرد تفاصيل تلك الفترة كلها، لكن بالتّأكيد، لعبت العوامل الاجتماعيّة بالإضافة إلى الدّين وأبعاده، دورًا رئيسيًا. وتبقى الحقيقة: إنه لم تكن هناك أسباب كلاسيكيّة للثورة مثل الفقر المدقع أو الهزيمة العسكريّة السّاحقة. كانت الثّورة الإسلاميّة انتفاضة طلبة أكثر منها تمرّدًا من الفلاحين، كانت ثورة بسبب السّخط من دكتاتورية الشّاه. لقد تحدّثت منظمة العفو الدولية عن الآلاف من السّجناء السّياسيّين من اليسار ومن الإسلاميّين على حد سواء قبل الثورة. ومع ذلك ففي النّهاية ضغط الرّئيس الأمريكي المنتخب حديثًا جيمي كارتر على حليفه الشّاه لتحرير مئات السّجناء والسّماح بالمظاهرات العامّة: بمعنى آخر، إن أمريكا هي من كانت وراء الثّورة ولو بطريقة غير مباشرة.
قام الطلاب وبعض أعضاء اليسار العلماني بتنظيم احتجاجات إيران الأولى، وكان اليسار على خلاف مع الشاه منذ أن أقال رئيس الوزراء محمد مُصدَّق من منصبه في الخمسينيات (وكان ذا شعبيّة لدى اليسار لأنه أمر بتأميم البترول الإيراني

وعرضه في السوق بالأسعار العالمية ما استثار غضب بريطانيا وأمريكا)، لكن بعد إقالة مصدق عادت صناعة النّفط الإيرانيّة إلى سيرتها الأولى وسُمح للشركات البريطانيّة والأمريكيّة بالعودة. وظلت التيارات اليسارية غاضبة على سياسة الشاة الموالية لأمريكا وبريطانيا.
أثناء تطور هذه الأحداث، ظهرت حركة حرب العصابات اليساريّة وكذا الحركة الإسلاميّة الثّوريّة «فدائيو الإسلام»، على أمل تغيير مستقبل بلدهم من خلال الصّراع المسلح. ورد الشّاه بالعُنف، وتلا ذلك أعمال الشّغب والقتل وإضرام النّار عمدًا حتى صارت البلاد على حافة الفوضى. وفي خضم هذا الوضع، أدار الغرب ظهره لإيران، ما اضطر الشّاه إلى الفرار مرّة أخرى. وبدأت الثّورة الإسلاميّة.

الفوهرر الفارسي وآيات الله الأخرى

لقب «آية الله» يعني معجزة أو علامة من الله، واتخاذه الخميني لقبًا سنة ١٩٤٣م، حين قام بنشر مانيفستو (بيان) ملقبا نفسه خلاله بهذا اللقب، وعبر تلك الوثيقة المعنونة **كشف الأسرار** كشف المُلّا روح الله الموسوي الخميني. فلسفته الشّخصيّة للدولة الإسلاميّة حين قال بوضوح: «إن الحكم الإسلامي هو العدالة الإلهيّة، وقوانينه غير قابلة للتغيير أو النقض». وبعد ثلاث سنوات، كانت مجموعة طلاب الفقه الّتي سبق وأسّسها تحت اسم **فدائيو الإسلام** تأمّل في إعداد المجتمع الإيراني للحياة في ظل الشّريعة، وتعزيز الروح الجهاديّة الاستشهاديّة.

عام ١٩٦٣م قام الخوميني بحملة شرسة ضد الإصلاحات الحكومية المسماه **الثورة البيضاء**، كان الخوميني ينظر إلى مثل تلك الإصلاحات بوصفها مخالفات واضحة للشريعة مثل حظر زواج القاصرات، وهو تعدّي واضح على قانون الأسرة في الإسلام، ستجد عزيزي القارئ حرب سياسية بين أي تكتل إسلامي وحظر زواج القاصرات لا لشئ إلا لزواج محمد من عائشة وهي قاصر، أيضًا كان هناك سبب آخر لمعارضة الإصلاحات؛ أن مهندس تلك **الثورة البيضاء** هو -رئيس الوزراء أسد الله علم- المنحدر من عائلة بهائيّة والخوميني يرفض ولاية من هو غير مسلم على المسلمين.

اشتملت تلك الخطة الإصلاحية على أمور شتى من بينها:

* إلغاء الجمارك الإقطاعيّة ونقل ملكيّة الأراضي الزّراعيّة من أصحابها الرّئيسيّين إلى الفلاحين في البلاد.
* تأميم الغابات والمراعي.
* خصخصة صناعات الدّولة وتعويض مُلّاك الأراضي.
* تقاسم الأرباح بين رب العمل والعمال والموظّفين الحرفيين.
* ضمان الحقوق الانتخابيّة الإيجابيّة والفعليّة للمرأة.
* محاربة الأميّة.
* منع زواج القاصرات.

وفي استفتاء جرى عام ١٩٦٣م، قام النّاخبون الإيرانيّون بالتّصديق على هذه الإصلاحات. لكن بعد ذلك بعاميْن أضطر رئيس الوزراء أسد الله علم، إلى ترك منصبه. فالبهائيّون بالنّسبة لعلماء الدّين الإسلامي مرتدّون لأنهم ينحرفون عن الرأي القائل إن محمدًا هو خاتم أنبياء الله، وهم طائفة غير

معترف بها (على عكس المسيحيّين أو اليَهُود) الذين يصنفون كـ **أهل كتاب**، الرخصة الوحيدة للاختلاف الديني عند الإسلاميين. اعتبر الخوميني تعيين **علم** رئيسًا للحكومة خطرًا على الهويّة الإسلاميّة للأمة، كما رأى الخوميني أن ولاية الفقيه هي السبيل الأمثل لخلاص العالم الإسلامي ونجاته، داعيًا زملاءه الإيرانيّين إلى الثّورة ضد نظام الشّاه في خطاب ملتهب ألقاه في **قُمّ** «قوموا للثورة، وللجهاد والإصلاح»، ناشد الملا مستمعيه «لأننا نرفض العيش تحت حُكم مجرم! نحن نستحق أن نتبع نبينا وأئمتنا الّذين سوف يدافعون عنّا يوم القيامة». تمّ اعتقال الخوميني بعد إلقائه للخطاب، ثم نفيه فيما بعد إلى تركيا أوّلًا ثم إلى العراق، وهناك كتب ثاني أهم بيان له بعنوان **حكومات إسلامي** (دولة يحكمها الإسلام)، وفي عام ١٩٧٠م، قام بتحديد مفهومه عن ولاية الفقيه بالتّفصيل، وكذلك القواعد والأركان الأساسيّة للدولة الإسلامية الّتي كان يأمل في تأسيسها.

على الرّغم من آرائه الرجعية المعادية للديمقراطيّة والمعادية للإنسانية، إلا أن حماس الخوميني الثّوري جذب اهتمام العديد من المعارضين اليساريّين للشاه، وساعده أيضًا آراءه المعادية للغرب ودعواته إلى إعادة تأميم إنتاج النّفط الإيراني. لكن بقيت وجهات نظره بشأن الشّريعة الإسلاميّة مصدر قلق اليسار أكثر.

إن «الادعاء بأن الشّريعة الإسلاميّة يمكن إبطالها أو تطبيقها فقط في زمن أو مكان واحد، هو انتهاك روح الإسلام الأساسيّة»، هذا ما كتبه الخوميني في موضوع الشّريعة في

الدّولة الّتي تخضع للإسلام. «لأنه بحسب النّبي المبارك، فإن تطبيق قوانين الشريعة يبقى إجباريًا حتى نِهاية الزّمان. فهل قضى النبي ثلاثة وعشرين عامًا من العمل الشّاق في تأسيس دولة وتنفيذ شريعة تخدم عصرًا واحد فقط؟ هل وضع الله له هذه القوانين كي يتم تطبيقها لمائتي سنة فقط؟»
رفض الخوميني علنًا المبدأ الدّيمقراطي لتقرير المصير، مُشدّدًا على السّيادة الحصريّة للقانون الإلهي على الأرض، والّذي وظيفته هي فرض إرادة الله.

وأفكار الخوميني الثورية لم تنبت من فراغ، بل كان للأمر جذور في مصر. قبل أربع سنوات من كتابة الخوميني كتابه عن الحكومة الإسلامية، أي في عام ١٩٦٦م، قام الشّاب علي خامنئي، الّذي تولي مقاليد الدّولة الإيرانيّة بعد موت الخوميني عام ١٩٨٩م، قام بترجمة كتاب عن العربيّة يحمل عنوان **"المستقبل لهذا الدّين"** لصاحبه سيد قطب، الرّأس المدبّر لجماعة الإخوان المُسلِمين، أخذ الخوميني العديد من أفكار سيد قطب أهمها **الحاكميّة**، وعلى الرّغم من الاختلافات العقائديّة الخطيرة بين الملّا الشّيعي من جهة والإخوان المُسلِمين السّنة من جهة ثانية، إلا أن كتاب سيد قطب هزَّ كيان إيران، حيثُ إنّ الخوميني (الّذي كان يتحدّث العربيّة بطلاقة) افتُتنَ بالأفكار الثّوريّة للنص الأصلي.
لا يختلف الشيعة عن السُنة في فهمهم للشريعة لكن في من يحكم المسلمين، فبينما يرى الشيعة أن أحفاد **فاطمة** فقط هم الحكام الشرعيون للمسلمين، يرى السنة أن الحاكم لا يجب أن

يكون بالضرورة من نسل النبي. ولكنهم لا يختلفون كثيرًا في طريقة الحكم وتطبيق الشريعة. أي أن ما يجمعهم في النهاية هو الفاشيّة الإسلاميّة، حيثُ إنّ الله هو المُشَّرِع الوحيد وشرائعه فعّالة في جميع الأزمنة، وغير قابلة للتغيير وغير قابلة للتفاوض، ولا يعارضها سوى الكُفّار والزنادقة الّذين يجب القضاء عليهم.

في عام ١٩٧٨م، تصاعدت الاضطرابات في عهد الشّاه. وذلك عندما حَظرت فتوى من آية الله الخوميني عرض الأفلام الغربيّة، وتمّ تفجير خمسة وعشرين دارًا للسينما في مختلف أنحاء إيران، وقُتِل أكثر من أربعمائة من روّاد دور السّينما في هجوم واحد في مدينة عبادان. ومن منفاه الباريسي، سعى الخوميني إلى التحالف مع اليساريّين والطبقة الوسطى، ما كثّف الاحتجاجات حتى اضطر شاه إيران إلى الفرار في يناير ١٩٧٩م. وتمّ تعين مهدي بازركان، المُرشّح العلماني، رئيسًا للوزراء في هذه الأثناء لضمان الحياد لكل من الجيش والغرب.

في الأول من فبراير، عاد الخوميني إلى إيران، واعدًا «بالحريّة لكل الإيرانيّين». وفي استفتاء أُجري في أبريل، دعا أن تصبح إيران جمهوريّة إسلاميّة، وقام أغلبيّة الإيرانيّين اليساريّين والبرجوازيّين على حد سواء بالتّصويت بـ «نعم». ويبدو أنه لم يقم أيٌ منهم بقراءة كتابه "الحكومة الإسلامية".

في أعقاب الاستفتاء، قرّر الخوميني بمفرده رسم جمهوريّة إيران الإسلاميّة، وقام بإعدام الليبراليّين واليساريّين الّذي كان دورهم حاسمًا في الإطاحة بالشّاه. فعل الخوميني ذلك لعدم انصياع الليبراليّين واليساريّين للاتجاه الثّيوقراطي ولانتقاداتهم

لفرض الحجاب على النساء. في أوّل سنتيْن بعد الثّورة وحدها، تمَّ قتل اثنيّ عشر ألف شخص، ونُفِيَ الملايين من الإيرانيّين، من بينهم الجزء الأكبر من النّخبة المثقّفة في البلاد. وبعد خمسة وثلاثين عامًا، تزايد عدد القتلى إلى مئات الآلاف، ومازالت الفاشية الدينية تتحكم في مصير بلد كان يومًا ذا حضارة تاريخية رائعة.

إلى جانب الجيش والشّرطة السّريّة، تمَّ تشكيل ميليشيات على غرار القمصان البُنِّية النّازيّة والوحدة الوقائيّة (**اس اس**) من أجل إخضاع السّكان للخوف. وتأسّس في عام ١٩٧٩م الحرس الثّوري الإيراني، والمعروف رسميًا باسم **سپاه پاسداران** «انقلاب إسلامي»، وتبعها **الباسيج** «قوات التّعبئة الشّعبيّة» حيث نُفّذت العقوبات في الشّوارع على كل من تجرّأ وتحدّى النّظام، تمامًا مثلما فعلت عصابات هتلر البلطجيّة. ويمكن مقارنة المجموعتيْن مع مجموعة **ڤافن اس اس** النازية على الأقل من حيث البنية والوظيفة والوحشية في التعامل مع المعارضين، فقد أتت المجموعتان لكي تخدم كجيوش ثانويّة خلال حرب إيران مع العراق، وهذا ما دونه بهروز خسروزاده، الاختصاصي في علوم السّياسيّة، في عام ٢٠٠٩ في مقال في heise.de.

في ذلك الوقت، كان خسروزاده يتحدّث عن تفاخر الحرس الثّوري الذي ضمَّ ١٣٠ ألف عضوًا، إلى جانب ميزانيّة أكبر من قوات الدّفاع الرّسمي الإيراني. وحتى يومنا هذا ما زال تعيين أعضاء الحرس الثّوري مستمرًا تمامًا كما كان يحدث في **اس اس**، حيث يتم انتقاءهم بطريقة تضمن النّقاء الإيديولوجي،

ويكون هذا الانتقاء مَشروطًا بشكل مكثف أكثر من الجنود العاديّين من الناحيتيْن الجسديّة والنفسيّة معًا. تمتلك المجموعة سُجونها الخاصّة بها، وفيها تقوم بحجز وتعذيب الأسرى دون محاكمة. ظهر هذا النّوع من الوحشيّة تجاه السّكان المدنيّين من قِبَل كل من الحرس الثّوري وميليشيا الباسيج خلال الثورة الخضراء عام ٢٠٠٩م، حيث تم اختطاف وتعذيب واغتصاب عدّة آلاف من الإيرانيّين بسبب التّظاهر السّلمي ضد أحمدي نجاد.

ما لا يمكن تفسيره للوهلة الأولى، هو أن مُعاداة السّاميّة الإيرانية تشبه في لغتها وعدوانيتها علاقة النّازيّة باليهود، رغم اختلاف الظروف. فقد كانت فارس موطنًا لليَهُود لمدّة ٢٥٠٠ سنة، كما أن إيران لا تشترك بأي حدود ولا أي تاريخ من الصّراع مع إسرائيل على عكس أجزاء أخرى من العالم العربي. لم تخضع إيران أبدًا للاستعمار الغربي، ولم تتعرّض أبدًا لهزيمة عسكريّة على يد أيٍّ منهم. وهناك ثلاثة عوامل دعمت معاداة السّاميّة في إيران: أولها كان القرابة السّياسيّة والاقتصاديّة الوثيقة للبلاد مع ألمانيا. إن ثمانين بالمئة من الآلات الّتي نهضت بالتّصنيع الإيراني تمت صناعتها في ألمانيا، وإلى جانب التّكنولوجيا الألمانيّة، قامت البلاد باستيراد الأيديولوجيّة النّازيّة، وبثّت في جميع أرجاء إيران باللغة الفارسيّة خلال الحرب العالميّة الثّانية.

في زيسن، منطقة في برلين، قام النّازيون بإنشاء محطة إذاعيّة خاصّة بهم وذلك لبث حرب دعائيّة باللغات الفارسيّة والعربيّة والتّركيّة والهنديّة في جميع أنحاء العالم العربي. وأشرف على

تلك الإذاعة الحاج أمين الحسيني مفتي القدس وحليف هتلر في الحرب. وفي مقال من مجلة **Tribüne**، يقول أستاذ العلوم السّياسيّة ماتياس كونتزل إن المحطة كانت محبوبة جدًا لدرجة أن المقيمين في مقاهي طهران كانوا يلتقون بانتظام للاستماع إليها. كانت إيران ذات أهميّة بالنّسبة لألمانيا، في الوقت نفسه، بسبب مواردها الطبيعيّة. كما أن الإيرانيين كانوا يعتبرون أنفسهم إخوانًا للألمان في العرق «آريّين (هنديّ، ألماني)» وليسوا ساميين مثل اليهود والعرب، كان يمكن للفُرس أن يدّعون أنهم شعب غير سامٍ، تلبية للمبادئ التّوجيهيّة للنّازي، بهدف توثيق العلاقات وتوطيدها بين الطرفين. وعندما اندلعت الحرب العالميّة الثّانية قام أغلبيّة الإيرانيّين -لا الملالي فقط- بتأييد ألمانيا.
بالإضافة للعلاقات المباشرة مع النازية جاءت كتابات سيد قطب كمصدرًا إضافيًا هامًا للمشاعر المعادية لليَهُود في إيران، فهي تُقدم الصّراع ضد اليَهُود بوصفه واجب إلهي على جميع المُسلِمين حتى يوم القيامة. وقبلهما يأتي القرآن كثالث وأهم مصدر لكراهية اليهود، فالنصوص القرآنية تتناول اليَهُود كخونة وأبناء القردة.

أعلن آية الله الخوميني خلال السنة الأولى للثورة الإسلاميّة، عن المهرجان السّنوي ليوم القدس، تعبيرًا عن التّضامن مع فلسطين، وعلّق في يوم القُدس الثّاني عام ١٩٨٠م قائلًا «إسرائيل، ذلك الكيان الشرير، لطالما كانت قاعدة أمريكيّة. لقد حذّرتُ من الخطر الإسرائيلي لأكثر من عشرين عامًا. ينبغي

علينا جميعًا أن نرتفع إلى تفكيك دولة إسرائيل وعودة الوطن إلى الشعب الفلسطيني». وهنا يعود التساؤل: أهي من اجل الفلسطنيين أم كراهية في اليهود؟

التّقيّة وفنون الأكاذيب الدّينيّة

في المذهب الشّيعي، يُشير المصطلح العربي «التّقيّة» إلى إخفاء إيمان المرء عندما يكون تحت تهديد خطير، وهي ممارسة يرجع تاريخها إلى السّنين الأولى للإسلام عندما كان المُسلِمون ما زالوا أقليّة ضعيفة في المجتمع المكي. تسمح التقيّة لأتباع العقيدة أن يهملوا الطقوس الواجبة وأن يخفوا معتقداتهم أو ينفوها بشكل قاطع لتجنّب الاضطهاد على يد غير المُسلِمين. تقول سورة آل عمران (٢٨) « لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»، أي أن الصّداقة مع الكُفّار تجوز طالما أنها تقي حياة المرء من الخطر. إن «التّقيّة» مستمدة من كلمتيّ «تقاة» و«تتقوا» وفي قراءة حمزة والكسائي ونافع نجد كلمة تقية بدل كلمة تقاة.

كانت فتوحات الإسلام في وقت مبكّر ناجحة للغاية. وفي المناطق الّتي استولى عليها المُسلِمون قاموا سريعًا بتشكل الطبقة الحاكمة. بالنّسبة لهم، لم يعد تمويه أو إنكار إيمانهم ضروريًا. وبعد أن انشق الشّيعة في السّنوات الّتي تلت وفاة النّبي محمد، كانت التّقيّة بمثابة وسيلة عمليّة للدفاع عن النّفس ضد الاضطهاد السني. ولإنقاذ حياتهم، سُمح للشيعة بإخفاء

آرائهم الدّينيّة، للحفاظ على حياتهم (وحياة عائلاتهم) من الأذى، فكان بإمكانهم أن يخدعوا أو يكذبوا على الظالمين المحتملين.
قام آية الله الخوميني بتوسيع هذا المبدأ نوعًا ما، حيث أتاح لأنصاره بالتّظاهر بأنهم ملحدون أو علمانيون للتّسلل والوصول إلى آليات الدّولة التّابعة لنظام الشّاه. كتب الخوميني «إذا لم تساعدنا التّقيّة على القفز على عربة السّلطان، لا ينبغي حينها اللجوء إليها حتى إذا كان هذا الامتناع يؤدي إلى وفاة الشّخص المعني، ما لم يُشكّل قفزه على العربة انتصارًا حقيقيًا للإسلام والمُسلِمين»). وهو المبدء ذاته الذي تعامل به الخوميني مع حلفاءه في المراحل الأولى من الثّورة، فقام بتضليل اليساريّين والليبراليين والطبقة الإيرانيّة الوسطى إلى أن تمكّن من احتكار السُّلطة.

والقت **التقية** بظلالها على الأوضاع الراهنة، فإن زعماء إيران اليوم يُتّهمون -بانتظام- بممارسة التّقيّة في ما يتعلّق ببرنامجهم النّووي خلال مفاوضاتهم مع القوى الأخرى. والتقية ليست مذهبًا سياسيًا شيعيًا فقط، بل تعلمته جماعة الإخوان المسلمين، حيث تعلمت الاستتار والكذب في التعامل مع الغرب. فبينما ينشر قياديوها مبادئ الجهاد والشريعة في البلاد الإسلامية، تجدهم يصدرون للغرب خطابين: خطاب المظلومية وخطاب التعايش السلمي وحقوق الإنسان.
كما يَجدُر بالذّكر أن منتقدي الإسلام من اليمين المتطرف في الغرب يذكرون التّقيّة باستمرار، ويقومون بتعريفها بصورة فضفاضة وتحريضيّة لوصم جميع المُسلِمين بالكذب بغض

النّظر عن الأيديولوجيّة التي يتبعونها، ويتهمون المسلمين المهاجرين إنهم يحجبون نواياهم الحقيقية ويتظاهرون بأنهم داعمون للديمقراطية حتى يحين الوقت الّذي تسقط فيه أوروبا في يد المسلمين. وبالطبع إن تعميم أمر **التقيّة** على جميع المُسلِمين بهذه الطريقة هو أمر غير منطقي وغير مقبول، وأولئك الّذين يفعلون هذا يبرهنون على أنهم يعانون من مرض البارانويا: فالادعاء أن المليار ونصف مسلم يشتركون بوجهات نظر واحدة هو مُجرّد تفكير بنفس طريقة الإسلاميّين الّذين يصرّون على أن جميع بني الغرب يمتلكون نفس طريقة التّفكير في عزمهم على القضاء على الثقافة الإسلامية.

إن أفضل شخص يُسأل عن التّقيّة هو الشّيعي هاني فحص. ففي إحدى المناسبات قال لي نكتة قديمة تُلقي بعض الضّوء على الفرق بين السنة والشيعة في هذا الشأن: (ذات يوم، كان هناك مُلّا شيعي ورجل دين عربي، كلاهما يختلسان النّظر إلى امرأة جذّابة، يغمزون لها خُلسةً لكي يسترقون انتباهها. عندما لمحت محاولات الرّجل العربي لمغازلتها، قام بتدليك عينه بشكل عَرَضي، كما لو كان يمسح حبة رمل منها، ثم، عندما لاحظت المُلّا وهو يغمز، قام بإغلاق عينيه بإحكام لمدّة عشر سنوات، مدعيًا باستماته أنه لم يغمز قط في حياته).

الإصلاحيّون في إيران: بِداية جديدة أم عمليات تجميل؟

ذات مرّة سألت فحص عمّا إذا كان يمكن إصلاح النّظام الإيراني، فسألني «ماذا هناك ليمكن إصلاحه؟»، رافضًا تقديم الكثير من الأمل. «فالله إلى جانب الملالي، وهم لا يستطيعوا

أن يعترفوا أنه أخطأ حين وقف إلى جانب ثورتهم، أو عندما يعترفوا بأن وجهات نظر الخوميني في السّياسة والقانون غير مناسبة لنا اليوم. وفكرة ولاية الفقيه، أي حق رجال الدّين في الحُكم، لا يمكنك إصلاحها لكن يُمكننا إسقاط الملالي والفقهاء!»

ويشعر البعض بالتفاؤل لأن الرئيس روحاني يعد بإصلاحات ويتودد أحيانًا للغرب ويعرض تعاونه معه في الملف النووي. لكن روحاني ليس له أي تأثير، فالجيش والباسيج وأموال النفط في يد الملالي المتشددين وأبنائهم، والرئيس والبرلمان ليس لهم أي تأثير، بل هم آداة في يد الملالي للتفاوض مع الغرب لرفع العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية عن إيران. إن سياسة روحاني التي تبدو في ظاهرها إصلاحية هي في الحقيقة دعم قوي للدكتاتورية، لأن التودد للغرب القائم على مبدأ **التقية** قد يجلب عائدات اقتصادية كبيرة سيستخدمها نظام الملالي لإسكات المعارضة والشباب المطالب بالديمقراطية كما سيساهم في تسليح أفضل لإيران ما سيبقى على نفس النظام لفترة أطول. مرة أخرى سيلعب النفط دورًا كبيرًا ليساعد الإسلام السياسي على التنفس صناعيًا.
لقد أثبت الاتحاد السّوفيتي أنه غير قابل للإصلاح من الدّاخل: وفعل جورباتشوف قصارى جهده لإصلاحه، لكن محاولات التغيير أدت إلى تفكيك النّظام كله. وبالمثل يقوم البابا فرانسيس بتعديل بعض وجهات نظر كنيسته فيما يتعلّق بموضوعات معينة، وهذا إنجاز في حد ذاته، باعتراف الجميع، لكنه لا يُمكن

أبدًا الزعم بإمكانية إصلاح الكنيسة الكاثوليكيّة بشكل حقيقي، لأن ببساطة كل إصلاح سيدعو لإصلاح أخر، وفي النهاية سيطل السّؤال الجرئ برأسه القبيح: من الّذي ما زال بحاجة للكنيسة على الإطلاق في القرن الحادي والعشرين؟، وهنا لن يجرؤ أي من المُصلحين على الإجابة بصِدق.

منذ نشأتها، كانت إيران كجمهوريّة إسلاميّة "شيعية" بمثابة شوكة غليظة في منطقة الشّرق الأوسط "السُني"، وأثارت حربها مع العراق الصّراعاتِ الدّاخليّة في كل من لبنان وأفغانستان والبحرين واليمن ما أدّى إلى معارك بين القوتيْن الإقليميتيْن السعودية وإيران بعد الرّبيع العربي.
اليوم فالجمهورية الإسلاميّة الشيعية "إيران" تقوم بالسّيطرة على الأرضي في العراق وسوريا وتأتي الدّولة الإسلاميّة السُنية "داعش" كرد سُني على التمدد العسكري الشيعي، حيث تتنافس كل من إيران مع المملكة السّعوديّة للتدخُّل في دول المنطقة بحجة درء مخططات الدولة الأخرى الإمبرياليّة، والقيام بذلك على وجه السّرعة خاصّة عندما قام حليف إيران السّوري، بشار الأسد، بتجنيد **حزب الله** لمساعدته ضد المتمرّدين السُنة في بلاده والمدعومين -في البداية- من المملكة السعودية، لكن فقدت السّعوديّة السّيطرة عليهم تمامًا كما حدث من قبل مع القاعدة ومن قبلهما مع صدام حسين، الذين ساندتهما السعودية ضد إيران وضد السوفيت، ثم أنقلبوا عليها فيما بعد.

أصبحت داعش دوامة جيوسياسيّة تقليدية، امتصت في دوامتها المخاوف بشأن رئيس إيران الجديد واللطيف كما أمتصت سوء الحالة الصّحيّة للملك السّعودي الجديد ورعونة ابنه الأمير محمد بن سلمان وقضية إغتيال الصحفي جمال خاشوقجي. ومهما كانت التغييرات الّتي تخضع لها جمهوريّة روحاني، يشعر المرء أن الضّرر حدث بالفعل وليس فقط لإيران بل لمنطقة الشّرق الأوسط بأكملها وللعالم أجمع.

عام ٢٠٠٩م، قام هاني فحص بدعم حركة الشّباب الإيرانيّة الّتي عارضت أحمدي نجاد، ولم يكن الملا هو الوحيد الّذي يقف مع الشّباب في البلاد. سألتُ فحص ذات مرّة: «هل تعني الحركة الخضراء أن الفصل الأخير في تاريخ الثّورة الإسلاميّة بدأ؟» أجابني «هذا ممكن! ولكنه سوف يستغرق بعض الوقت. فالخوميني والملالي استحوذوا على المال والجنود والجيش وأمن الدّولة وهي أمور صعبة التّفكيك. ومُجدّدًا أقولها، ليس هناك كثيرون من الشّباب يؤمنون بأفكار الثّورة الإسلاميّة. إن النّظام الّذي يقاتلون ضده عالقًا في أساليبه، فهو مدمّر لذاته».

يقوم فحص بالتّرحيب بعلماء الدّين الشّباب الّذين تختلف أفكارهم عن الحرس القديم خارج إيران، فهذا الجيل الجديد يضع ضغوطًا على العلماء الكبار. «يحتاج الملالي إلى معرفة أنهم بمفردهم، وهذه هي الطريقة الوحيدة الّتي يمكن أن يحدث بها التّغيير الآن. الضّغط لا يمكن أن يأتي من الدّاخل فحسب بل يجب أن يأتي من الخارج أيضًا».

ضغطتُ عليه بسؤال «كيف يمكن الفصل بين الدين الإسلامي والإسلام السياسي؟» أجاب «إن العلماء يميلون إلى القول إن

الإسلام هو دين ونظام سياسي في آن واحد، ولكن الإسلام ليس أساسًا قويًا بما يكفي لإقامة دولة. وعلى أي حال لا توجد دولة واحدة تعتمد على الدين في الحكم ناجحة. رُبّما كان الدين كافيًا في وقت ما في القرن السّابع الميلادي لبناء دولة بدائية. في الأساس، لن تكون دولة مؤسّسة على الدّين دولةً لجميع مواطنيها. لا يمكن أن يحكمها أبدًا سوى أعضاء تابعين لدين الدّولة. عندما تقوم بإلقاء نظرة فاحصة على التّاريخ، تجد أنه من الواضح أنه كلما أقحم الدّين نفسه مع الدّولة تحدث الكارثة؛ الكنيسة في العصور الوسطى، وطالبان، وجماعة الإخوان المُسلِمون».

توفي فحص وهو مُعارض لكل أشكال الدّولة الإسلاميّة، مؤمنًا أنها أمر مُستحيل. فقال ذات مرّة: «طالما يريد الشّيعة أن يطالبوا بدولة يقومون بإدارتها وتتماشى مع معتقداتهم، وكذلك يريد أهل السّنة دولة تتماشى مع معتقداتهم، وسيرغب الصّوفيون أيضًا بشيء آخر تمامًا. في النّهاية، لن يكون هناك دول إسلاميّة بل فقط دُول طائفيّة مثل إيران، حيث يتعرض فيها السّنة للاضطهاد إلى جانب الأقليات مثل البهائيّين واليَهُود. وفي مصر السنية، يعتبر الشّيعة مكروهين بشراسة أكثر من الغرب واليهود. فكراهية الأخر جزء لا يتجزّأ من الحياة داخل الدّولة الطائفيّة، فهي منغلقة ليس فقط على الديانات المختلفة بل أيضًا على الطوائف المختلفة لنفس الدين. وهو ما مرت به أوروبا، وتجاوزته بعد حرب الثّلاثين عامًا».

كان فحص باحثًا إسلاميًا يمكنه الاسترسال لساعات في الحديث عن توما الأكويني واسبينوزا وإيمانويل كانط وماكس فيبر

وغيرهم دون أن يقتبس من النّبي أو القرآن أي كلمة. «نعم»، قال لي: «أنا أؤيد تقليد أوروبا، فهي نموذج ناجح. لم يؤذ التّنوير المسيحيّة، بل حفظها. ونحن بحاجة إلى تنوير خاص بنا، لكل من الشّيعة والسُّنة. وأن في نِهاية المطاف سيكون علينا تفهم أن التّنوير لم يكن يتعلّق بمعارضة الدّين، إنما يتعلّق باتباع العقل والأخذ بالأسباب، وكل من هو ضد العقل فلديه مشاكل خطيرة في رأسه وفي حياته!»

الفصل التّاسع

قل يا أيها الكافرون..

خمسة ملحدين من العالم الإِسلامي يروون قصتهم.

في بلدان مثل مصر وإيران والمغرب وتونس، أطلق الرّبيع العربي صراعًا داخليًا للحضارات، فتصادمت القُوى العلمانيّة والدّينيّة منذ ذلك الحين حول سؤال مفاده: «إلى أي مدى يمكن للدين أن يُمارس نفوذه على السياسة والتشريع والحياة العامّة؟»
انضم إلى هذا النّقاش المزيد والمزيد من الملحدين العرب يوميًا، حيث بدأت أصواتُهم ترتفع وتُسمع، بعد أن كانوا يعيشون في الخفاء. والتقيت وتحدّثت مع خمسة منهم، كل شاب وشابة منهم يُخاطر بحياته حين يظهر بوجهه واسمه ويقول رأيه بصراحة في العلن.

مؤمن الملحد، أو: هزيمة المؤمنين في ملعبهم

أصبح الشّاب مؤمن البالغ من العمر واحد وعشرين عامًا حينها، ملحدًا منذ خمس سنوات. يدرس مؤمن في جامعة الأزهر بالقاهرة، وقد أخفى سر فقدانه للإيمان مدّة عاميْن ولم يجد الشّجاعة لإخبار العائلة والأصدقاء أنه لم يعُد مؤمنًا إلا بعد أن خُلع الرّئيس مبارك ما تسبب في صّدمة للكثير من المقرَّبين إليه، لكن الأهم اكتشافه أنه ليس الوحيد، وجد بعض الأصدقاء يشاركونه وجهات نظر مماثلة لكنه يخشوْن صدامًا قويًا مع أهلهم وأصدقائهم.
اشترك مؤمن في إطلاق صفحة على فيس بوك للملحدين المصريين مع اثنيْن من أصدقاءه غير المؤمنين، وعلى مدى الأشهر القليلة الّتي تلت جذبت الصّفحة الآلاف من الأعضاء مستخدمين حساباتهم الشخصية التي تحمل اسماءهم وصورهم، ما يعد خطوة جديدة وجريئة جدًا في الوطن العربي وقتها. قال

لي مؤمن «إن الشّعب المصري ليس متدين بطبعه كما يُحاول الإِسلاميّون التّرويج لكذلك. أنا أخمن أن كل أسرة مصريّة يوجد بها ملحد، أو على الأقل شخص ينظر نظرة نقدية للإِسلام. لكنهم يخافون أن يتكلّموا في هذا الأمر علانية».
كان لمؤمن تجربة كبيرة في منتصف فبراير ٢٠١٣، خلال لقاء مع إِسلاميّين في مسجد بمصر القديمة. حيث تم دعوة شيخ من جماعة الإخوان المُسلِمين لإلقاء محاضرة بعنوان «كيف يفكّر الملحد؟»، مؤمن وثلاثة من أصدقائه ذهبوا وحضروا في الجامع المزدحم.
أخبرني مؤمن أنه لمدّة ثمانين دقيقة، دون توقف، كان الشّيخ يعظ بكلام فارغ عن الإلحاد وأسبابه وعن نظريّة التّطور. وقرب النّهاية، اكتشف مؤمن أن كثير من الحاضرين كانوا زملاءه من الملحدين، الّذين أتوا عندما علموا عن هذا الحدث من خلال وسائل التواصل الاجتماعي. كان معظمهم من المثقّفين والمتعلّمين من المُسلِمين السّابقين، وكان بعضهم من النّساء اللاتي يرتدين الحجاب، ولم تخجل بعضهن من الإفصاح عن أنفسهن بأنهن ملحدات، ودون تردُّد فضح الملحدون الأباطيل الّتي تحدّث عنها المحاضر، لأنهم استخدموا الأسلوب العقلاني وفندوا أخطاءه العلمية الفادحة. قال لي مؤمن بفخر «لقد هزمنا المؤمنين على ملعبهم ووسط جمهورهم».
أمدت أحداث تلك الأمسيّة مؤمن بالجرأة لكي يقوم ببدء حركة على نطاق واسع، حيث تمكّن من الوصول إلى المصريّين بأعداد أكبر. مازالت حركة «علمانيّون»، كما يُسمّون أنفسهم، نشطين حتى اليوم في القاهرة والإسكندريّة وثلاث محافظات

مصريّة أخرى، حيث يعقدون ندوات وفعاليات تعليميّة حول الأفكار العلمانيّة. لكن بالطبع ما زال مفهوم الإلحاد غير مقبول بالنّسبة للكثير من المُسلِمين في البلاد.

لم يُخطّط مؤمن لإضفاء الطابع السّياسي على عدم إيمانه، لأنه يرى أن الإلحاد مثله مثل الإيمان أمر شخصي. «لكن عندما يكون إيمان النّاس أمرًا سياسيًا، فمن الواضح أن يكون عدم إيماني نشاطًا سياسيًا أيضًا. ما دام الملحدون يُواجهون الاضطهاد، وما دام الدّين يتوغل في المجال الخاص، لا يُمكنني اعتباره أنه مُجرّد مسألة خاصّة».
كان مؤمن هو من دعاني لإلقاء محاضرة عن الفاشية الإسلامية في مقر حركة علمانيون، وتحوّلت الأمور بالفعل إلى سياسيّة أكثر من أي وقت مضى. حيثُ إنّني بدأت أناقش الفاشيّة الإسلاميّة، مُناقشًا النّزعات الفاشيّة الّتي في تطوّرت في الإسلام منذ وقت مُبكّر من تاريخه، وقلت إن الفاشية الإسلامية لم تظهر بظهور الإخوان المُسلِمين بل بفتح مكة. انتشرت مقتطفات من المحاضرة التي قدّمتُها بسرعة البرق على الإنترنت، وبعد أيام قام عاصم عبد الماجد، زعيم الجماعة الإسلاميّة الإرهابيّة، ليس فقط للدعوة بقتلي بل قام بالتّهديد بقتل السيّد مؤمن الّذي كان يجلس بجواري أثناء التّصوير خلال الحديث.

جلبت المحاضرة للجميع قدرًا كبيرًا من الانتقادات والتّهديدات، وأيضًا جلبت لهم الآلاف من الأنصار الجدد. قال لي «قبل هذه

المحاضرة، كان البعض منّا يتردد في الإفصاح عن رأيه بوضوح، لكن بعدها لم يكن هناك سبيل للتراجع مرة أخرى».
يعتقد مؤمن -بكل يقين- أن العلمانيّة هي مستقبل مصر، وليست مُجرّد خيار أو احتمال، وأنا أتفق معه. لكن كم هو الثمن الذي ستدفعه البلاد أوّلًا؟ من قرأ التّاريخ جيدًا يعرف أن ثمن التغيير سيكون الكثير من الدّم. رغم أنه يوجد لدى الإسلامويّين أشخاص براجماتيّون إلا أنه لديهم كذلك قتلة بلا حصر. ولا يمكن التّنبؤ أي اتجاه هو الّذي سيفوز، لكن في كلتا الحالتيْن، فإن المتطرّفين سوف يخسرون في نِهاية اللعبة، لأنهم لا يملكون سوى وعود فارغة يقدمونها.

«سأموت واقفًا»

كان المطرب والشّاعر الغنائي شاهين نجفي يجلس على الجانب الآخر من الطاولة حين التقيته في أحد المقاهي منذ عدة سنوات. وجدته اجتماعيًا ومنعزلًا بنفس الوقت، كان يحدق في المارة كثيرًا وبتدقيق، لكنه لم يبدُ خائفًا. كان يمسح بعينيْه الشّارع بحثًا عن قصص تُلهمه بعيدًا عن الذين يهاجموه ويهددوه. كان يُغرق نفسه بالعالم من أجل الحصول على مادة لأغنية جديدة، مراقبًا كل المحيطين به.
ألتقينا في برلين يوم ١٠ مايو ٢٠١٣م، في الذّكرى الثّمانين لحادثة إحراق الكتب المشينة الّتي حدثت في المدينة أيام النازية، وذكرى سنة على دخوله المدينة مُختبئًا، حيث قام الملالي في إيران بإصدار فتوى بقتله وبتخصيص مكافأة مالية قدرها مئة ألف دولار ثمنًا لرأسه. أغنيّة «نقي» لوحدها كافية

للحث على هذه الفتوى حيث يناشد شاهين في حواره الوهمي مع الإمام «نقي/ناغي» المنحدر من سلالة محمد إلى العودة من الموت ثم العودة إلى إيران، لكي يُحرِّر البلاد من الدّيكتاتوريّة ويرفع روح شعبها بالحب، والفياجرا، وعمليات تكبير الثّدي.
ينكر شاهين أنه يستهزئ بالدين حين يستخدم الصّور الدّينيّة. قال لي «أنا لا أهدف إلى مهاجمة الدّين. هذا ما يتهمني به النّاس الّذين يسيئون استخدام الدين كأداة لقمع الآخرين. فأنا أحصل على المواد من كل ما يؤثّر على حياتي الخاصّة وحياة الإيرانيّين الآخرين، بما في ذلك الدّين والرّمزيّة الدّينيّة. أنه أمرُ يتعلّق بالفن أكثر من أي شيء آخر، وما يهُمني هو أنه ليس لأغنياتي أيّة مخططات، إلا الترويج للحريّة».
لطالما كان شاهين شوكة في خاصرة النّظام الحاكم في إيران كونه متمرّدًا وفنّانًا محبوبًا، كانت لأغانيه النّاقدة للملالي شعبيّة كبيرة بين الشّباب في البلاد. وفي عام ٢٠٠٤م، اقتحم بلطجيّة الحكومة إحدى حفلاته في مدينة **بندر أنزلي** مسقط رأسه. بعد أن قام بأداء أغنيّة «ريش»، وتعني "لحية" وهي أغنية تسخر من الملالي الذين يظهرون ورعهم من خلال تطويل اللحية بينما هم يسرقون أموال الشعب. تم اعتقال شاهين وتعرّض للتعذيب أثناء أسره، ما دفعه للهروب إلى ألمانيا خلسة بعد أن لاذَ بالفرار من إيران عام ٢٠٠٥م.

ناقشت أنا وشاهين التّشابه بين ملالي إيران وجماعة الإخوان في مصر؛ كيف تمكّن كلاهما من الوصول إلى السُّلطة بعد ثّورات سّلميّة أهدافها الحريّة والعدالة؛ كيف أنخرطا في العملية

الديمقراطية حتى وصل كلاهما لتولي المناصب العليا عبر هذه الوسائل وكيف كان حرصهم الشديد على تفكيك الدّيمقراطيّة فور تقلّدهما السُّلطة. كلاهما فرض ديكتاتورية الدّينيّة على المجتمع، مظهرين ردود فعل متشنجة وعدم قبول أدنى انتقاد. في مصر كما هو الحال في إيران، يتعرّض الفنّانون ومنتقدو الدّين على حد سواء للاضطهاد والتّهديد، أحدث مثال على ذلك هو الكوميديان باسم يوسف، حيث تمّ استهدافه من قبل الدّولة؛ سواء من جماعة الإخوان المُسلِمين أو من عبد الفتاح السّيسي.

تتغذى الدّيكتاتوريات على الخُرافات والخوف العام. حاول فنانون مثل شاهين نجفي تعرية هذه الأساطير بخفة دم وذكاء، مقلّلًا بذلك خوف الجمهور من أولئك الّذين يحكمونهم من أبراج عالية، ولكن بسبب قيامه بهذا الأمر يعيش الآن تحت التّهديد، كما يعاني كل الّذين يتجرؤون على التّشكيك في أسس النّظام هذا إذا تمكّنوا أصلًا من البقاء على قيد الحياة.
يرفض شاهين أن يتعرّض للترهيب. ففي هذه الليلة، وبعد سنة واحدة بالضّبط من صدور الفتوى ضده ها هو في غرفة مزدحمة في حي كرويتسبرج في برلين، يقوم بأداء أوّل حفل موسيقي له منذ فترة طويلة جدًا، وبدأ الحشد، ومعظمه من الإيرانيّين المنفيّين، بالصياح والصخب عندما اعتلى شاهين المسرح. ومع كل أغنيّة يعزفها شاهين، يصبح تضامن جمهوره معه أكثر وضوحًا. تقول امرأة إيرانيّة شابة حضرت الحفل «يمكن لشاهين أن يختصر مشاعر كل الإيرانيين بأغنية،

ويمكنه قول جملة واحدة تحمل مضمون يكتبه آخرون في كتاب كامل».
أبقى المصور حامد راوشانجاه شاهين نصب عينيه في كل الأوقات، على أمل التقاط كل لفتة عابرة له. قال لي «إن هذا الرّجل هو رمز بالنّسبة لنا. ما يقوله يعطينا أمل وشجاعة، يجعلك تفرح لأنك على قيد الحياة. إنه رسول للشباب المنفي والشباب الذي لم يستطع الهروب من إيران. إنه يصرخ بنفس الأشياء الّتي يخاف الكثير من النّاس هناك قولها بأنفسهم. إنه يكافح ضد سُلطة رجال الدّين، ضد الدّكتاتوريّة بابتسامته وأغانيه. ونحن نحبه لذلك».
يُشارك الجمهور عمليًا مع كل أغنيّة، فهم يعرفون كلمات أغاني شاهين. يطالبون بتكرار الأغنية الواحدة مرّات وهم يهتفون «نقي! نقي!»، ولكن شاهين يرفض أداء الأغنيّة الّتي جلبت عليه تلك الفتوى. أتساءل في نفسي «هل يفعل هذا بسبب الخوف، أم بسبب رغبته في التّصالح مع الملالي؟» بالطبع لا، فشاهين ينوي إبقاء أفضل ما لديه حتى النّهاية. وأخيرًا صرخ «يا نقي!» مرتميًا من أعلى المسرح على الحشد الّذي ابتلعه مثل البحر.
قال لي شاهين بعد العرض «أنا كالسمكة. المسرح والحشد مثل الماء بالنّسبة لي. لا أستطيع العيش بدون الغناء». إن امتنان جمهوره وابتهاجهم في حضوره يجلبا له سعادة عارمة، ولكن أغلى أمنياته ما تزال الغناء داخل إيران بحريّة يومًا ما. سألته ما أوّل أغنيّة سيقوم بغنائها في إيران لو قُدِّر له العودة؟ أجابني قائلًا «**Istadeh Mordan’**» والتّي تترجم إلى «سأموت

واقفًا»، كتبها شاهين خلال الأوقات العصيبة بين إصدار الفتوى بإهدار دمه وبين فراره من إيران.
«بالنّسبة لي، وللكثيرين، تعبر هذه الأغنيّة عن المقاومة، فنحن على استعداد للكفاح حتى الموت من أجل قناعاتنا وحريتنا».

«أي إيمان هذا؟ أي إله هذا؟»

إن الفواجع الّتي تُصيب الأسرة غالبًا ما تجعل النّاس يفكّرون في معنى الحياة والموت، وأحيانًا في خضم هذه الأمور يكتشفون الإيمان. لكن كان للفاجعة الأسرية على نادية التّونسيّة نتائج عكسيّة تمامًا. إنها في الخامسة والعشرين وتدرس الفن. تمتّعت بعلاقة وطيدة مع جدها منذ طُفولتها فلم يكن يُحبّ أحدًا كما كان يُحبّها، على حد قولها. بعد وفاته في صيف ٢٠١٢، تمنّت نادية مرافقة جثمانه إلى موقع الدّفن، ولكن تمشيًا مع التّقاليد الإسلاميّة، استبعدت النّساء عن الجنازة. في حالة من الاستياء، تسلّلت نادية خلف الموكب لتشاهد دفن جدها من وراء جدار المقبرة. وبفظاظة قام أحد أقاربها الواعظين بمقاطعة وداعها الصّامت عندما رآها، حيث اندفع نحو مكان اختباءها وأمسك بها بقُوّة وعنّفها قائلًا «اغربي عن وجهي، فأنتن النّساء غير طاهرات، وليس لوجودكن أي شأن هنا! فوجودك هنا لن يجلب سوى الألم لجدك، اذهبي من هنا!»
ذهبت نادية إلى بيتها متساءلة، لأوّل مرّة، ما الّذي يعنيه دينها حقًا لها؟ «ما هذا الإيمان الّذي يضع جدارًا بيني وبين جدي؟» وتساءلت «أي إله هذا الّذي يُعطي الحق للرجل أن يضربني؟» وبدون تفكير قامت نادية بحلق رأسها بالكامل بالمقص وشفرة

الحلاقة. وقالت «لقد فصلت نفسي تمامًا عن هذا الدّين عندما حلقتُ شعري»
توقّفت نادية عن الكلام قليلًا، ثم التقطت سيجارة من العلبة وأخذت تدخنها في صمت. بينما كان يجلس مواطنوها التّونسيّون حول موائدهم يضحكون ويتبادلون النّكات، بعيون متهيجة ذرفت نادية الدّموع. فهي ما تزال تشعر بالانزعاج حتى يومنا هذا ممّا مرّت به في وطنها. ما تزال غير قادرة على الاسترخاء. فهي مِمَن شاركوا -منذ عاميْن- في التظاهرات ضد الحكم الدّيكتاتوري لزين العابدين بن علي، خرجت بجانب مئات الآلاف غيرها للمطالبة إلى بتحقيق العدالة وحُقوق الإنسان. وقتها لم يكن لدى نادية أدنى فكرة أن الإسلاميّين سوف يقومون بالاستيلاء على السُّلطة بعد فترة وجيزة، ما يسمح بفرض نظام اجتماعي جديد.. خاص بهم.
في الماضي، لعبت العقيدة دورًا ثانويًا داخل الحياة العامّة التّونسيّة، بينما بقيت السّياسة والدّين منفصلتيْن بشكل صارم. أما اليوم، وفي ضوء مقتل السّياسي اليساري شكري بلعيد في فبراير ٢٠١٣ والنّائب المحبوب محمد براهمي في يوليو من ذات العام بات حتى «الشّيوعيّين المتشدّدين» يتردّدون في التّعبير عن آرائهم بالدين، حيث تصاعد الخوف بين المعارضة التّونسيّة والمثقّفين العلمانيّين، وأصبحت الرّقابة الذّاتيّة وسيلة هامة لتجنُّب الاضطهاد. لقد تمّ اعتقال اثنيْن من الفنانين زملاء نادية وسجنهم ثماني سنوات لقيامهما بإعادة نشر -على الإنترنت- رسوم تشارلي أبدو الكاريكاتوريّة، الّتي تصوّر

محمد. قالت لي نادية إنها تشعر بالخجل من تونس، مهد الرّبيع العربي، لخُضوعه لدكتاتوريّة جديدة.

حاز حزب النّهضة الإسلامي على أكثر من أربعين في المائة من أصوات النّاخبين في أوّل انتخابات حُرّة في تونس، وذلك لأنه كان منظمًا تنظيمًا جيدًا، كما أنه يحظى بدعم عدد لا يُحصى من المتشدّدين الدّينيّين في شوارع البلاد. وتقول نادية «بعد أن كانوا مختبئين لعقود في ضواحي مُدُنها الكبرى «كالجرذان»، تمكّن الحزب من الاستيلاء على المدن الدّاخليّة في تونس بعد الثّورة، معلنين عن «أسلمتهم» بوتيرة سريعة. وأصبحت النساء الإسلاميّات نشطات مثل زملائهن الرّجال، فكُن يقُمن دائمًا بمضايقة نادية في وسائل النّقل العام، لشعرها القصير ولعدم ارتداءها الحجاب بالأساس. وتقول «يُمارس المجتمع التّمييز ضدي على ثلاثة محاور مختلفة؛ أولا لكوني ملحدة، ثانيًا لأني امرأة، ثالثًا لأني امرأة تبدو كالرجال»
بعد الانتصار في الانتخابات الّتي حازوا عليها، قام السّلفيّون التّونسيّون بشن الهجمات المتواصلة على الحانات والملاهي الليليّة وبيوت الدّعارة. حتى إنّ الجامعة في ولاية **منوبة** لم تسلم منهم فقام السّلفيّون بتمزيق علم البلاد فيها ورفع راية تنظيم القاعدة مكانه. في الواقع من قاموا بذلك لم يكونوا محسوبون على حزب النّهضة، إلا أن الحزب تقبلهم وأمثالهم، مستخدمًا إياهم بعناية لبث الخوف في قلوب معارضيه ولتسويق نفسه أمام الرأي العام الغربي أنه بديل معتدل.

تكافح نادية في بعض الأحيان لمواجهة الواقع، فهي تلجأ إلى عالم الإنترنت لمزيد من الرّاحة، فهي نشطة في صفحة لادينيّة على الفيسبوك مع صديقها علاء. ورغم تواجد آلاف الأعضاء في الصّفحة لتبادل الأفكار، إلا أنها تقول إنها تجد صعوبة في تصديق أن الملحدين التّونسيّين سوف يثورون كما فعل نظراؤهم المصريّون فإن الخوف يجتاحهم، وأحيانًا، عدم الاكتراث. والآن بات العديد يأملون في عودة بن علي، الدّيكتاتور الّذي كان يؤكّد دائمًا أنه سيقوم بحماية التّونسيّين من الإسلاميّين. ترى نادية أن هذا الحنين بمثابة اعتراف بالإفلاس. الشّباب التّونسي، كما تقول نادية، لم يعد يستخدم الإنترنت للتنظيم الجماعي أو لترتيب المظاهرات، ولكن فقط للتعبير عن غضبهم. وتسترسل قائلة، لم يعد لدى أحد أي وجهة نظر، فالكثير مِمَن في مثل سنّها لجأوا إلى المُخدرات. تقول «ليس لديّ فكرة كيف ستتخّطى بلادي هذا. كل ما أعرفه هو أنني لن أقوم بإنجاب الأطفال في هذا العالم على الإطلاق» وتضيف بحزن.. «إنها هزيمة، ولا بد لي من مواجهتها».

أجلس أمام نادية فاقدًا للكلمات، وأخشى أن ينتهي حديثنا عند هذه النّقطة القاتمة، كلمتها أن أحد لم يتوقع أبدًا أنه سوف يكون هناك انتفاضة عربيّة ديمقراطيّة ولا أن يكون التّونسيّون هم أوّل من يتحرّك. وربما ستكون هناك موجة ثانية، قلت لها أيضًا إن ثقافة الشّرق الأوسط ثقافة دكتاتوريّة متعدّدة الطبقات، فكلما تمّت الإطاحة بدكتاتوريّة تأتي دكتاتوريّة أخرى لتحل مكانها، ولكن بالمثابرة، يُمكننا إسقاطهم جميعًا.

ما زلت لا أعلم إذا كنت أحاول تعزيتها هي أم أن تلك الكلمات كانت لتعزية نفسي. أم أن تفاؤلي تجاه تونس فالفعل في محله، فبعدها خرجت التونسيات -تحديدًا- للساحات وطالبن بالمساواة مع الرجل في الميراث، وكان لهن ذلك.

الملحد المغربي والسلفي السويسري

بعد محاضرة ألقيتها في مسرح نيوماركت في زيوريخ، مايو ٢٠١٣م، جاءني رجلان مختلفان تمامًا. نيكولاس بلانشو، في الثّلاثين، نشأ في بيت ليبرالي وغير متدين في بلدة بيال السّويسريّة النّاطقة باللغة الألمانيّة، ثم تحوّل إلى الإسلام وأصبح سلفيًا بعد أن كان فاسقًا ومن شباب الهيب هوب في المدينة. في المقابل، قاسم الغزالي، ٢٣ عامًا، وُلِدَ لعائلة مغربيّة مُسلمة مُحافظة، ويعمل منذ عام ٢٠١١م على دعم الملحدين في بلاده بقُوّة من مقر إقامته في سويسرا.

نيكولاس بلانشو، السّويسري المولد، نشأ في حرية مجانية لم يدفع ثمنها، لكنه كان يبحث عن قواعد صارمة وتوجيه معنوي لحياته التي لم يجد لها معنى. وعثر على ما يبحث عنه في القيود السلفية الإسلاميّة. في أبريل ٢٠١٠م قال آلان بيكارد، وهو مدرس سابق لبلانشو، قال للصحيفة السّويسريّة الألمانيّة **Tages Anzeiger** إن بلانشو كان تلميذًا باهتًا «كان يبدو عديم التّركيز وتقريبًا بلا هدف». فقط عند اعتناقه الإسلام تمكّن بلانشو من النّجاح في الامتحانات النّهائيّة للمدرسة، مستمرًا في دراسة القانون مع الدّراسات الإسلاميّة في جامعة برن.

أما قاسم الغزالي فاختار أن يترك الإسلام، حيث وجد أن قواعده غير مرنة والأخلاقيّات في وطنه خانقة. انضم الغزالي إلى مدرسة قرآنيّة قرب الدّار البيضاء عندما كان صغيرًا. كان ينبغي على المغربي ارتداء الزّي الأبيض السّلفي المميّز، وأيّة ملابس غربيّة تُمنع منعًا باتًا، لكنه بعد أن اشترى له والدّه جهاز كمبيوتر اكتشف عن طريقه عالمًا جديدًا. قضى قاسم ساعات أمام شاشة الكومبيوتر، قرأ أمورًا في المدوّنات الّتي كانت محظورة في مدرسته والمسجد، أنهال على المعرفة بشغف شديد من النّظريّة الدّاروينيّة وحتى الأدب العالمي، وواجه ثقافة جديدة من المعلومات والمناقشة. يعتبر الغزالي أن عملية التلقين في المدرسة أو المسجد هي عمليّة تنساب من أعلى إلى أسفل، فالمعلّم أو الإمام يتوقّع من التّلاميذ استيعاب تصريحاتهم في صمت، بينما على الإنترنت أصبح التّعليم تفاعلي، والسّلطات لم تعد قادرة على إرغامه على ابتلاع مزاعمها.

لم يكتفِ بلانشو باعتناق الإسلام بل أسس المجلس المركزي الإسلامي في سويسرا لتدريب شباب السّلفيّين. وفي الآونة الأخيرة، اشتمل عمله على حملات لنشر الشّريعة الإسلاميّة في سويسرا، وقام بالدّعوة إلى إقامة نظام عادل تعتمد قوانينه على التشريعات الإسلامية وتضمن مقترحه التشريعي رجم النّساء بسبب الزّنا والموت للمرتدّين. طبعا كان المقترح بمثابة الجنون للمجتمع السويسري وتدريجيًأ تعلّم بلانشو أن يختار كلماته بعناية، وصار اليوم يتحدث عن الرّجم بوصفه أحد «العناصر والقيم الأساسيّة» لإيمانه لكنه لا يناسب السّياق السّويسري.

توجد آراء متضاربة حول أنشطة المجلس المركزي الخاص به، أكّد الخبير الإسلامي المثير للجدل، طارق رمضان، عن بلانشو وزملائه إنهم «لا يمثلون المسلمين بل يعيشون على هامش المشهد الإسلامي»، بالتّأكيد إن المجموعة بعيدة عن أن تكون ممثلًا لغالبيّة السّويسريّين المُسلِمين. وفي ٢٠١٠ قال ماركوس سيلر، رئيس جهاز المخابرات السّويسري، «إن المجلس المركزي الإسلامي من المتطرفين الأيديولوجيّين لكنهم لا يُمارسون العنف».

وهنا يتجاهل سيلر في تصريحه أن الوهابيّين، أتباع خط بلانشو الإسلامي، يقومون بأعمال العنف المعنوي؛ أن وصم شخصًا ما إنه زنديق أو كافر يجعله عرضة للتعنيف أو حتى القتل من أخرين يتبنون العنف الجسدي كمنهج، فقاسم الغزالي تعرض للضرب الجسدي باسم الشّريعة، وتلقّي العديد من التّهديدات بالقتل قبل أن يضطر إلى مغادرة بلاده.

وأصبح قاسم اليوم ناشطًا في مجال حقوق الإنسان يدافع عن حريّة الاعتقاد ويحارب ضد أولئك الساعون إلى نشر التّطرُّف بين مسلمي سويسرا. يقول لي قاسم بسخط شديد «لم أهرب من الشّريعة في المغرب كي أراها في سويسرا».

بالمصادفة تقابل قاسم مع بلانشو لأوّل مرّة، وجهًا لوجه، خلال محاضرتي لكنهما اشتبكا في وقت سابق بشكل غير مباشر قبل عدّة أشهر. عندما دعا المجلس المركزي الإسلامي الدّاعية الوهابي محمد العريفي لإلقاء محاضرة في فريبورغ، فقام قاسم من جانبه بحملة مضادة نجحت في منع دخوله إلى البلاد،

أعتمدت الحملة على نشر تسجيلات تليفزيونية للعريفي أيّد فيها حق الرّجل في الاعتداء على زوجة، كما زعم أيضًا أن النّساء الأوروبيات يمارسن الجنس مع الكلاب، وإن خمسة وخمسين في المائة من الدّنماركيّات لا يعلمن من هم آباء أطفالهن.
يندهش قاسم اليوم من أن أي شخص من خلفيّة بلانشو لا يمكنه أن يفهم قيمة الحريّة الّتي نشأ وترعرع فيها، بالإضافة إلى غرابة أن بعض من قرأوا كانط وفولتير لازالوا بحاجة إلى الآراء البدائيّة الّتي يُقدّمها رجال أمثال العريفي.

بعد المحاضرة نشبت مجادلة بين الإثنين عندما أعلن بلانشو أنه لا يجد تعارض بين القانون السّويسري والشريعة الإسلامية، ما جعل قاسم يتحدّث عن تعدُّد الزّوجات المسموح به في الإسلام لكنه محظور في سويسرا، فرد بلانشو قائلًا «لكن في الوقت الحاضر يسمح القانون بزواج رجلين، وإذا كنت تؤيد هذا، فإذًا عليك أن تدعم حق الرّجل المُسلِم في أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة. وهذا ما يُسمّى المساواة».
إن تكرار إساءة استخدام السّلفيّين لمفاهيم مثل الحريّة والمساواة بهذه الطريقة أمرٌ مثيرٌ للاهتمام والقلق، لأنهم نادرًا ما يذكرون الحريّة أو المساواة إلا إذا كانت تخدم أجندتهم. ومعظم الإسلاميين في أوروبا صاروا لا يتحدثون صراحة عن تطبيق الشريعة بل يغلفون طلباتهم بأسماء مثل المشاركة والحرية والمساواة والاحترام المتبادل.
في أوائل أبريل ٢٠١٣، دُعيَ قاسم للتحدُّث في مؤتمر الأمم المتحدة في جنيف لحُقوق الإنسان حول موضوع حريّة المعتقد

في المغرب. وفي منتصف يونيو من العام نفسه، دُعي بلانشو إلى اجتماع نظمه محمد مرسي للإخوان والسلفيّين في القاهرة، داعيًا الشّبان المُسلِمين في جميع أنحاء العالم للانضمام إلى الجهاد السّوري. كأنه مشهد في عالمٍ من المرايا، شاب مغربي يرتدي الجينز ويقتبس من كانط وفولتير مصارعًا من أجل الحريّة ومواطن سويسري المولد والتعليم يرتدي ملابس طالبان ويكرر حجج بدائية لشيوخ الصحراء حالمًا بدولة إسلاميّة مثل تلك الّتي في العصور الوسطى.

لا إله إلا ميكي ماوس

عندما قامت مصر وتونس بخلع رؤسائهما الطغاة، اختارت الأسرة المالكة في المغرب، والتّي كانت على حافة الهاوية، السّماح بثورة ناعمة أقل دمويّة. نزل الطلاب والإسلاميّون على حد سواء إلى الشّوارع مُطالبين بالإصلاح، لكن غضبهم كان ضد الحكومة اليساريّة في البلاد وليس ضد الملك محمد السّادس صاحب الشّعبيّة الكبيرة. وبسرعة البرق تمت صياغة دستور جديد لاسترضاء المتظاهرين، وعُقدت انتخابات حُرّة، سُمِح بعدها للإسلاميّين بتشكيل حكومة وطنيّة لأوّل مرّة في تاريخ المغرب. ومن باب اختبار مدى جدية الدولة في الالتزام بوعود حريّة الضّمير والدّين المنصوص عليها في الدّستور الجديد، أعلن المدوّن عماد الدّين حبيب عن تشكيل المجلس المركزي لتاركي الإسلام المغاربة، بعدها مباشرة تحرك مجلس الأمة الأعلى المكوّن من علماء الدين، هو جزء من الماكياج الدّستوري الذي يترأسه الملك محمد شخصيًا، بإصدار

فتاوى ضد المرتدّين وذلك بعد أسبوع واحد فقط، ما فتح الطريق للمتشددين للمطالبة بقتل المرتدين.
كان عماد الدين حبيب يعلم جيدًا أنه لا توجد أي محكمة مغربيّة يمكن أن تُصدر حكمًا فعليًا بقتل المرتدين، والملك محمد الخامس لا يود المخاطرة بتشويه صورته الإصلاحيّة في الغرب، خاصة وأن المغرب يعتمد اقتصاديًا بشكل كبير على السياحة وتصدير المواد الزراعية لأوروبا. لم يكن السكوت على مثل تلك الفتاوى إلا محاولة لمغازلة الإسلاميّين من جانب الحكومة، فالدولة المغربية ترقص على الحبل بين الإسلاميين والغرب.
لكن السكوت على مثل هذه الفتاوى والسماح باستمرار الخطاب الديني المتشدد أسقط المغرب في مشاكل كبيرة، حيث سافر الكثير من الشباب المغربي للالتحلق بصفوف داعش من ناحية، وقام آخرون باغتصاب وقتل سائحتين من النرويج والدنمارك بحجة أنهم كفار ويساعدون السياحة الجنسية في مراكش. يسأل حبيب «ماذا يمكن للمحاكم أن تفعل حيال هؤلاء المتشددين؟ إنهم يفعلون ما تربوا أنه شريعة سماوية أو ما يريده الإله».
وبسبب رفضه للتخويف وللترويع، قرّر حبيب تنظيم حيلة أخرى، وفضح دستور بلاده الجديد بشكل نهائي لكونه عبارة عن مهزلة، فعمل مع قاسم الغزالي، الإسلامي السّابق المنفي في زيوريخ، وأسّس مبادرة «ما صايمينش» أي «لن نصوم». قال لي «إن جزءً من الحريّة الدّينيّة المكفولة في الدستور يجب أن يكون القدرة على التّهرب من الواجبات الدّينيّة، بل حتى إنكارها علنًا». لم تكن مبادرته تدعو فقط لمقاطعة شهر

رمضان بشكل علني، بل لتنظيم اجتماعات عامّة للمسلمين السابقين. وعندما سمعت السّلطات بهذه المبادرة وأنها لاقت شعبيّة كبيرة بين الشّباب، صدرت أوامر بالقبض على عماد الدين حبيب وتمت مُطاردته من قبل الشّرطة المغربيّة، وتخلّت عائلته عنه بل إن أصدقاءه العلمانيّين اتهموه أنه تعدّى الحدود. لم يكن له إلا مُجرّد أشهر لكي ينتهي من تحصيل الدّرجة الدّراسيّة في معهد العلاج الطبيعي في بلاده، لكنه اضطر إلى ترك دراسته والتخفي بدُون مال أو مستقبل.

عندما اجتمعنا في الدّار البيضاء سنة ٢٠١٣، لم أستطع تصديق أن حبيب في الثّانية والعشرين من عمره. فهو يبدو رجلًا أكبر سنًا، يظهر عليه المرار والإرهاق ويسيطر عليه خيبة الأمل خاصة من الأصدقاء الّذين أطلقوا على أنفسهم لقب الليبراليّين ونشطاء حقوق الإنسان لكنهم تخلّوا عنه، متهمين إياه بتشويه قضيتهم والقيام بأعمال «استفزاز لا داعٍ لها» ومُدّعين أن العالم، أو المغرب على الأقل، ليس جاهزً لتقبّل هذه الأفكار. ويقول حبيب مُعلقًا على هذا «إن لم يكن هناك أبدًا من يفكّر أن العالم **جاهز**، فإن العالم لن يكون جاهزًا على الإطلاق. وشخص ما يجب أن يكون أوّل من يفصح. أريد الحريّة وأنا ما أزال على قيد الحياة».

أصبح حبيب ملحدًا في سن الرّابعة عشر. خلال دروس القرآن، أخبره المعلم حكايات عن عذاب القبر ونار جهنم، ما جعله يرى كوابيس لا تنتهي. يقول «كنت سأفعل أي شيء للتحرّر من هذا الخوف، في النّهاية، لم يكن لدي أي خيار سوى رفض القرآن نفسه. وذات ليلة قلت لنفسي، 'لا يوجد إله. والقرآن مُجرّد كتاب

كتبه رجل ما في الصّحراء'. والاعتراف أمام نفسي بهذا جعلني أتحرّر، ولم أعد أرى الكوابيس أو أشعر بالذّنب منذ ذلك الحين».

ولأن ترك الدّين كان سهلًا جدًا بالنّسبة له، لا يستطيع حبيب أن يفهم لماذا يجعل الملايّين من المؤمنين حياتهم أكثر صعوبة باسم الله الّذي يراه هو إلهًا وهميًا، حتى إنّ البعض من الّذين أتوْا من خلفيات مثل خلفيته يقتلون الآخرين. يقول «إن الدّين هو أحد أشكال المراقبة، والمراقبة تؤدي للارتياب والبارانويا والشّيزوفرينيا. فَلَو ألقيت مُجرّد نظرة على مجتمعنا، تجد أن معظم أبناء الشعب مختلين عقليًا أو نفسيًا بدرجات متفاوتة».

المغرب هو موطن لعدد كبير جدا من الملحدين، لكن معظمهم يتحرّك تقريبًا -بشكل حصري- على الإنترنت. إن الملحدين الّذين يُظهرون أنفسهم بشكل علني يتعرضّون للاضطهاد على الفور، فالإيمان الّذي يَدّعي أنه يملك الحقيقة المُطلقة غير قادر على تحمّل أدنى انتقاد. ويتساءل حبيب: «إذا كان هناك إله، هل سيُمانع حقًا إن لم أؤمن به؟»، ويُضيف قائلًا «في نِهاية المطاف، القضيّة هنا هي القوة الّتي تُمارس من قبل أولئك الّذين يحكمون ويعملون ويتاجرون باسم الله. الدّين هو أساس النّظام الملكي في المغرب، وملكها يكتسب الشّرعيّة من كونه **أمير المؤمنين** فأي شخص يَشك في الدّين فهو يُشكّك أيضًا في حقّ الملك الإلهي في الحكم. مع أن رأي الملك في الإسلام قد يكون مثل رأيي» يضحك حبيب ثم يستطرد قائلًا «لكنه لا يمكنه

الاعتراف بذلك. بصراحة، لماذا عليه أن يعترف؟ إنه يستفيد من جهل النّاس أكثر من أي شخص آخر».
قال لي حبيب إنه قبل عدّة أسابيع طلب مساعدة قانونية من أحد أصدقائه في مجموعة عالميّة لحُقوق الإنسان. أوضح له صديقه آسفًا أن ليس هناك أي شيء يمكنهم القيام به، ثم أوصاه أن يرى طبيب نفساني ليكتب له شهادة أنه مضطرب نفسيًا حتى يحصل على البراءة، كما نصحه أن يقوم بكتابة «لا إله إلا الله» على صفحته في الفيسبوك وإعلان توبته، مشيرًا إلى أنه لم يتبقَّ هناك أية وسيلة أخرى لإنقاذه. عاد حبيب إلى مخبأه وهو يشعر بالتّعب والضّياع، وفتح كمبيوتره المحمول في أوّل فرصة وأعلن عبر صفحته على الفيسبوك «لا إله إلا ميكي ماوس!».

الفصل العاشر

السّلفيّون والجهاديّون والفاشيّة الإِسلاميّة في أوروبا

شهدت لمياء قدّور وطن آبائها وهو يُساق إلى ساحة المعركة ويتورّط فيها. وُلدت لمياء قدّور لأسرة سوريّة، وتعمل كمدرسّة تربية إسلاميّة في ألمانيا، هي تتابع تفكُّك وطنها بحزن، فالنّزاع الّذي يمزّق الوطن وحشي، ولكن مع مرور الوقت لم يعد واضحًا مَن يهاجم مَن ولماذا. هل ما زال بإمكاننا الإشارة إلى أن الحرب في سوريا حربٌ أهليّة، أم أن النّزاع الآن أصبح حربًا بالوكالة؟
لا يتلقّى المقاتلون اليوم في سوريا الأوامر من حلب، أو دمشق أو حماة، بل من طهران والرّياض والدوحة وأنقرة وموسكو. ويأتي المقاتلون من لبنان والعراق والكويت والجزائر والمغرب، في الواقع من جميع أنحاء العالم. إن مُعظم جنود الدّولة الإسلاميّة (داعش) يأتون من تونس؛ إنهم أبناء الدّولة الّتي قامت بإطلاق شرارة الرّبيع العربي، ومن المملكة العربيّة السّعوديّة، مؤيّدة الغرب في «الحرب على الإرهاب». ويأتي آخرون من بلدان مثل ألمانيا وبلجيكا وفرنسا. وتُقدّر وكالات الاستخبارات الأمريكيّة في أواخر ٢٠١٣م إنه منذ بدء الصّراع غادر آلاف الألمان الإسلاميّين البلاد للجهاد في سوريا. ويقدر الرقم من أوروبا ككل بحوالي عشرة آلاف شخص.

اليوم تحولت سوريا إلى مفرخة للإسلاميّين، وأصبحت نُقطة جذب الجهاديّين الباحثين عن المغامرة، بقدر ما كانت عليه العراق منذ عدّة سنوات قليلة.
أصيبت لمياء بذّعر الشديد حين علمت أن خمسة من تلاميذها، وهم شباب لم يظهر عليهم من قبل أي اهتمام بالإسلام، انضموا

لحركات الجهاد السّوريّة. وأخبرتني «لقد كان لديهم صديقات، وعلاقات جنسية، كانوا جميعهم يحتسون الخمور ويتعاطون المخدرات، وبالتّأكيد لم تكن سوريا تشكّل أي جزء من حياتهم أو اهتماماتهم. حتى إنّهم ليسو عرب! كان أربعة منهم أتراك، والخامس كان ألباني».

كيف انتهى المطاف بخمسة شبان من شمال الرّاين أن يصبحوا جهاديّين مسلَّحين في سوريا، ومن الشخص أو الشيء الّذي جعلهم يقومون باختيار هذا المصير؟ تقول قدّور «أعتقد أنهم لا يفهمون سبب الصّراع». وتُضيف «حتى إنّهم رُبّما لا يأبهون به، المهم هو أنه يمنحهم قضية وأهمية ما». لدى كل واحد من هؤلاء الخمسة مؤهلات دراسيّة لكنهم واجهوا صعوبة في إيجاد عمل. «إذا كنت شابًا في السّابعة عشر من العمر وهرمونك الذّكري **التّستوستيرون** مشحون وتناسب كافة الصّور النّمطيّة، أي أنك مسلم ومهاجر وتعيش على هامش المدينة، سوف ينتابك الشّعور أن التّمييز يُمارس ضدك، بسبب خلفيتك وأيضًا بسبب واقع مجتمعك. إذا كنت بالفعل تشعر أنه تمّ التّخلي عنك وليس لك من يرشدك، لما لا يكون ردّك على هذا هو العنف؟».
لدى كل شاب من هؤلاء الخمسة سِجّلات جنائيّة، بعضهم متهم بجرائم كثيرة، سواء كانت اعتداء جسدي أو سرقة أو حيازة مخدرات. تُخمّن لمياء أنه رُبّما قام أحد السّلفيّين الملتزمين بالدّخول إلى حياتهم، شاعرًا بعجزهم ويأسهم، قدمًا لهم «عملًا ذا معنى بعد الظهر». وخلافًا لما يقوم به بقيّة مجتمعنا الّذي يعتبر مثل هؤلاء الشّباب عبء، قد يكون هذا الشخص السّلفي

قام بجعلهم يروْن مدى قيمتهم، بأن قال لهم إن الإسلام بحاجة إليهم، أو أن لديهم القدرة على تغيير العالم، مُعزّزًا بذلك ثقتهم بأنفسهم ومُعطيًا لهم معنى لحياتهم.
في ألمانيا وأماكن أخرى في أوروبا، يملأ السّلفيّون وغيرهم من السّلالات الأصوليّة هذا الفراغ. وفي الغالب فإنهم أوّل من يشعر بمأساة هؤلاء الشباب وإمكانيّة تجنيدهم واعدين إياهم بحياة مليئة بالإثارة والإنجازات. بينما يتحوّل العالم بسرعة فائقة، وحيث لا تعبأ الرأسمالية بالضعفاء، فإن الدّول الأوروبيّة تفشل في تلبية احتياجات بعض أبناء شعوبها، فيتخلّف الآلاف ويُتركون غير قادرين على اللحاق بالمجتمع، مُتجرّدين من كل من التّوقعات الماليّة والتّوجيه المعنوي والنّفسي. فيقوم السّلفيون بتقديم بنيّة حياتيّة لمثل هؤلاء الشّباب، عبر تشجّيعهم على الصّلاة الجماعيّة خمسة مرّات في اليوم وعلى مشاهدة فيديوهات لسلفيين سعوديّين أو مصريّين معروفين أو لسلفيّين ألمانيّين مشهورين أمثال بيير فوجل الذي أطلق على نفسه إسم: أبو حمزة. ويختلف السلفيون الجدد في أوروبا عن السلفيين التقليدين، فهم لا يتحدثون بلغة عربية فصحى بل يستخدمون لغة الشارع، ولا يقضون كل النهار في قراءة كتب ابن تيمية وابن القيم بل يستخدمون الانترنت وينتجون أغاني راب تشجع على الجهاد والتمسك بالشريعة وترك عالم المخدرات والجريمة، وبذلك يصلون إلى الشباب بسهولة.

يُعجب الشّبان -مثل تلاميذ لمياء السّابقين- بالشّخص السّلفي. فهو نموذج يُحترم داخل مجتمع المهاجرين. فهو الشّخص الّذي

تمكّن من تحقيق الصورة النمطية المثلى بالنسبة لهم، عن طريق إطلاق لحيته. حتى أن بعضهم يهرب من عالم الإجرام إلى السلفية كي يطهر نفسه ويستعيد احترام المسلمين له! تقول لمياء قدور «هؤلاء الفتيّة يريدون ذلك، من النّاحية الاجتماعيّة والدّينيّة، ومن ناحية الهوية، جُل ما يريدونه هو أن يحافظوا على نقائهم واحترام الآخرين لهم».

كان أبو إسحاق الحويني بمثابة المرشد للسلفي الألماني بيير فوجل، ذلك خلال زياراته المتكرّرة إلى السّلفيّين في ألمانيا. وتعتبر السّلطات الألمانيّة الحويني شيخ معتدل بينما تصنف فوغل وأقرانه أنهم متطرّفون ولكنها تفرق بشدة بين السّلفيّين والجهاديّين، ومثل رئيس جهاز المخابرات السّويسري تزعم سلطات الألمان أن المجموعة السّابقة غير عنيفة، لأن فوجل واتباعه يعلنون باستمرار أنهم مُعارضون للإرهاب.
والسّؤال هنا هو «متى تصبح الأيديولوجيّة عنيفة؟».
تعتبر لمياء قدور رائدة مُسلّمة تقدمية في ألمانيا، فأسّست الجمعيّة الإسلاميّة الليبراليّة في البلاد كمنبر لمعارضة التّيارات المتطرّفة في الإسلام. وأتصوّر أنها كانت هزيمة مريرة لها أن حين انشق خمسة من تلاميذها على أفكارها متجهين إلى السّلفيّة ثم إلى الجهاد في سوريا. ترفض لمياء تقسيم سكان العالم إلى مؤمنين وكفّار، وتنحاز مع علماء الدّين الإصلاحيّين مثل مهند خورشيد، أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة مونستر، الّذي يسعى للتوصّل إلى فقه إسلامي يُناسب القرن الحادي والعشرين، إنه يعمل على إبراز صورة إله الخير والمحبّة التي يتحدّث عنها

الإسلام، بدلًا من صورة الإله المهووس بالعقاب، لكن يبدو أنها ستبقى مُجرّد أمنيات فهو لاجل ذلك يواجه ما يواجه من الإسلاميين.
خورشيد شاب جاد في السّعي الدّؤوب للإصلاح، وقد هزّ الجماعات الإسلاميّة الألمانيّة بما فيه الكفاية بسبب جهوده حتى إنّ العديد منهم طالب بمنعه من تدريس الإسلام في الجامعات الألمانيّة، فالطُّلاب الّذين يتعلمون على يديْه اليوم، في النّهاية هم من سيقومون بتشكيل تعاليم الإسلام غدًا، سواء كمعلّمين في المدارس الألمانيّة وكوعاظ في مساجد البلاد. إن نهجه متسامح مع الدّيانات الأخرى، وهو يقول إن اليَهُود والمسيحيّين وأتباع سائر الدّيانات يمكنهم أن يكسبوا رحمة الله وجنته إذا كانوا يعيشون حياة أخلاقية بلا ظلم أو عدوانية. حتى إنّ خورشيد قد وجد ما يدعم هذا في القرآن. واعتمادًا على كيفيّة تفسير القرآن، فإنه من المؤكّد أنه يمكن العثور على آيات تدعم الخير والتسامح ومكارم الأخلاق. وهو ما تؤيده السورية لمياء قدور، أما السلفي الألماني بيير فوجل فأعلن في تغريدة له على الإنترنت «إن أي شخص يقول إن اليَهُود والنّصارى ليسوا كُفّار فهو نفسه كافر».

الخطوة الأولى للعُنف

يقول بعض السّلفيّين إن «كافر» هو مصطلح غير مؤذٍ، وهو يُشير ببساطة إلى أي شخص من عقيدة مختلفة. إن المُسلِمين أنفسهم، يشكّكون في ألوهيّة المسيح وفي صحّة قانون الشّعائر اليَهُوديّة، وهم بذلك «كُفّار» من المنظور المسيحي واليهودي.

وهو كلام صحيح على مستوى اللغة خاطئ على مستوى الإصطلاح، واللغة إصطلاح "ما يتفق عليه مستخدمو اللغة"، بالتالي ترديد مثل هذا الكلام ما هو إلا مغالطة سفسطائية، ولكي يفهم الإنسان مدى خطورة مصطلح **كافر** على حقيقته، عليه الاستماع لكلام الحويني عن **الكُفار**، ناقلًا عن القرآن تمامًا كما يفعل خورشيد الذي يقول إن الإسلام هو دين الرحمة، فيقول في تسجيل له «الكافر أقل من الحيوان» ويسأل الحويني «وما الّذي نفعله مع الحيوانات؟ نركبها. نأخذها إلى السّوق ونبيعها، أو نذبحها».

إن كلمة **كافر** ليست مجرد وصف لمعتقد شخص بل هي تشتمل إدانة هذا الشخص في نفس الوقت. إن نطق كلمة **كافر** كفيل باتخاذ أُولى خطوات العُنف ومعاملة الّذين لهم معتقدات أو أفكار مختلفة مثل الحيوانات ويُمهد الطريق لأعمال الإرهاب والقتل المختلفة. تنتشر فيديوهات كثيرة على الإنترنت لجنود الدّولة الإسلاميّة وهم يذبحون ضحاياهم مع صيحات «الله أكبر»، وهذا ما يقوم بفعله الجزّارون الحلال أثناء ذبحهم الحيوانات وفقًا للشريعة الإسلاميّة وهم ينطقون كلمات التّكبير ذاتها. قد لا يؤيّد دعاة مثل **فوغل** العُنف علنًا، لكن وجهات نظرهم الاجتماعيّة ومعاملتهم للآخرين تُشَرّعِن هذا العنف، ما أن الإطار الفكري وراء الإرهاب الإسلامي يعزّز وجهة نظري في ضرورة حظر الجماعات السّلفيّة، بلا استثناءات، ولا تحفظات، كما تحظر الأحزاب الفاشية. إن التّاريخ الفاشي يشهد بأن الأعمال الوحشيّة بدأت بالكلمات، وهل يوجد ما هو أكثر فاشيّة من تسمية البشر بالحيوانات التي تستحق الذبح؟

بالطبع أنا لا أستطيع أتهام كل السّلفيّين إنهم جهاديّين، بالمقابل لا أحد يستطيع إنكار أن جميع الجهاديّين بدأوا من السّلفيّة.

عندما أعدمت الدّولة الإسلاميّة الطيار الأردني معاذ الكساسبة بحرقه حيًا، قام أعضاؤها بالاستشهاد بأقوال ابن تيميّة، في كتابه **الصّارم المسلول على شاتم الرّسول**، أن الواجب الدّيني على كل مسلم أن يقتل كل من يشتم الرّسول مُستشهدًا بمئتيْن وخمسين دليلًا من حياة محمد نفسه: وإلى يومنا هذا، يُعتبر ابن تيميّة هو رمز وأيقونة السلفيّة، وغالبًا ما يستشهد علماء وأمراء الجماعات الإسلامية بأقواله أكثر من استشهادهم بالقرآن ذاته.

لم يكن حديث الحويني عن ذبح الكفار حديثا عابرا أو مقتطعا من سياقه، إنما هو نتاج عقلية متخلفة "بالمعنى الحرفي للكلمة" فالجل في تسجيل أخر يقدم حُلول مبتكرة للركود الاقتصادي في العالم الإسلامي، مقترحًا تجديد الفتوحات العسكريّة ضد الكُفّار، والاستيلاء على ممتلكاتهم، وبيع نسائهم وأطفالهم كعبيد. الرجل يدعو علنا في القرن الحادي والعشرين للقضاء على الفقر في بلاده عن طريق احتلال بلاد أخرى وبيع شعبها كعبيد! فإذا لم نعامله معاملة الفاشي فمن الواجب أن ينال معاملة المجنون.

أظهرت معاملة الدّولة الإسلاميّة (داعش) للمسيحيّين والأكراد واليزيديّين في سوريا والعراق كيفيّة تنفيذ هذه الأفكار بالفعل على أرض الواقع. وكيف ينفخ السلفيون الأنا الخاصة لأتباعهم ويعوضوهم عن عقدة النقص من جهة، ويعطوهم حلولًا

اقتصادية وسياسية بسيطة لمشاكلهم من ناحية أخرى. فليس على الشاب أن يذاكر دروسه أو يجتهد ليحقق نجاحًا ماديًا، ولا أن يقضي العمر كله يبتعد عن المعاصي كي يدخل الجنة، فقط عليه الالتحاق بالجهاد وهكذا يضرب عصفورين بحجر واحد وينال سعادة الدنيا والآخرة.
إنّ مقاطع الفيديو للحويني وأمثاله بما يقدموه من أفكار فاشية هي المحتوى النّموذجي بالنّسبة للمُجنّدين السّلفيّين، بالإضافة إلى أفلام وصور لضحايا المُسلِمين والمجاهدين في المعارك. قالت لي لمياء قدّور «بسبب تلك الأفلام، يظن الشّباب الّذين ليس لديهم فكرة عن الوضع السّياسي في المنطقة أن المُسلِمين يتعرّضون للقمع وأنه لا بد من محاربة هذا. دائمًا ما يردد الإسلاميون خطاب المظلومية هذا وبغض النّظر عن المكان الّذي يعيشون فيه في العالم، فالمُسلِمون مُضَّطهَدون بشكل دائم، والحرب المسلّحة هي الحل المُجرَّب والمُمتحَن».
هذا المزيج القاتل من الشعور بالهوان وجنون العظمة أصبح الآن بمثابة المحرّك الأقوى للإسلام السياسي، فالصراع بين الإسرائيليّين والعرب، أو في مناطق الحُروب مثل البوسنة والشّيشان والعراق والآن سوريا تغذي المظلومية والغضب الذي يعتمد عليهما الإسلاميون لتجنيد الشباب. وهم يعطون هؤلاء الشباب الانطباع أنهم قادرون على تغيير العالم كله.

ثلاثة أشكال من التّطرُّف

في مقال نُشر لي عام ٢٠٠٦م بشأن تطرُّف الشّباب الألماني المُسلِم، مَيَّزتُ بين ثلاثة أشكال للتطرُّف. الأوّل «التقليدي

المحافظ»، وغالبًا نرى هذا الشّكل بين المهاجرين القادمين من الأرياف ومن الأقاليم التي تتسم بالسُّلطة الذّكوريّة حيث المستوى التّعليمي مُتدني والعادات القبليّة الّتي عفا عليها الزّمن لا تزال مفعلة. وهذا التّطرُّف في حد ذاته ليس بالضّرورة دينيًا، إلا أنه في كثير من الأحيان يُوظِّف الأفكار الدّينيّة لتبرير بعض الآراء والمُمارسات. فالعُنف الّذي يخلقه هذا النّوع من التّطرُّف نادرًا ما يكون خارجيًا مُستهدِفًا الأوروبيين، إنما هو موجه بشكل مباشر «للمرتدين» من أبناء الجالية المسلمة (خاصة النّساء)، الّذين يقعون فريسة للعنف الأسَري خوفًا بدعوى الحفاظ على سلامة واستقرار صُورة العائلة! فالشخص «المحافظ» يراقب أبنائه وبناته مراقبة لصيقة وعلى استعداد لارتكاب « جرائم الشّرف» بل والزّواج القسري.

أما الشّباب الّذين تربّوا تربية هشّة هم -بشكل خاص- عُرضة للتطرُّف من النّوع الثّاني، أُطلق عليه اسم «تطرف الهُروب»، فهؤلاء الشّباب لا تتوافر لهم معايير معيشيّة ملائمة، لا من قِبَل أفراد الأسرة ولا من الجالية المسلمة الأوسع ولا من مجتمعهم الأوروبي. فظروف الإحباط والاغتراب والبطالة كلها أسباب تدفع الشّباب، على وجه الخُصوص، للهروب من ظروف الأسرة القاسية فيلجأوا إما للإجرام والعُنف، أو للجماعات السلفية. فأحدهم يوفر المهابة والأخر يوفر الاحترام وكلاهما يوفرا المال. وفي حين يوصم المجتمع الشباب أنهم غير فعّالين بل عبأ على المجتمع، تعطي الجماعات السلفية هؤلاء الشباب الشعور بأنهم جنود الله وأن الإسلام يحتاجهم ليعود إلى مجده القديم. وسواء في منطقة نويكولن في برلين، أو في حي

نوريبرو بكوبنهاجن، أو في مدينة مالمو السّويديّة، سواء في بروكسل، أو برمنجهام أو في ضواحي العاصمة الفرنسيّة، تنتشر هذه الظاهرة بنفس الطريقة في كل مكان. وهذا التّطرُّف تحركه بالأساس العادات القبلية والوضع الاجتماعي، ثم يأتي الدين ليضفي عليه شرعية أكبر.

والفئة الثالثة هي أتباع «**الطلائعيّة الدّينيّة**» الذين يميلون للابتعاد عن المساجد التّقليديّة، ويُظهرون أنفسهم كرُوّاد لثورة دينية ومجتمعية. هذا الشّكل من أشكال التّطرُّف يبدو أنه يجذب الطُّلاب العرب ومعتنقي الإسلام من الألمان، مِمَن لا يرتدون الملابس الإسلامية التقليدية ويفضلون الظهور بصورة المسلم العصري المستنير والإصلاحي، لذلك يميلون إلى الالتحاق بجماعة الإخوان المسلمين وحزب إردوغان وجماعة النهضة التونسية والعدل والإحسان المغربية.

في الماضي كان هناك فرقٌ بين السلفية العلمية والسلفية الجهادية، حيث كانت السلفية العلمية تعتبر أن السياسة نجاسة وتنصح أعضائها بعدم الاقتراب منها. السّلفيون العلميون كانوا يتوقون إلى تغيير المجتمعات الإسلاميّة من خلال الوسائل الأخلاقيّة بدلًا من السّياسيّة.

لكن التنافس المتصاعد بين الوهابيين السّعوديّين والملالي في إيران محا هذا الفرق تقريبًا؛ فكلا القُوّتيْن الشّرق أوسطيتيْن كانتا ولا تَزَلا نشطتيْن في النّزاعات العربيّة الكثيرة، فالحرب بالوكالة بين أتباع الطائفتيْن تُشعل دمارًا أكبر في اليمن وفي سوريا. فبينما يؤيّد النّظام الإيراني الرّئيس السّوري بشّار الأسد تقف المملكة العربيّة السّعوديّة مع المتمرّدين الإسلاميّين،

فالسّلفيّون من الدّول الإسلاميّة والغربيّة على حد سواء، حتى أولئك الّذين لم يكن لديهم فيما سبق يد في الصراعات السياسية والعسكرية، يقومون اليوم بحشد وإرسال المقاتلين بطلب من السّعوديّة لإبقاء إيران قيد السّيطرة. وفي حين كانت الأقليات الشّيعيّة تتمتّع بقرون زمنية طويلة من التعايش السّلمي تحت الحُكم السّني في دول مثل باكستان ومصر أصبحت الآن هذه الأقليّات تتعرّض للهجوم من قبل السّلفيّين.

في الماضي كان يتوجّب على السّلفيين الخُضوع لسنوات في دراسة القرآن والفقه والتفسير قبل الاعتراف بهم في الأوساط الدّينيّة. لكن السّلفيّة اليوم لا تتمسّك بهذه المعايير، فتخلت عن نخبويتها وأصبحت تنفتح على الشباب ولغته ومشاكله اليومية في خطاباتها للاستفادة من إحباطات الشّباب المُسلِمين في كل من العالم الإسلامي والغربي. الآن أصبحت أبواب السّلفيّة مفتوحة للجميع، من الّذين اعتنقوا الإسلام ومن المجرمين والعاطلين عن العمل، وأصبحت دورة واحدة مكثّفة في الإسلام كافية لتحل محل التّدريب الطويل الّذي كان يستغرق عشرات السّنين، وكل من يكمل هذه الدّورة السّريعة يصبح في غضون أسابيع مؤهَّل للقتال كأي جهادي على أكمل وجه. وعلى ما يبدو فلم يعد الآن الخط الفاصل بين تطرف الهُروب وبين الطلائعيّة واضحًا وأصبح الشّباب الألماني أو التركي أو العربي يذهب إلى الجماعات التي تتحدث لغته وتعطيه هوية واضحة وحلولًا عملية لمشاكله.

في حين كان الألمان يأتون إلى الإسلام في السّابق عن طريق التّصوف، منجذبين بشكل خاص إلى الروحانيات كهروب من

المادية والعدمية الغربية، أصبحت السّلفيّة اليوم، بسبب تصميم نفسها كحركة احتجاج، تتمتّع بنجاح أكثر في جذب المتحولين دينيًا. في شبابهم، كان بعض الألمان ينضمون إلى تيار اليسار أو إلى الجماعات اليمينيّة، كوسيلة للاحتجاج أو للتنفيس عن سُخطهم مع المجتمع والنّظام السّياسي الحاكم. ويبدو أن وضع السّلفيّة اليوم أصبح هو الأفضل بالنّسبة لشّباب الألمان في تضخيم حجم غضبهم وحقدهم على العالم من حولهم. فهم يعلنون «أنا لست مثلك»، في الماضي كانوا يلبسون تي شيرت عليه صورة تشي جيفارا كوسيلة للاحتجاج واثبات أنهم مختلفون، اليوم يرتدون الجلاليب البيضاء ويُطيلون اللحى لكي يوصلوا إشارة إلى مجتمعهم وكأنهم يقولون «استمع لي. عليك أن تخاف مني»، «أنا لست ضحيّة»، «أنا خطير».

لو قمنا بإلقاء لمحة سريعة على بريطانيا وبلجيكا وفرنسا وهولندا والدّنمارك اليوم، نجد أن هذه الظاهرة أصبحت نشطة، فالشّباب المُسلِم يعزلون أنفسهم، أكثر فأكثر، خارج مجتمعاتهم ويعيشون في عالم خاص بهم. يقوم السّلفيّون البريطانيّون أمثال **أنجم شودري** بالترويج للجهاد علنًا، داعين لسقوط الدّيمقراطيات الغربيّة وتشكيل دول إسلاميّة أوروبيّة. كما أنتجت المحاكم الشّرعيّة في وسط لندن نظام قضائي موازٍ، وباركت كنيسة إنجلترا محاكم الشريعة الإسلامية ووصفته أنه تعبير عن تسامح بريطانيا مع الأقليات. وكنائس ألمانيا تدعم منظمات الإخوان وأنصار إردوغان، ليس بسبب حُب للمسلمين، لكن لأنه يساعد المؤسسات المسيحيّة على الاحتفاظ بامتيازاتها القديمة واستمرار تأثيرها على نظم التّعليم والعدالة.

في ألمانيا، يعمل من يُسمّونهم بـ **Friedensrichter**، **قُضاة الصّلح** لكي يضمنوا عدم وصول النّزاعات بين المُسلِمين في نِهاية المطاف إلى المحكمة الألمانية: ويُثنى عليهم على نطاق واسع باعتبارهم شكلًا من أشكال الوساطة، لكن لو نظرنا من هم قضاة الصلح هؤلاء لوجدناهم تحالفًا غريبًا بين جماعات إجرامية عربية تشتغل بالمخدرات وغسيل الأموال وأئمة سلفيين وزعماء قبائل أتراك وجميعهم يريد الحفاظ على جاليات إسلامية مغلقة "جيتو" بعيدة عن القانون الألماني. كلهم يريدون ثقافة الصمت والترهيب أن تسود في الأحياء التي يسكنها المسلمون حتى يواصلوا أعمالهم غير القانونية بلا إزعاج. هؤلاء القضاة يحكمون بالعرف لا بالقانون، وينصفون الرجل على المرأة وصاحب النفوذ على الضعيف، ويجبرون المظلوم على تغيير أقواله أمام القضاء.

تحت شعار المجتمع المتسامح، يتم قُبول هذا الأمر الواقع في جميع أنحاء وسط أوروبا الّتي ترعى التّطرُّف وتُمزق المجتمعات وتشجّع ظهور المجتمعات الموازية. وخُطورة النّتائج المترتّبة هي أنها قاتلة، ليس فقط بالنّسبة للمرأة المُسلِمة وللمعتدلين الدّينيّين لكن أيضًا بالنسبة للأمن القومي وللتماسُك الاجتماعي لهذه البلدان. عادةً تميل المجتمعات والحكومات للتحرك بعد فوات الأوان، عندما يحكم المتطرّفون أجزاء كاملة من مُدُن مثل لندن بموجب القانون الإِسلامي، أو عندما تنفجر قنبلة في مكان ما، أو عندما يُقتل المارة الأبرياء في الشّارع.

باختصار إن الّذين يسمحون للسلفيّين أن بنشر خطابهم الملئ بالكراهية عن معاداة الدّيمقراطيّة ومعاداة الإنسانية، هؤلاء

ليس لديهم الحق بأن يتفاجئوا عندما تؤدي هذه الإيديولوجية إلى العُنف، فالديناميت يتم صناعته أولًا في قلوب وعقول الشّباب المُسلِم قبل أن ترتفع الأدخنة في قطار أو أحد الأسواق أو ملهى ليلي أوكنيسة أو تجمع للسائحين.

وقف تيّار التّطرُّف

مُعظم المُسلِمين في أوروبا هم أناس مسالمون وغير مسيّسين، هم ببساطة يريدون حياة كريمة لأنفسهم ولأطفالهم، والكثير منهم علمانيّون في الممارسة العمليّة حتى لو كانوا متدينين. كما وأن وجهة النّظر القائلة بأن المسلمين جميعهم إرهابيّون في انتظار الأوامر هي نظرة خطيرة بقدر ما هي خاطئة، لأن هذه الأغلبيّة الصّامتة هي الّتي نحتاج لسماعها والتعاون معها لمحاربة الإرهاب وتحقيق الاندماج، في الواقع فإن تعميم الاشتباه على المُسلِمين أو العداء الصّريح تجاههم يمكن أن يُحفز العُنف ضد المسلمين عن طريق جماعات اليمين المتطرف من جهة، ويحفز تطرف الشباب المسلم الذي يشعر بذلك أنه غير مرغوب فيه بالغرب من جهة أخرى. والغرب هنا يرتكب خطًأ فادحًا حين يدعم منظمات الإسلام السياسي ويتجاهل دعاة الإصلاح أمثال مهند خورشيد ولمياء قدور وغالبيّة المُسلِمين.

في مدينة دريسدن الشّيوعيّة سابقًا يوجد مقر لأحدث جماعة ألمانيّة معادية للإسلام اسمها PEGIDA وتعني باللغة العربيّة «أوروبيّون وطنيّون ضد أسلمة الغرب»، تدعو الجماعة إلى حملة لفرض القيود على الهجرة من الدّول الإسلاميّة. ولقد

شدّدت المستشارة الألمانيّة أنجيلا ميركل، في ردّها على تشكيل الجماعة قائلة إن «الإسلام هو جزء من ألمانيا»، وهو رد فضفاض وغامض، فهي لم تحدّد أي إسلام كانت تقصد. وهو السؤال ذاته الذي يوجه لي من المدافعون عن الإسلام حين أنتقد الإسلام، لكن أحد منهم لم يسأله حين أطلقت ميركل تصريحها، فهل كان الإسلام الّذي أشادت به ميركل هو إسلام الجهاد والشّريعة والفصل بين الجنسيْن، أو إيمان الجماعات الإسلاميّة المُحافظة الّتي يتم تمويلها من تركيا والمملكة العربيّة السّعوديّة أم أنها تُشير إلى إسلام الإصلاحيّين مثل مهند خورشيد!

في غضون أسبوع من تصريحات ميركل عن الإسلام، قام إسلاميّون مُسلحون بذبح موظّفين ورسامين في مكاتب تشارلي أبدو. وتواجدت ميركل نفسها في مسيرة حاشدة لحريّة التّعبير والتّضامن مع فرنسا أمام بوابة براندنبورج في برلين. الغريب أن رجال الدّين الإصلاحيّين مثل خورشيد ومنتقدي الإسلام لم يتم دعوتهم لهذه التظاهرة، بينما ظهر رموز من الجماعات الإسلاميّة المحافظة بجوار المستشارة الألمانية، نفس الرموز التي تعارض باستمرار الجهود الرّامية إلى إصلاح الإسلام وخطابه الديني، داعين إلى إعادة فرض قوانين إزدراء الأديان في ألمانيا.
أفهم جيدًا أن المُسلِمين «العاديّين» لا يريدون التّعرض المستمر للاستجواب فيما يخص إيمانهم (على الأقل الأجزاء البغيضة منه)، بعد كل عمل إرهابي. وأفهم أن الطلاب المُسلِمين في كولونيا أو برلين أو باريس أو لندن لا يتحمّلون أيّة مسؤوليّة

عن الأعمال الإرهابيّة في أفغانستان أو رجم النّساء في إيران أو حتى العمليات الإرهابية في أوروبا. لكن حين ينزل المسلمون إلى الشّوارع بأعداد كبيرة للاحتجاج على الرّسومات الكاريكاتوريّة المسيئة لمحمد والأفلام المعادية للإسلام ومنع الحجاب في فرنسا، فإنا أتوقع منهم المثل ضد تنامي نفوذ الجماعات الإسلاميّة والسّلفيّين وضد خطاب الكراهية ودعاوى الجهاد في المساجد.

إجمالًا، يقوم المُسلِمون المحافظون بتنظيم المجموعات الكبيرة أكثر بكثير ما يقوم به المُسلِمون التّقدميّون الّذين لا يتوقون للسُلطة والنّفوذ بنفس القدر. وتقوم الجماعات الإسلاميّة المتشدّدة باستغلال هذا الأمر مقدِّمين أنفسهم على أنهم واجهة الإسلام وممثّلوه، ولا يتجرّأ أحد على التصدي لهم، لا الدولة ولا المسلمين المسالمين. هناك مناقشات تدور حول التّعليمات الدّينيّة الإسلاميّة، منها إعفاء طالبات المدارس المُسلِمات من دروس السّباحة، والسّماح للقاضيات والمعلّمات وموظّفات الخدمة المدنيّة بارتداء الحجاب، وكانت جماعات الإسلام السياسي هي التي تقف خلف هذه المطالب وتوفر المحامين والأموال لهذه الحملات. لماذا؟ الصلاة فرض من فروض الإسلام والحجاب ليس فرضًا، فلماذا لا يقومون بحملات لاقناع المسلمات في الغرب بالمواظبة على الصلاة، لكنهم يريدونها أن ترتدي الحجاب؟ لأن الحجاب هو راية الإسلام السياسي وله تأثير نفسي على المسلمين، ويجهزهم لفكرة تطبيق الشريعة. نفس السبب الذي جعل جماعات الإسلام السياسي في الدول العربية تدفع الملايين للممثلات والمطربات حتى يتحجبن.

وبعض الدول الغربية توافق على هذه المطالب من قبيل التسامح ولكن ذلك يساعد المتشددين على التحكم في الشباب والشابات من خلفية إسلامية وتجعلهم رهائن فكر رجعي.
في ألمانيا، الأمر معقد بعض الشيء، لأن الكنائس هناك تتمتع بامتيازات كبيرة في مجال التعليم والصحة والإعلام، كما تقوم الدولة بجباية الضرائب من كل مواطن مسيحي وتدفعها للكنائس. وهذا بسبب اتفاق قديم من القرن التاسع عشر، فحين قررت ألمانيا تبني العلمانية وتأميم ممتلكات الكنيسة قامت بتعويضها بهذه الامتيازات، ثم منحت بعد الحرب العالمية الثانية نفس الامتيازات لليهود الالمان كنوع من التعويض عن آلام المحرقة والاضطهاد في الفترة النازية. وبما أن هذه الامتيازات للجماعات الدينية مدونة بالدستور الألماني، فمن حق الجماعات الإسلامية المطالبة بنفس الامتيازات. وهكذا تساعد القوانين التي جاءت بالعلمانية أو تعويضًا عن زمن الفاشية على تقوية جماعات فاشية. هكذا يؤكد الإسلاميين مهارتهم على استغلال الوسائل الديمقراطية في مسعاهم لهدم الديموقراطية نفسها.

تزداد مجتمعات القرن الحادي والعشرين تنوعًا وتعدّدًا ثقافيًا يومًا بعد يوم، والمهاجرون هم أفراد قبل كل شيء آخر، يمتلكون حقوق واحتياجات فرديّة، مثل التّعليم والعمل والحقوق المدنيّة، وتلك الحقوق أهم من الحقوق الدينية الجماعيّة. ومن وجهة نظري هي لا تفيد المُسلِمين بل تجعلهم رهينة للمنظمات الإسلاميّة التي تزداد قوة سياسيَّة، فتسليم هذه المنظمات نفس

الامتيازات الدّستورية التي للكنيسة، في ظل تفشي الإرهاب ودعوة الإسلاميين لأسلمة أوروبا وتطبيق الشريعة، لا يُساعد على مكافحة كراهية المُسلِمين ولا صعود اليمين المتطرف، بل يُثير لهيب الخوف والاستياء وعدم الثّقة بهم. الجواب، على الأقل كما أراه أنا، هو بالتّحديد ليس إعطاء الجماعات الإسلاميّة نفس امتيازات الكنائس الألمانيّة، لكن أن تُنتزَع هذه الامتيازات من الكنائس وأن تعود هذه الأدوار العامّة للدولة. ما يعني أن ألمانيا تحتاج إلى علمانية أكثر.

أما عن التعليم الديني، ينبغي أن يكون واجب الدّولة هو ضمان توصيل المعلومات بدون انحياز، وتجهيز الأطفال بأدوات تساعدهم على التّفكير النّقدي وليس تقديم «حقائق» دينيّة جاهزة لهم، سواء عن طريق التّعليم الدّيني الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي. أنا لست ضد تعليم الدين في المدارس، لكن ضد التلقين الأيديولوجي للدين الذي يعلم التلاميذ الأساطير والخرافات على أنها حقائق. ضد أن ينفصل التلاميذ عن بعضهم ليتم تلقين كل مجموعة على حِدة حسب دينها. أنا مع أن يبقى كل التلاميذ معًا ويتم تلقينهم عن كل الأديان معًا، مع تقديم نظرة نقدية لتاريخ هذه الأديان وتعاليمها، باختصار تقدم بوصفها وجهات نظر مطروحة للجميع ليس كمسلمات لكل مجموعة. إن دعوة المُسلِمين لإعادة النّظر في نصوص دينهم وتقاليدهم يعني أيضًا دعوة الدّولة الألمانيّة إلى إعادة النّظر في علاقتها مع الكنائس في البلاد، فالتّركيز المفرط على الدّين، أي دين، يُعرّض الفكر الحُرّ والمجتمع المفتوح إلى الخطر.

الفصل الحادي عشر

رسم خريطة تضاريس الإرهاب

الإِسلامويّة والإِسلام والدّولة الإِسلاميّة

لقلّما وجدنا جماعة تُجسد كل أفكار وأساليب الفاشيّةَ الإسلاميّة مثل **الدّولة الإِسلاميّة** (داعش) الحالمة بيوتوبيا ثيوقراطيّة، فهي تمجد الحرب وتتعطّش للقتل والاغتصاب وتقوم باضطهاد الأقليات وتظهر كراهية عميقة لكل ثقافات البشرية. إن العالم المعاصر شهد بُعدًا جديدًا لخطر فكرة الجهاد مع ظهور أول دولة في القرن الحادي والعشرين ترتكز على مبادئ الشريعة وفكرة سمو الإسلام فوق كل الديانات. ومع ظهور داعش طفا على السطح سؤال: هل الدواعش يمارسون الإسلام الحقيقي أم يقومون بتزييف الدين لخدمة أهدافهم الخاصّة.

الإجابة على هذا السؤال تعتبر مشكلة سواء أجبنا بالنفي أو بالإيجاب. فلو قلنا إن **داعش** "لا" تمثل الإسلام، فمعنى ذلك أنه يمككنا مواصلة تدريس نفس نصوص الإسلام ونفس الآراء الفقهية القديمة وكأن شيئًا لم يكن، ولا داعي لأي إصلاح. لكن لو قلنا إن **داعش** "تمثل" الإسلام وتطبق نصوصه بضمير، فهي دعوة صريحة ومباشرة لكل شاب مسلم إما أن يترك الإسلام أو أن يلتحق بداعش. لقد أصابت الأعمال الإجرامية لداعش الكثير من المسلمين بالذعر من الإسلام المسلّح وجعلتهم أكثر قابلية لفكرة مراجعة التراث ومحاربة الإرهاب باسم الدين. ولكن على الجانب الآخر فإن البعض منهم رأى في داعش بشائر تحقيق الوعد الإلهي. بانتصار الإسلام.

العُنف الإِسلامي يبدأ زحفه

عندما ظهرت الدّولة الإِسلاميّة في العراق صيف ٢٠١٤ وبدءت في التوسع، قام مؤيدوها بنشر خريطة متخيّلة لدولة

الخلافة في العالم، مدّعين أن أي مكان عاش به المُسلِمون، أيًا كان، سيصبح ملكًا لهم في غضون خمس سنوات. تحديدًا، شملت هذه الخريطة نصف آسيا وثلاثة أرباع أفريقيا، وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا، وطبعًا شبه جزيرة أيبيرية "الأندلس".
وفي شرحه لكيفيّة تحقيق هذا، أعلن أحد مقاتليها أن نصرة الإسلام «لن تنجح ما لم يكن هناك جثثًا مُشوهة وجمام مُحطمة». لاحقًا، وفي تسجيل صوتي، قام أبو بكر البغدادي، بالمُطالبة بأن يندلع الجهاد في جميع أرجاء العالم.
يقول أعضاء الدّولة الإسلاميّة لأنفسهم، إنه من شأن التوحّش أن يغيّر مسار التّاريخ وأن يحقّق حُكم الله على الأرض. يُمكن القول أن أحلام اليقظة للدواعش كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، فمُجرّد ثلاثين مرتزق لا يمكنهم القتال والانتصار على قوى عظمى، لكن التّهديد الّذي يُشكّله الإسلام السّياسي يكمن في أفكاره أكثر ما هو في جيوش ترفع رايته. حلم دولة الخلافة التي تحكم العالم هي صورة ذهنية محفورة في العقل الإسلامي الجمعي، والخطير أرتكاز هذا الحلم الرومانتيكي على فكرة أن الله ينصر الفئة القليلة لو كانت مؤمنة على الفئة الكبيرة لو كانت ظالمة. فجيش محمد كان جيشًا بسيطًا لكنه هزم كل جيوش الجزيرة العربية وجيوش الروم، وأصحابه وصلوا من بعده بجيوشهم إلى الهند والأندلس، هذه التركيبة مع عقلية تربت على إعلاء الخرافة على المنطق يصبح لدينا خلطة تجعل من كل ٣ أشخاص مشروع لتنظيم مسلح مؤمن بقدرته على تغيير العالم بالعنف.

لا شك أن معظم المُسلِمين يرفضون **الدّولة الإسلاميّة** وأساليبها الوحشيّة، بل يسخرون منها ومن أحلامها، لكن استطلاعات الرّأي تظهر أن الأغلبيّة ما زالت تؤيد إقامة الخلافة وتطبيق الشّريعة. وهذا الفصام في حد ذاته هو أخطر على المجتمعات الإسلامية من داعش والقاعدة وبوكو حرام مجتمعين.

وجدت الدّولة الإسلاميّة نفسها مرادفًا لمدينة فاضلة مثاليّة ثيوقراطيّة في المكان والوقت المناسب. سوريا والعراق أصبحتا دولتيْن فاشلتيْن في القرن الحادي والعشرين حيث انتهى وقت القوميّة والعروبة، والدّيمقراطيّة لم تصل إليهما يومًا، وأصبحتا أرضًا خصبة لمحاولات إحياء دولة النّبي الأصليّة. وعلينا ألا ننسى أن محمدًا رسم خريطة لا تختلف عن الدّولة الإسلاميّة، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطي، والشّاهنشاه السّاساني في بلاد فارس، والحاكم الرّوماني لمصر وملك الحبشة المسيحي، وقال لكل واحد منهم «**اسْلِمْ تَسْلَمْ**». وبعد موته بفترة وجيزة، أصبحت العديد من المناطق نفسها تحت الحكم الإسلامي. وبعيدًا عن داعش وهلاوسها، فإن هذا الحلم لا يزال يسيطر على وجدان المسلمين الذين يريدون أن يرثوا الأرض ومن عليها، ليس لأنهم قدموا للبشرية شيئًا لكن فقط لأنهم مسلمون.

أحلام السُّلطة المطلقة تُلطِّف الشعور بالمرار والعجزَ الّذي يشعر به كثيرٌ من المُسلِمين، ونفس الأحلام تقود الآلاف من الشّباب المسلمين إلى ترك أوروبا للذّهاب إلى سوريا والعراق. إن وعد الرّبيع العربي للحريّة لم يسفر عن أي شيء، والفاشية الدينية الشّرسة في تزايد مستمر رغم كل خسائر الإسلام

المسلح، لأن المُسلِمين الّذين يقاتلون من أجل الدّولة الإسلاميّة لم يكن لهم اسم ولا هدف في بلدانهم، سواء كانت مصر، تونس، الشّيشان أو الدّول الأوروبيّة مثل ألمانيا. وخلافًا لتنظيم القاعدة، الّتي تعتمد على تدريب الانتحاريّين، فإن الدّولة الإسلاميّة قامت بتجنيد الجنود، وقدمت لهم فرصة للذهاب إلى الهجوم وغزو الأراضي، تاركين القرن الحادي والعشرين بكل إخفاقاته من أجل العودة إلى القرن السّابع بكل أمجاده وانتصاراته! إنهم غير مؤهلين لأي شيء وليس لهم مستقبل في أوطانهم، إنما في العراق يمكنهم أن يصبحوا قضاة أو مُحافظين للمُدن الصّغيرة وأن يحكموها مثل السّلاطين، ويحكموا بالعفو أو يطلبوا الإعدام، فهم أسياد الحياة والموت. ومثل هذا العرض للسُلطة أثبت أنه عرض مُغرٍ جدًا بعد أن قامت الدّولة الإسلاميّة بغزو مساحات كاملة من العراق وسوريا في مُجرّد أشهر، تمامًا كما فعل المُسلِمون في القرن السّابع الميلادي. ومن بين ملايين الشباب المسلم الذين لم يلتحقوا بداعش الكثيرين ممن يعيشون في نفس حالة اليأس والعجز، وهي مسألة وقت حتى يظهر تنظيم جديد يعدهم بحلول شاملة لمشاكل الدنيا والآخرة.

ليس بالعلم أو التّخطيط وإنما بولاء صحابة النبي ﷺ والعمل بمشيئته تحقق نجاحهم العسكري. هذه هي نظرة الجهاديين. فالقرآن يقول «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ»، وفي أوروبا يقوم أنصار الشّريعة في كثير من الأحيان بالاستشهاد بهذه الآية كما يفعل حُرّاس الأخلاق في المملكة العربيّة السّعوديّة وإيران وشمال نيجيريا وإقليم باندا اتشيه الإندونيسي. هؤلاء الأشخاص يعتبرون

أنفسهم مُنفّذي القانون الإلهي، والمُسلِمين العاديّين يقبلون بسيادة القانون الدّيني بقدر ما يقبله الإسلاميّون أيضًا، ما سمح للدولة الإسلاميّة بالاستيلاء على مُدن يعيش فيها الملايّين ببضعة آلاف فقط من المقاتلين التّابعين لها.

كِتابٌ وسَيْف

زحف ميليشيات **الدّولة الإسلاميّة** قدم جانبًا جديدًا من الجهاد. في الموصل، أعلن أبو بكر البغدادي خلال ظهوره العلني الوحيد «لا أعدكم كما يعد الملوك والحكام أتباعهم ورعيتهم بالأمن والرخاء، كلا، إنما أعدكم بما وعد الله في القرآن عبادَه المؤمنين من نصر وتمكين في الأرض»، دعا البغدادي المُسلِمين لحمل السّلاح ضد الكُفّار، قائلًا «يُمكن للدولة الإسلاميّة أن توجد فقط عندما يتم تنفيذ شريعة الله. ومن أجل ذلك، نحن بحاجة إلى السُّلطة والقُوة، وإلى كتاب يرشدنا، وإلى سيف ينصرنا».

في عصرنا الحديث صار **السّيف** هو تنظيم **الدّولة الإسلاميّة** لكن الكتاب فهو **القرآن**، تمامًا كما كان دائمًا اسمه. بإلقاء نظرة سريعة على خريطة العالم الفعليّة يَتبيّن أن **الدّولة الإسلاميّة** ليست سوى أحد التنظيمات الإسلاميّة الّتي لا تعد ولا تحصى والتّي تنتهج نفس الأفكار، مشروعها إقامة خلافة يرن صداها في جميع أنحاء العالم العربي، حيث يوجد إسلاميّين في ليبيا والجزائر يُقسمون على ولائهم لقيادة البغدادي وحيث أصبحت جماعة أنصار بيت المُقدّس الإرهابيّة ومقرها سيناء هي الجناح المصري للدولة الإسلاميّة في نوفمبر ٢٠١٤م. يتلقّى التّنظيم

أيضًا دعمًا هائلًا من دول الخليج واليمن والأردن، والمغرب كما أن معظم مقاتليها جاءوا من تونس، مهد الرّبيع العربي.
في أماكن أخرى من العالم، لقيت العولمة الغربيّة ثلاثة أنواع من الردود؛ ردود إبداعيّة في آسيا، جعلت الصين واليابان وكوريا وتايون قوى عالمية، وردود رجعيّة رافضة في الدّول العربيّة، زادت من حدة العداء للغرب ومن الصراعات الداخلية، وردود سلبيّة في أفريقيا، جعلت القارة السوداء تبقى في ركود سياسي واقتصادي. وكانت الدّول الإسلاميّة مثل ماليزيا وإندونيسيا من بين أوّل الدول التي جنت ثمار الرّدود الإبداعيّة في آسيا، حيث كانت العلمنة والتّحديث ممكنيْن على الأقل بسبب التّنوع العرقي والدّيني هناك.
في أجزاء من ماليزيا، يُصبح التّعايش بين المُسلِمين وغير المُسلِمين، يومًا بعد يوم، أكثر عُرضة للخطر نتيجة للإصرار الدّيني على الشّريعة الإسلاميّة. في إندونيسيا، في حين أنه تمّ إدخال قوانين الشّريعة أولًا في **باندا اتشيه** عام ١٩٩٩م، وتمّ تطبيقها بِداية فقط على قواعد اللباس العامّة وقانون الأسرة، لكنها زادت عن ذلك لتشمل القانون الجنائي منذ عام ٢٠٠٩م. وأصبحت مُعاقبة المثليين جنسيًا وانتهاك قانون الفصل بين الجنسيْن هي الجلد، وعقاب الزّنا هو الموت رجمًا، وأصبحت شرطة الشّريعة تجوب الشوارع للقبض على المذنبين. والجماعة الإرهابيّة المُسماة **جماعة إسلاميّة** المسؤولة عن تفجيرات ٢٠٠٢م في بالي، تشهد نهضة جديدة، واعتُرف زعيمها رسميًا بالبغدادي كخليفة للدولة الإسلاميّة من داخل زنزانته في يوليو ٢٠١٤م، معلنًا دعمه الكامل له. إن الخارجين

على القانون من جماعة أبو سياف الإرهابيّة في الفلبين وأمراء الحرب الأفغانيّة يربحون من تجارة المخدرات في البلاد كما يستفيدون من الإسلام، ما يدل على أنه ليس بالضّرورة أن يكون الجهاد له دوافع دينية فقط.
تُخاطب قسوة الجماعات الإسلاميّة غضبَ المسحوقين ببلاغة كاملة في أفريقيا؛ القارة الّتي مازالت لم تستفد بعد من العولمة. في حين أن كلًا من الصّين والغرب استفادا من موارد إفريقيا الغنية، إلا أن كلاهما قاما بفرض حظر على الصادرات الإفريقية إلى أسواقهما، ويبدو أن الإسلام المتطرّف هو فقط الّذي يعطي صدى للغضب الأفريقي. ففي أفريقيا أيضًا، توفّر أحلام الخلافة مهربًا من واقع ميئوس منه، وأبلغ مثال على ذلك هم جماعة **بوكو حرام**، وهي جماعة إرهابيّة كانت في السّابق تستهدف فقط أقسام الشّرطة والمنشآت العسكريّة في نيجيريا، لكنها توسعت وكثّفت هجماتها منذ ٢٠٠٩م، بعدما قُتل مؤسِّسُها أ. محمد يوسف من قبل قوات الأمن، فقام انتحاري بتفجير نفسه مُدمّرًا بذلك مقر الأمم المتحدة النّيجيري في **أبوجا** ٢٠١١م. وُيقدر عدد ضحايا المجموعة عشرة آلاف أو أكثر، ومع ذلك فإن خبراء الإرهاب قلّلوا من خطورة الحركة، وأقرّ الغرب بالخطر فقط عندما خطفت **بوكو حرام** أكثر من مائتيْن وخمسين تلميذة، معظمهن مسيحيّات.

هذه مشيئةُ الله

حذت **بوكو حرام** حذو **الدّولة الإسلاميّة**، وأعلنت الآن عن خلافة خاصّة بها في ولاية **بورنو** شمال شرق نيجيريا. فشمال

نيجيريا دائمًا معقلًا للإسلاميّين، لكن **بوكو حرام** تُمثّل سلالة جديدة، خلاياها تعمل في جميع أنحاء البلاد ويبلغ عدد أعضائها اثنين وثمانون ألفًا. وعلى الصّعيد العالمي، تمّ ربط الجماعة بميليشيات **حركة الشّباب** في الصّومال، و**أنصار الدّين** في مالي و**الجماعات الإِسلاميّة** في كينيا وإريتريا. وعلى عكس **داعش،** ما زالت هذه الجماعات تنمو وتتمدد، حيث تتغير بؤرة الإرهاب من الشرق الأوسط إلى إفريقيا المنسية.

ما زال الإرهاب باسم الله يعبر الحدود الوطنيّة في جميع أنحاء العالم، فتقوم الحركات الإسلاميّة المتشدّدة بإعلاء الاختلافات العرقيّة والثّقافيّة، بنفس أفكارها وأساليبها الوحشيّة أينما تطل برأسها. في الماضي كان لكل جماعة من الجماعات الجهاديّة أجندتها الخاصّة، أما اليوم فهم يحتلون أراضي بعضهم البعض ويتنافسون على المؤيّدين. ورغم كل شئ تبقى **الدّولة الإِسلاميّة** رغم هزيمتها هي التجلي الأهم الذي يحتذي به الجميع، لم يعد أحد يكتفي فقط بمجرد عمل تفجيرات أو اختطاف رهائن، الكل يحاول خلق حقائق على أرض الواقع باحتلال المدن وفرض الشريعة في أسرع وقت. لقد وضعت انتصاراتهم العسكريّة والإعلاميّة المبكّرة باقي الجماعات المتناحرة، مثل **القاعدة،** في مأزق، حيثُ انشق الإسلاميّون في باكستان والجزائر عن تنظيم القاعدة وقاموا بإبرام تحالف مع **الدّولة الإِسلاميّة**. وبدون أحداث ١١ سبتمبر جديدة، أو بناء دولة خلافة تخشى القاعدة اليوم أن يتلاشى ذكرها.

هل ينبغي لنا أن نخاف من الإسلام؟ في ظل العداوة المتبادلة بين الجماعات الإسلامية المختلفة وعدم قدرتهم على خلق تحالف قوي يجمعهم تحت راية واحدة، قد يبدو الخوف مبالغًا فيه لكن الخطر الأكبر للإسلام المسلح لا يكمن في قدرته على غزو العالم، إنما في قدرته على تسميم الأفكار وشق الصفوف وتهديد التعايش السلمي. حتى لو انتهي المطاف بـ **الدّولة الإسلاميّة** بأن تكون إحدى هوامش تاريخ الشّرق الأوسط، وهو مصير بدأ تنظيم **القاعدة** يستسلم له بالفعل، إلا أن الفكرة والعقليّة ستعيشان في هذا المكان التعيس من العالم طالما لم يفتح أبوابه ومدارسه ومساجده لأفكار الحداثة والتنوير.
الاستسلام أو الخنوع هو المعنى الحرفي لكلمة **الإسلام**، وحتى يومنا هذا يعتقد الكثيرون من المُسلِمين أن الله يتجسّس على أعمالهم وأفكارهم لكي يُعاقب على كل خطوة خاطئة القليل منهم يُحافظ على جميع شرائع دينهم، وبطبيعة الحال العديد منهم يعتبرون أنفسهم مُذنبين ويخشون العقاب الإلهي ويتوقون إلى تطهير أنفسهم من الخطيئة، وهي رغبة تدفعهم ليكونوا ذوي عقليّة خاضعة ومستسلمة. إن أحد أعظم إنجازات الحداثة كان تحرير النّاس من فكرة وجود إله مُعاقِب، فسمح لهم التّنوير بالتّحرُّر من التّبعيّة والوصاية. ولكن الكثيرين من المسلمين لا زالوا يرفضون الحريّة والفكر النّقدي، مُعتبرين طاعة الله هي معنى الحياة. ولا توجد أمة واحدة تقدمت كان الخضوع ورفض الحرية هي أهم شعاراتها.
بقدر ما كان العالم يخاف من فاشيّي القرن العشرين كذلك له الحق في أن يخاف من الفاشيين الإسلاميّين. وفي حين هُزمت

الفاشيّة عن طريق عرقلة فتوحاتها العسكريّة وسحق جيوشها، كان لا بد من سحق أيديولوجيتها أخلاقيًا ومجتمعيًا أيضًا، حتى لا تصبح عودتها احتمالًا مخيفًا. طالب الخاسرون في الحرب العالميّة الثّانية بمشروع **مارشال** لإعادة إعمار وتطوير ألمانيا حتى لا تنتكس وتعود للفاشية أو أن تسقط فريسة للشيوعية السوفيتية التي احتلت ألمانيا الشرقية. والعديد من الدّول الإسلاميّة اليوم في حاجة إلى المشروع نفسه، غير أنهم يجب أن يحرّروا أنفسهم أيضًا من فقه العنف والخضوع وأحلام اليقظة. لو لم يصر الألمان على أن هتلر وأقرانه كانوا أشرارًا وأنهم ذوو معتقدات عنصريّة واضحة، لما كانت الفاشيّة قد هُزمت. وبالمثل، فإن المُسلِمين اليوم بحاجة إلى تحرير أنفسهم من الإسلام السّلطوي الذي يحرض على الكراهية ويقف عائقًا في طريق الفكر الحر.

الجزية الجديدة وأهل الذمة القدماء

كانت محطة التّلفزيون العراقيّة عشتار، تجري مقابلة مع فتاة مسيحيّة فرّت من الموصل للمدينة الكرديّة **أربيل** بعد اجتياح قوات **داعش** لمدينتها. وعلى الرّغم من أن هذه الفتاة فقدت كل شيء إلا أنها اعتبرت نفسها محظوظة لكونها مازالت على قيد الحياة، وصفت كيف اقتحم مقاتلو **الدّولة الإسلاميّة** منزلها، وقاموا بمنح عائلتها أربعة خيارات: الهجرة، دفع الجزيّة، اعتناق الإسلام، أو الموت. وبدون أخذ أمتعتها أو حتى جواز سفرها لاذت بالفرار من منزلها السّابق الّذي أصبح ملكًا **للدولة الإسلاميّة**. وقامت المرأة خلال المقابلة بتوبيخ الجهاديّين

المسؤولين: «ألا يقول القرآن ألا تدخلوا بيوتًا حتى تسلموا على أهلها؟» وتُكمل قائلة أن مطاردة المسيحيّين تتعارض مع دعوة النّبي محمد. بعدها بقليل، ظهر لاجئ مسيحي آخر بشكل مفاجئ أمام الكاميرا وقال، «هذا ليس هو الإِسلام الصّحيح!» فعلًا؟

إذًا كيف يبدو الإِسلام الحقيقي؟ وكيف تعامل الإسلام الأول مع المسيحيين في القدس وسوريا ومصر وشمال افريقيا؟

استطاعت **داعش** احتلال ثلث مساحة العراق وسوريا بعشرة آلاف مقاتل أو أكثر بقليل، في حين أن أكثر من مليون مسلم كانوا يعيشون في الموصل وحدها، والكثير منهم يحوزون الأسلحة، فلماذا لم نجد هناك مسلمين «حقيقيّين» عندما اجتاح الدواعش المدينة وطردوا جيرانهم المسيحيّين؟ هل من الممكن أن يكون ذكر «الإِسلام الحقيقي» فقط عندما يكون اسم الإِسلام بحاجة إلى تجميل أو تبرير؟

للأسف، إن معاملة **الدّولة الإِسلاميّة** للمسيحيّين تتم بتطبيق كل ما هو موجود في الإِسلام والقرآن والأحاديث النّبويّة وتاريخ الفتح الإِسلامي الّذي يمنحها ذريعة قويّة لأفعالها. في سورة الحشر (٥٩)، يقول القرآن إن الله نفسه هُوَ الّذي أَخْرَجَ «الّذينَ كَفَرُوا» مِن دِيَارِهِمْ، وقبيل وفاته أمر النّبي «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وكرر: لا يجتمع بجزيرة العرب دينان، أي أنه لا يسمح لأحد بالعيش في المنطقة باستثناء المُسلِمين. حتى إنّ الضّريبة الّتي تبتزها الدّولة الإِسلاميّة من المسيحيّين لها أساس صريح في القرآن، حيث تنص سورة التّوبة (٩)

«قَاتِلُواْ الّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيّة عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

بعد وفاة محمد بفترة وجيزة، قام خلفاؤه بغزو العراق وسوريا ومصر، والتّي كان معظم مواطنيها مسيحيّين. وبدلًا من إخراج الملايين من «الكفار» أو قتلهم، قامت السّلطات الإسلاميّة بوضع ضريبة الجزيّة كمصدر مركزي لدخلها، وتفرضها ليس فقط على اليَهُود والمسيحيّين ولكن أيضًا على الزّرادشتيّين، الّذين اعتبرهم الغزاة المسلمين موحدين فقط لأسباب اقتصادية. ومن أجل التّهرب من الجزيّة وغيرها من أشكال القمع، اعتنق كثيرون من المسيحيّين العراقيّين الإسلام في أواخر القرن السّابع، إلا أن الحجّاج بن يوسف الثقفي؛ لم يقبل دخولهم للإسلام وقام بإجبارهم على الاحتفاظ بحالة «الذّمي» (وبالتالي مواصلة دفع الجزيّة).

من بين أوائل مصادر التي تشرع قوانين أهل الذمة كانت **العهدة العُمَرية**، المنسوبة للخليفة الثّاني عمر بن الخطاب، والتّي وقّع فيها اتفاقًا مع المسيحيّين في القدس بعد غزو المدينة عام ٦٣٨م، وسمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وبمعتقداتهم، والعيش تحت حماية المُسلِمين. والمقابل الطبيعي المطلوب من المسيحيّين كان دفع الجزيّة ومنع بناء كنائس جديدة أو ترميم الكنائس القديمة، ومنع رفع الصّلبان، ومنع الرّكوب على ظهور الخيل، ومنعهم من حمل السّلاح وبناء المنازل أعلى من منازل المُسلِمين، فضلًا عن إلزامهم بتعريف أنفسهم من خلال الملابس وربط الزنانير على الخصر، وتسريحات الشّعر،

بحلق شعر الرّؤوس من الأمام وتسريح الشّعر بدون فرق... الخ.
واليوم عندما تقوم **الدّولة الإسلاميّة** بوضع علامة (ن) على منازل المسيحيّين لتمييزهم فهي لا تبتكر أفكارًا جديدة. بعد أن أصبح دور الشّريعة في الحياة العامّة بين القرنيْن التّاسع والحادي عشر دورًا ضئيلًا، أصبحت القوانين الذّميّة أكثر استرخاء، وبدأ التّعايش النّسبي بالظهور، ولكن الحروب الصّليبيّة في القرنيْن الثّاني عشر والثّالث عشر جعلت القوانين المناهضة للمسيحيّة أكثر تشدّدًا في مصر وسوريا، وتمّت مُعاقبة مسيحيي الشّرق الأوسط على جرائم الغزاة المسيحيّين القادمين من الغرب. وفقط في القرن التّاسع عشر وضعت الإمبراطوريّة العثمانيّة حدًا للسُلطة القضائيّة الخاصّة بالتّفرقة العنصريّة وألغت أحكام أهل الذمة ودفع الجزية، بينما في السّعوديّة، لم يتم تطبيق قوانين الذّميّة فقط، بل قام خلفاء محمد بتحقيق طموحه بتطهير المنطقة من المسيحيّين واليَهُود نهائيًا!
واليوم في المدن السّوريّة والعراقيّة مثل الموصل، لا تطالب **الدّولة الإسلاميّة** من المسيحيّين شيئًا أكثر أو أقل من ذلك الّذي طلبه حُكّام الإسلام الأوائل.
في مقابلة على قناة روسيا اليوم النّاطقة باللغة العربيّة، مع المطران نيقوديموس داود متّى، الأسقف الأرثوذكسي السّرياني بالموصل، أعرب فيها عن أسفه لوحشيّة **الدّولة الإسلاميّة** تجاه المسيحيّين، كما أشارَ إلى الإبادة الجماعيّة والتّطهير العرقي. في حين ظهر العديد من المُسلِمين المعتدلين، وأدانوا الأعمال الوحشيّة، مُدّعين أن حماية الذّمي واجبٌ إسلامي، وتبدأ جذور

المشكلة مع مثل هذا النّهج بالتّحديد: فعندما نطق مضيف البرنامج كلمة «الذّمي» باللغة العربيّة، فقد الأسقف أعصابه قائلًا «إنّنا نرفض هذه الكلمة، لأنّنا لسنا عبيدًا» وهذا يُعدُّ دليلًا كافيًا على أن **الدّولة الإسلاميّة** ليست هي مشكلة الإسلام الوحيدة.

الإسلامويّة مقابل الإسلام؛ من المستفيد من هذا التمييز!

في الماضي كنتُ أُصرُّ على أن أفرّق، بشكل واضح، بين الإسلامويّة والإسلام، ظنًا منّي أنني بهذا أحمي المُسلِمين العاديّين من توجس ومخاوف الغرب. على أنه، ومع مرور الوقت، أصبح واضحًا بالنّسبة لي أن القيام بذلك يصب في مصلحة الإسلاميّين فقط، تمامًا مثلما تفعل مصطلحات مثل الإسلاموفوبيا، وفكرة الإسلام الوسطي المعتدل. إن تسمية الإسلام بأنه دين السّلام في الوقت الذي فيه ننتقد الإسلاميّين، يبدو تمامًا كما لو كان الإسلاميين مُنعزلين عن الإسلام، وهذا يُشير إلى أن أفكار الإسلام التشريعية والسياسية هي أفكارًا سليمة تتطلّب فقط التّنفيذ السّليم فقط، وهذا يسمح لها بأن تجد طريقها إلى ساحات السياسة مرّة أخرى من الباب الخلفي. وعلى النّقيض من ذلك، فإن تمييز المُسلِمين عن الإسلام يبدو لي أكثر أهميّة.

بالتّأكيد لدى المسلمين العديد من التّقاليد الّتي تمارس بطُرُق مختلفة، فالصّوفيّين في السّنغال غير الفلاحين في ماليزيا، والشّيعة في البحرين وإيران غير السُنة في بنغلاديش وباكستان. وفي حين أن هذه الفروق قد تكون ذات أهميّة لعلماء

الأنثروبولوجيا وعلماء الأجناس والفقهاء، إلا أن أهميتها تتضاءل في الأمور السّياسة، أن مشكلة المسلمين الأساسية في كل أرجاء العالم ليست ما يختلفون عليه، وإنما ما يتفقون عليه، أي: الإسلامويّة والشّريعة وحُلم الخلافة. إن الإسلام السّياسي يُزيح الاختلافات العرقيّة والثّقافيّة جانبًا سواء أكانت هذه الاختلافات في إطار النّظام الإيراني الشّيعي أو باندا اتشيه السّني في إندونيسيا، سواء في مالي أو في قطاع غزة، كراتشي أو الدّار البيضاء، فإنهم، برغم كل الفروق، يريدون إعادة تربية المجتمع أخلاقيًا ودينيًا وسياسيًا، ويطالبون بفرض القانون الإلهي بتسلط وبالعنف لو لزم الأمر.

إن جوانب العقيدة الإسلاميّة الرّوحيّة والمجتمعيّة إيجابية للغاية. إنها تجلب الراحة والطمأنينة لمئات الملايّين من المُسلِمين. غير أن الإسلامويّة ما تزال هي النّقطة الأكثر فعاليّة، فهي تضفي الشّرعيّة على التّاريخ والدّين لأنها تتحصن بالوعد الإلهي أن ينتصر الإسلام على كل العالم في النهاية. لقد وُلِد الإسلام بعيب خلقيّ، وما زال هذه العيب يؤرق المسلمين والعالم كله حتى اليوم. العيب هو أن الإسلام حقّق نجاحًا عسكريًا وسياسيًا مُبكرًا في حياته وقام بحكم دولة خلال حياة نبيه: ولا يمكن لأي دين آخر أن يدّعي أنه أتي إلى الوجود بنفس هذه الطريقة. وكون أن مُحمدًا (على عكس يسوع) كان هو رئيس الدّولة، والقاضي، وقائد الجيش، والمُشرِّع، ورئيس الشّرطة، ووزير الماليّة، ووزير التضامن الاجتماعي أيضًا، هذا يعني أن الإسلام كان سياسيًا منذ نشأته، فكانت إدارة شؤون الدّولة والاقتصاد والعُنف والحرب كلها مندمجة مع النصوص الدّينيّة ومُقدّسة

وفقًا لذلك، وهذه هي المشكلة. ليست المشكلة في مضمون الآيات القرآنية. المشكلة هي النظرة التي ينظر بها المسلمون لهذه الآيات. المشكلة أن معظم المسلمين يرون أن القرآن هو كلام الله المباشر وآياته هي دستور صالح للحياة في كل زمان وكل مكان، وأن النبي كان معصومًا وهو لا يزال قدوة للمسلم المعاصر في شؤون السياسة والحرب والمال والزواج والتعامل مع غير المسلمين.

ووفقًا لسيرته الذّاتيّة، شنَّ محمد بين سبعين وتسعين حربًا خلال السّنوات الثّماني الأخيرة من حياته، أي ما يقارب حربًا واحدة كل شهر. وترك محمد الجزيرة العربيّة خالية من المسيحيّين واليَهُود، وفرض الإسلام بالسّيف وقام ذات مرّة بقطع رُؤوس ما بين أربعمائة وتسعمائة من اليَهُود العُزّل في يوم واحد، وقام بسبي النساء والتمتع بهن في الحرب، وهذه كلها جرائم ضد الإنسانيّة وفقًا للمعايير الحديثة. إن التّفريق بين الإسلامويّة والإسلام يتطلّب إما أن يتم التّبرؤ من محمد بشكل تام أو أن يتم التّنازل عن حقيقة أنه نموذج حديث يُحتذى به. إن قدسية القرآن والنّبي الأبديّة هي أحد أكثر المشاكل الرّئيسيّة في الإسلام، وأولئك الّذين يُصرّون عليها هم إسلاميّون مهما نأوا بأنفسهم عن **داعش** و**القاعدة** وأخواتهم.

ما هي الإسلامويّة إذًا؟ أين تبدأ وأين تنتهي؟ هل دولة الإسلام هي **داعش** و**بوكو حرام** و**القاعدة**، ولكنها ليست **حماس** و**الإخوان المُسلِمين** وإسلاميّي أردوغان في حزب العدالة والتّنمية؟ هل تسعى أي من هذه الجماعات جاهدة من أجل أي شيء يخالف ما سعى له محمد وأوائل المُسلِمين في العالم من

تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الكُفر، وإقامة الجهاد على أنه مشروع طويل الأجل لجميع المُسلِمين. لقد قام محمد وأتباعه بغزو بلاد بأكملها، ومنح المسيحيّين واليَهُود فرصة الاختيار بين اعتناق الإسلام أو الجزيّة أو الموت، تمامًا مثلما تفعل اليوم **الدّولة الإسلاميّة** الّتي تستعبد نساء وأطفال الجيوش المهزومة. إن هؤلاء المُسلِمين أنفسهم المعروفون اليوم بالإسلاميّين، كانوا في قرون الإسلام الأولى ببساطة هم الأتباع الحقيقيّين للإسلام، بل كانوا أصحاب محمد وخلفاءه أنفسهم.

من هو إذًا الّذي يمكن اعتباره شخصًا إسلاميًا؟ أهو عضو ينتمي لميلشيا مسلحة ويقوم بالتّلويح براية سوداء ويطالب بقطع الرّؤوس، أم أنه أي شخص يقوم بوضع الشّريعة الإسلاميّة فوق قانون مجتمعه؟ يبدو لي أن الشّخص الإسلامي بكل سهولة هو ذلك الأب الّذي يمنع ابنته من دروس السّباحة أو الموسيقى، وتلك الأم الّتي تحذّر ابنتها من عدم إقامة علاقات صداقة مع غير المسلمين. هو كل شخص يمارس الأعمال المصرفيّة الإسلاميّة ويعترض على الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية في حين لا يفعل شيئًا لمعارضة **الدّولة الإسلاميّة** أو حكم **الإخوان،** هذا هو الشخص الذي يبدو إسلاميا بالنّسبة لي، كذلك هو أي شخص يُصر على أنه يمكن التّوفيق بين الشّريعة والدّيمقراطيّة، لأنه، سواء كان ذلك عن قصد أم لا، فمثل هؤلاء يخاطرون بجعل الدّيمقراطيّة بمثابة حصان طروادة للإسلام السّياسي.

فقط عندما يتمكّن الإسلام من التّغلُّب على عيوبه الخلقيّة سوف يكون فصله عن الإسلامويّة قابلًا للتطبيق. ولكي يحدث ذلك،

يجب على المُسلِمين التّخلي عن جوانب الإسلام القانونيّة والسّياسيّة وميوله الفاشيّة. طالما أن الإسلام ما زال يُعلّم أن الله هو المشرع الوحيد، وأن أوامره من الثّوابت غير القابلة للتفاوض، سوف يكون من المستحيل فصله عن الإسلامويّة. (في العصور الوسطى في أوروبا، كانت اليَهُوديّة والمسيحيّة غير حريصتيْن على الدّيمقراطيّة، فقد كان عليهما أن يضعفا سياسيًا كي يتمكّنا من العيش تحت سقف أوروبا في عصر التنوير، وهذا ما يجب حدوثه مع الإسلام فيبقى المرء مسلمًا دون تسيس أيمانه هذا). عندما يتخلّى المُسلمون عن فكرة أن الهدف من حياتهم هو خدمة الله وفرض قوانينه على الأرض، فقط حينها سوف يكون الفصل ممكنًا بين الإسلام والإسلاموية.

بالطبع فالمُسلِم الّذي يجبر ابنته على ارتداء الحجاب لا يمكن مقارنته بذلك الّذي يقطع رؤوس الكُفّار، لكن كلاهما يتحرّك باندفاع للخُضوع لإرادة الله، مقتنعين في دواخلهم أنه لا خيار آخر لهم. وإلى تلك الدّرجة هذه هي المشكلة الأساسيّة للعقيدة الإسلاميّة

فكما أن لإدمان الكحول علاقة مباشرة بالخمور، هكذا أيضًا تعتبر علاقة الإسلامويّة بالإسلام. إن كميّة ضئيلة من الخمر يمكن أن تؤدي إلى الانتعاش والرّاحة، ولكن الكثير منه ضار ومؤذٍ. إن جوانب الإسلام الرّوحيّة عادةً ما تعمل على الرّاحة والمواساة، لكن كلما زاد تأثير تعليمات الإسلام وتشريعاته في ممارسات الحياة اليوميّة، تلوح الإسلامويّة في الأفق بشكل أقرب، لأن الإسلام نفسه يقوم بتسييس حياة المُسلِمين منذ لحظة

استيقاظهم صباحًا من النّوم إلى وقت إغلاق عيونهم ليلًا. إذا كان الإسلام يسعى لأن يطهر نفسه من الإسلامويّة يجب عليه أن يبدأ بالتّخلي عن الجهاد والشّريعة ومنع الاختلاط بين الجنسيْن والتّنظيم المتشدّد للحياة اليوميّة. والسؤال هنا، كم سيتبقّى من الإسلام «الحقيقي» عندما يتخلّى عن كل هذه الأمور؟!

إن الشريحة التي يجب تمييزها عن الإسلام هم المُسلِمون لا الإسلاميّين. فليس كل مسلم هو قرآن يمشي على قدمين، ولا يقوم كل المُسلِمين بالالتزام بجميع شعائر دينهم ومحظوراته الأخلاقيّة، إنما أقليّة منهم فقط تذهب للمساجد خمس مرات يوميًا. إذًا، أن تُنسب نفس الصّفات إلى كل الأشخاص أو أن تُشوَّه سمعتُهم بسبب جرائم غيرهم، فإن هذا تضليل قاتل. بالإضافة إلى ذلك، فأولئك الّذين يأملون أن يكون دينهم بالنّسبة لهم مُجرّد مسألة شخصيّة هم بحاجة إلى كل الدّعم الممكن، خصوصًا المُسلِمين الّذين يحاولون التّحرُّر من البنيّة الدّينيّة القديمة المسيطرة على الحياة الاجتماعيّة، هؤلاء بحاجة أكثر لهذا الدّعم. ودون مساعدة التّقدميّين المُسلِمين، فإن عدم تسييس الإسلام سيصبح مُجرّد قضيّة خاسرة، وسيصبح المستقبل مجهول المصير.

الفصل الثاني عشر

تشارلي إبدو وتجارة الغضب الإِسلامي

في يناير ٢٠١٥م، اقتحم شقيقان مكاتب المجلة الفرنسيّة السّاخرة **شارلي إبدو**، وفتحا النّار على موظَّفيها. اعتقد الشّقيقان أنه من خلال نشر الرّسوم الكاريكاتوريّة للنبي محمد، فإن المجلة قد أعلنت الحرب على الإسلام ونبيه. لقد كانا مُتشبعيْن بهذا الاقتناع بشكلٍ عميق وكافٍ لدرجة أنهما أطلقا النّار على اثنيّ عشر شخصًا عزل بدمٍ باردٍ، وهما مؤمِنَيْن بأن فعلتهما تلك نُصرة للإسلام .

لن يُجدي التّعامل مع مُهاجمي تشارلي إبدو على أنهما يُمثلان المليار ونصف مسلم في العالم، إلا أن الغضب المتعصب الّذي دفعهما لفعل ما فعلاه ما هو إلا واحد من أعراض لعقليّة منتشرة في الأمة كلها، فضراوة هجماتهما تعكس عدم التّوازن في العلاقات الغربيّة-الإسلاميّة، فعلى مدى القرون، كانت هناك عوامل لا حصر لها كان من شأنها ترسيخ هذه البارانويا، لا سيّما الاحتلال، والحروب الصّليبيّة، وإسرائيل، والاضطرابات السّياسيّة. والسّخط الموجود في العديد من الدّول الإسلاميّة أيضًا أثار الاستياء ونظريات المؤامرة، ولكن اعتقاد المُسلِمين بشأن المؤامرة العالميّة ضد الإسلام هو اعتقاد قديم قِدَم الإسلام نفسه. حيث يؤكّد القرآن من ناحية أن الله خلق الشّعُوب وَالْقَبَائِلَ لِكي يتَعَارَفُوا، ولكن من ناحية أخرى، القرآن -في أغلبيته- يعلّم بضرورة عدم الثّقة في غير المُسلِمين وعدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

كان محمد يُحذّر أتباعه بلا توقف من الخداع على أيدي الكفار، مانعًا إياهم من الاختلاط مع المسيحيّين أو اليَهُود. في مواضع أخرى في القرآن، أعلم اللهُ النّبي قائلًا «**وَلَن تَرْضَى عَنكَ**

الْيَهُود وَلاَ النّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» (البقرة آية ١٢٠)، وقد ادّعى محمد وهو على فراش موته أن امرأة يَهُوديّة هي من وضعت له السّم، على الرّغم من طرده لكل يَهُود المدينة منذ سنين عديدة مضت. وقبل وفاته بفترة قصيرة، يقال إن النّبي قد تنبّأ بأن شعوب العالم ستحتشد ضد المسلمين مثل الأكلة حول القصعة، حول أتباعه الّذين رأى أعدادهم تزداد لكنهم سيكونون ضعفاء القلوب مثل زبد البحر، بسبب تفضيلهم للحياة على الموت. عادةً ما يستشهد الإسلاميّون بهذه المقولة، وينظرون إلى المُسلِمين في جميع أنحاء العالم اليوم على أنهم يتمّمون هذه النّبوءة، وهذا يجعلهم عازمين على استعادة قوّتهم القديمة في التّفاني حتى الموت.

عندما يبدأ جنون العظمة والعُزلة بالعمل جنبًا إلى جنب، تتحفز الرّيبة والبارانويا. ولذلك بقي هتلر حتى وفاته مقتنعًا أن اليَهُود والحلفاء لم يحيكوا المؤامرات ضد ألمانيا فقط، بل إنه كان هناك أيضًا قوى غير مرئيّة تتآمر ضدّه شخصيًا. وفي وثائق تمّ نشرها لأول مرّة عام ٢٠٠٥م تدلل على حقيقة أن الفوهرر «أدولف هتلر» قام باختبار الحمّام الخاص به والمياه الّتي يغلي بها البيض ليتأكد أنها خالية من السّموم. لقد حوّل هتلر شعوره بعدم الأمان إلى أعداء حقيقيّين وخياليّين، وطلب بأن يُحرق جسده بالكامل بعد وفاته وذلك لمنع ستالين من عرضه في صندوق زجاجي. فكما بدأت مسيرته بلعب دور الضحية نتيجة الْخِزْي الّذي تعرّض له الألمان بموجب معاهدة فرساي، انتهت بالمخاوف من الإهانة بعد الوفاة على يدي غريمه الشّيوعي.

بالنّسبة لأمبرتو إيكو، إن مشاعر «الانحطاط والذل» الجماعيّة هي سمات لبزوغ الفاشيّة، الّتي يشعر مؤيّدوها بأنهم مُستهدَفون بشكل مستمر ومتعمَّد من قبل أعدائهم، فيتحدّثون بلغة المظلومية، ويبالغون في وصف قُوّة أعدائهم ومخططاتهم، ولكنهم يظلوا مقتنعين بقدرتهم على سحق خُصومهم ولكنهم في النهاية يفشلون في ذلك، لأن ريبتهم وجنون العظمة هي الّتي تدمّرهم. كان حسن البنا، مؤسّس جماعة الإخوان المُسلِمين في مصر، يأمل أن يغزو العالم ولكن انتهت حياته وهو ينزف في الشّارع، مثله مثل أي إِسلامي يُردى قتيلًا برصاصة. خلال حرب الأيام السّتة لبلاده مع إسرائيل عام ١٩٦٧م، أعلنت جميع المحطات الإذاعيّة العربيّة أن القُوّات المصريّة سوف تقوم بتدمير الدّولة اليَهُوديّة من على سطح الأرض وترميها في البحر، بينما تمّ ضربهم هم بالكامل في خلال أسبوع. منذ زمن بعيد، أعرب حزب الله وحماس عن عزمهما على محو إسرائيل. وبكل حماس عدّد أسامة بن لادن إهانات الغرب للإِسلام، مقتنعًا بأن هجوم إرهابي واحد قد يكون كافيًا لهزيمة الغرب. ثم ظنت الدّولة الإِسلاميّة، بشكل راسخ، أنها تمتلك القوة الّتي سيتحقّق من خلالها انتصار الإِسلام نهائيًا. وما زال إردوغان وقلول الإخوان يظنون أنهم سيعيدوا أمجاد الخلافة، حتى بعد سقوط الإخوان في مصر وانهيار الليرة التركية.
إن الدّم والشّرف والتّدمير (الذّاتي) هي العوامل التي يشترك بها الإِسلاميّون والفاشيّون.

تاريخ من الشرف والعار

إن حالة الفكر الثّقافي الموجودة في العالم الإسلامي منذ عدّة أجيال مضت، تعيد إلى الأذهان القصّة الرّمزيّة عن أهل الكهف التي كتبها أفلاطون. تتحدّث القصّة عن مجموعة من البشر مُقيدين بالسّلاسل في الظلام منذ ولادتهم وقادرين فقط على رؤية الجدار الموجود أمامهم مباشرةً. في القصة الرمزية لأفلاطون، هناك نار مشتعلة خلفهم، تجعل الظلال تسقط على الجدار. وفي حين يمكن لهؤلاء النّاس رُؤية الظلال، إلا أنه ليس لديهم فكرة عمّا يلقي هذه الظلال، فحين يتحركون تتحرك الظلال أمامهم، فيظنوا أن هناك بشر أخرين يقفون أمامهم. وحين يتكلمون يسمعون صدى كلماتهم فيظنوا أن هناك من يخاطبهم من الجدار. إن السّؤال الجوهري من هذه الحكاية الرّمزيّة هو «ما الّذي قد يفعله هؤلاء الأشخاص في حال فُكّت قيودهم واستداروا لينظروا خلفهم في الاتجاه المعاكس للجدار؟». ثم ماذا سيحدث لو خرجوا من الكهف المظلم إلى النور الطبيعي. أولًا، يعتقد أفلاطون أنهم سينبهرون من ضوء النّهار، ثم يعتبرون أن الأشخاص الواقفين خلفهم والّذين سمعوا صوتهم من قبل ما هم إلا مُجرّد أوهام، سيشعروا بالخوف، وسيعودوا إلى الكهف ويراقبوا الوهم المريح للظلال الموجودة على الجدار.

لعدّة قرون، أبقى العالم الإسلامي نفسه معزولًا عن بقيّة البشريّة، وهو يطيل النظر إلى ظله الخاص، مقتنعًا أنه لا وجود لعالم أوسع خارج حدوده، إلى أن ظهر ذلك «الآخر» الأكثر تقدّمًا والّذي فتح الكهف عنوةً. عندما نزل أسطول

نابليون في الإسكندريّة عام ١٧٩٨م، تلا ذلك مُواجهة غير مُتكافئة بين القُوّة الأوروبيّة المتفوّقة تكنولوجيًا وعسكريًا والثّقافة العربيّة الّتي كانت ما تزال تعاني من حالة الجمود والعزلة. جاء نابليون بآلة الطباعة والنظام القضائي والتعليمي الحديث وأساليب الصناعة والزراعة الحديثة، لكن قادة المسلمين وشيوخهم المعادون للغرب أعتبروا أن التّحديث هو بمثابة الاستسلام والتّخلي عن الهويّة الإسلاميّة الأصيلة. ممّا سهل مهمة المتعصّبين الدّينيّين التّقليديّين. فكل ما كانوا يحتاجونه هو إعادة الزّمن بمجتمعاتهم إلى الوراء والبدء من جديد، وذلك باستحضار ذكرى زمن النّبي ودولة الخلافة. أثناء الحروب الصّليبيّة وتحت الاستعمار، خبت النهضة العلمية والفلسفية وبدأت النعرات الأصولية في الفكر الإسلامي الدّيني والسّياسي تتجلّى بوضوح، فاسترجعت المجتمعات الذّاكرة الثّقافيّة الّتي كانت تُحرّك شعوبها في فترات الاضطرابات، ثم سحقت جميع المصادر الأخرى للهويّة، وأثبت الإسلام أنه المكان الوحيد الّذي يلجأ له الشّعب كلما كان في موقف دفاعي، مُخفيًا عار الانحطاط والهزيمة. إن العار يدعو إلى الخوف، والخوف يدعو إلى الإيمان الأعمى المتعصب، ولذلك استغل الأصوليون دائمًا خوف الناس من العار وفقدان الهوية كي يصلوا لأهدافهم السياسية.

تنشأ أوهام الاضطهاد والبارانويا عندما يُحدق المرء في ظلّه الخاص لعدّة قرون، فيعتبر كل انتقاد يتعرّض له بمثابة إعلان عن الحرب، ويُنظر إلى كل الأفكار المعارضة على أنها

هرطقة أو خيانة. وكلما زاد انغلاق أي مجتمع، زاد اعتقاده أن العالم الخارجي عدوٌ له، ممّا يجعله يتمسّك بتنفيذ شريعته الأخلاقيّة بشكل أكثر صرامة من أي وَقْت مضى، ضاغطًا على أتباعه بأن يُظهروا له ولاءً لا يتزعزع، فيبدأ أتباعه بالكذب والنفاق للحفاظ على هوية زائفة هي سجن أكثر منها ملاذًا. وفي حال ظهور أفكار جديدة يتم فورًا شيطنتها وسحق حامليها والمروجين لها. ومن علامات الهوس والبارانويا هي أن المجتمع كله يصير يخاف من كل من يحاول الدخول إلى أو الهروب من الكهف المظلم على حد السواء. وكلما أصبح تأثير العالم الخارجي أكبر، يصبح المجتمع المغلق أكثر قسوة في معاقبة أي شخص يتخطّى الحدود، ويظل هذا المجتمع يعيش على التّضامن والصّمت والخوف. مجتمع يقوم قادته بالتّستر على أسوأ ما فيه بالقمع، بينما مُعظم الرعية يتسترون عليه بالصمت والتبرير. وكل من يتجرأ على التّصرف ضد هذا المنطق يتم نفيه، وهذا في أحسن الأحوال، أو أن يُقتل وهذا هو أسوأ الأحوال. لقد دفع الإصلاحيّون الإسلاميّون ثمنًا غاليًا، وفي كثير من الأحيان دفعوا حياتهم ثمنًا لمحاولة تعزيز التّغيير. ولكن في كل مرة، كان الناس يديرون للإصلاحيين ظهورهم، ويعودوا إلى الكهف لكي يُقيدوا أنفسهم بالسّلاسل طواعية لينظروا مباشرة إلى الجدار والظلال، وتصبح عيونهم تتجه إلى اتجاه واحد فقط.

يتعامل الكثير من المُسلِمين مع الحداثة وكأنها جسم غريب تمّ استيراده عبر البحر الأبيض المتوسط، حيث فرضها عليهم المستعمرون أو الحُكام الطغاة. لم يتم التّبشير بالحداثة أو

تقديمها بشكل جذاب من أي من حاملي الشّعلة الثّقافة الإسلاميّة أو حتى من قبل العلمانيين. ولم يتم دمج الحداثة في أي مكان في العالم الإسلامي مع التّقليد بنفس الإبداع كما في اليابان، على سبيل المثال، ممّا ساعد على التئام جروح (كانت ما تزال موجعة في هيروشيما وناجازاكي) وشجّع على التّعاون مع أمريكا خلال إعادة إعمار البلاد. على النّقيض من ذلك، واصل العالم الإسلامي لعق جراح ما بعد الاستعمار، وصناعة الغضب وتجارته تزدهر كنتيجة لذلك. إن مفهوم بناء الأمة على «الأصالة» مازالت مترسخة في العصر الحديث وتقدّم التراث للمسلمين عجلًا ذهبيًا لعبادته كلما سعوْا إلى هويّة جديدة، إما في شكل الثّيوقراطيّة الوحشيّة أو تلك الهويّة الّتي يُفترض أنها ديكتاتوريّة علمانيّة، تحكم بقبضة عسكرية من حديد، هناك عجول ذهبية كثيرة اليوم، في شكل زعيم قبيلة أو قائد عسكري يحلم الناس أن يلعب دور صلاح الدين ويحررهم من الخوف والتمزق. عجول ذهبية لا تسعى لتحويل مصر إلى سويسرا، بل تمنّ على الناس حتى بالفقر وتقول "مش أحسن ما نبقى زي سوريا والعراق؟"

في عام ١٩٩٢م، قتل المتطرِّفون الكاتب فرج فودة خارج منزله عندما أصدر العلماء في جامعة الأزهر فتوى ضده بتهمة التّجديف. لم يقم فودة بفعل أي شيء يشكّك في حقيقة وجود الله ولم يقل إن النّبي مُتحرش بالأطفال. كانت جريمته الوحيدة هي مطالبته علنيّة بالفصل بين الدّين والدّولة، ودعابة عن الحجاب كلّفته حياته. وقبل هذا بسبع سنوات، نُفذ حُكم الإعدام بالفقيه السّوداني محمود محمد طه في الخرطوم لأنه قام بتقديم

الشّريعة على أنها بناء تاريخي لم يعد إلزاميًا، وكان واحدًا من عدد قليل من المثقفين العرب الّذين نادوا بالمصالحة مع إسرائيل في أوج القوميّة في فترة السّتينيّات، وقد اقترح أيضًا أن يقوم العرب بالحفاظ على الطاقة والموارد من أجل تنمية الوطن بدلًا من استغلالها في سباق التّسلح. ولهذا السّبب وحده، تمّ تكفيره.

ومن بين عوامل عديدة، أهمها أن المُسلِمين اليوم بغضب وتذمر مزمن يولد الكراهية والهوس، معتبرين أنفسهم ورثة لثقافة عالية ولكن غير قادرين على الاعتراف بفشلها منذ فترة طويلة لصالح القوى العالميّة العظمى. على حد تعبير الكاتب الفرنسي، التّونسي المولد، عبد الوهاب مأدب «لقد فشل الإسلام في التّعامل مع فقدان السُّلطة». لم يعزّز الاستياء النّاتج عن ذلك سوى الأصوليّة، الّتي يدعوها مأدب: البقعة الأكثر التهابًا «للمرض الإسلامي». مازالت ثقافة الشّرف والمقاومة القديمة تقف في طريق العلاقات المثمرة مع الغرب، الّذي ينظر إليه الكثير من مسلمي القرن الحادي والعشرين بشكل مُختزل على أنه «العدو»، فتكون أفكار الانتقام منه أهم معلم من معالم الهوية.

هل المسلمون يكرهون الغرب أم يشعرون تجاهه فقط بالمازوشية، أي لعبة الحصول على المتعة من خلال التّعذيب والألم؟ إنهم يطمئنون أنفسهم بأهميتهم بشكل مستمر حين يظنون أن الغرب الجبار يكرههم ويحيك لهم المؤامرات. وتقريبًا يُظهر العديد منهم رغبة بأن يكون الغرب ضدهم، فتأتي ظواهر مثل PEGIDA بيجيدا في ألمانيا، وخيرت فيلدرز في

هولندا، ومارين لوبان في فرنسا، ورابطة الدّفاع الإنجليزيّة كتأكيد لأهمية المسلمين حيث يشغل العالم بهم نفسه. من المفيد لهؤلاء المُسلِمين المصابين بالنّرجسيّة أن يعتقدوا أن الغرب، ذاك الخصم القوي والدّؤوب، يجدهم ذوي أهميّة كافية للاعتراف بهم أو الرّغبة في القضاء عليهم، لأنه إذا تجاهلهم الغرب تمامًا، قد يشعروا فجأة بالضّياع.

«أنا مسلم.. أرجوك لا تأخذ غضبي مني!»

منذ عشرين سنة أو أكثر كنتُ مسلمًا متدينًا في المدينة البافاريّة اوجسبورج. وكان لي صديق ألماني يدرس اللاهوت هناك أملًا في تدريس التّعليم الدّيني، اختار صديقي أن يقول لي مزحة، هزّتني وأغضبتني كثيرًا. كانت المزحة تحمل تلميحًا بأن مريم العذراء أم المسيح قد «مارست الفحشاء مع الرّوح القدس». اندهشت كثيرًا، غير قادر على الضّحك وأشعر بالذّهول أن مسيحيًا مؤمنًا، يتدّرب على نشر الإيمان، يمكن أن يقول مثل هذه الأشياء عن أكثر الشّخصيات المُقدّسة. إن المُسلِمين -بشكل عام- لا يفتقرون إلى روح الدّعابة على الإطلاق، أنا نفسي أنتمي إلى ثقافة تجعل تقريبًا من كل شيء نكتة، ولكن لا يُسمح لنا بقول الدّعابات عن الإسلام ورسوله، ولا عن أي رسول آخر. في المدارس الابتدائيّة، ما زال المصريّون يتلون حديث محمد أن أولئك الّذين لا يحبّونه أكثر من آبائهم أو أبنائهم لا يصلحوا أن يُسمّوا أنفسهم مؤمنين. وبما أنه لا أحد يسخر من أبيه وأمه وينجو بفعلته، فإن الشّيء نفسه ينطبق على محمد وبنحو أكثر صرامة. خلال حياته، أثبت بعض أتباع محمد

حبَّهم له عن طريق قتل كل الّذين تحدّثوا عنه بشكل غير لائق، والمفهوم العربي «للسُخرية» (أي التّهكم) هو أمر مكروه بقُوّة في القرآن، لا سيّما عندما قام أهل مكة من غير المُسلِمين بالتّهكم على محمد قائلين إنه مختل عقليًا، وإنه يؤلّف محتويات القرآن أو ينسخها من «أساطير الأولين». إن الرّوايات التّقليديّة عن النّبي تشرح بالتّفصيل حالات كثيرة لقطع رؤوس كل الّذين هجوه، ومن بينهم بعض الشّعراء مثل ابن خطل وكعب بن الأشرف وعصماء بنت مروان.

عندما قال لي صديقي هذه النّكتة، كنتُ في موقف لا يسمح لي بالسّؤال عن حُرمة النّبي، ولكنني سألتُ نفسي «ما الّذي يمكن أن يقوله طالب اللاهوت عن إيماني أنا إذا كان يعامل إيمانه بهذه السّخرية؟» إنه سخر من يسوع المسيح ومن مريم العذراء، فما الّذي يمكنه أنه يقوله عن محمد؟! في ذلك الوقت، كنت قلقًا جدًا أن أستسلم لإغراءات الحريّة وأن أضحك على ديني يومًا ما مثلما فعل صديقي، ورأيت أنني كنتُ في مواجهة مع الاختيار بين قبول السّخرية كمنتج ثانوي للحريّة أو أن «أطهّر» نفسي من التّأثيرات الضّارة لأسلوب الحياة المتحرّرة، بأن أعلن أن الحرية انحراف. في بادئ الأمر اخترت هذا الأخير، مُحصنًا نفسي خلف إيماني وأصبحتُ أكثر تطرفًا، وأنهيتُ صداقاتي مع كثيرين من زملائي الطلاب. وكلما عزلتُ نفسي أكثر، كلما زادت صدمتي وشعوري بالقرف من التّعليقات على الإسلام سواء في وسائل الإعلام أو من زملائي.

بعد بضع سنوات فقط في دراسة الإسلام بشكل أدق، أدركتُ مدى أهميّة السّخرية. لعبت الرّسوم الدّنماركيّة المُسيئة لمحمد

عام ٢٠٠٥م دورًا رئيسيًا في تغيير رأيي عن الإسلام. خرج ملايين المُسلِمين إلى الشّوارع والأماكن العامّة، في جماعات حاشدة، للتعبير عن حبّهم لنبيهم بتفجير السّفارات الغربيّة، ممّا أدى إلى اندلاع أعمال عنف قُتل فيها أكثر من ١٥٠ من المُسلِمين وغيرهم، وتجرّأت بعض وسائل الإعلام الغربية على القول إن موتهم قد يكون أسوأ نوعًا ما من الرّسوم الكاريكاتوريّة المسيئة لمحمد. لاحقًا، عند سفري إلى كوبنهاجن لمقابلة فليمنج روز، المحرّر الدّنماركي الّذي نشر هذه الرّسوم، اكتشفتُ كم كان شخصًا عقلانيًا عميق التّفكير. لم يكن مليئًا بالكراهية ولا العنصريّة، ولكنه مليء بقيم التّنوير. قال لي «إن الهدف لم يكن السخرية من محمد، ولكن كان من أجل أن يتعلّم المُسلِمون كيف يتقبّلوا السّخرية». وعندما عرضتُ المقال على صحيفة اليوم السابع، نُشر على الإنترنت، ولكن لبضع دقائق فقط. وبمُجرّد أن رأى المقال النّور، أجبرت موجةٌ من احتجاجات القرّاء الصّحيفةَ الليبراليّة على إزالته.

فجأة، اكتشفت أنني الآن أفهم زميلي في اوجسبورج. لقد ضحك صديقي من إيمانه ليس لأنه فشل في تقديره، ولكن لأنه لم يكن شخصًا متطرفًا، وكان متحرّرًا من الإكراه والخوف وقادرًا على إبقاء نفسه على مسافة من معتقداته، تاركًا المجال للسُخرية والنّقد الذّاتي. هذا هو أحد نتائج ثقافة الحريّة، فضلًا عن كونه أحد التّحديات التي يفشل الكثير من المُسلِمين في القيام بها.

إن تاريخ الهجاء في أوروبا هو تاريخ الانعتاق من الحُكم الدّيني. بعبارة أخرى، إنه تاريخ التّنوير. في العصور القديمة

كان الفلاسفة يتنازعون مع آلهتهم. وفي عصر النّهضة، وكان الهجاء شكلًا من أشكال الفن المفضّل بالنّسبة للطبقات المثقّفة، مقال **مديح الحمق** لإيرازموس روتردام الّذي نُشر في باريس عام ١٥١١م، وجّه نقدًا للكنيسة من الإنسان المتحضّر، ساخرًا من الطقوس الدّينيّة وأسرار الكنيسة في حين كانت محاكم التفتيش ما تزال في أزهى عصورها.

لقد شهد عصر التّنوير ارتفاع في مستوى الهجاء والسخرية كوسيلة تعليميّة، وعزّز الأهداف التّربويّة للحركة. وكان فولتير هو وريث إيرازموس، حيث أعاد نشر مقالاته الساخرة. كانت السّخرية في الأمور الدّينيّة تمهّد الطريق للثورة في فرنسا، تلك الثورة التي كانت وما زالت أساسًا للحريات المدنيّة. بل إنّ أفكار التّنوير نفسها كثيرًا ما كانت تُهاجم ويتم هجاؤها والسّخرية منها، وعلى الأخص في كتاب *رحلات جوليفر* للكاتب جوناثان سويفت، الّذي أخذ يسخر من النّظريات السّائدة في ذلك الوقت ومن النظرات المثاليّة للإنسانيّة، مصورًا الإنسان على أنه كائن مثير للقرف. إن مونتي بيثون، مِستر بين، وحتى جون ستيوارت وبيل ماهر كلهم ينتمون إلى هذا التّقليد، تمامًا مثلما تفعل جريدة تشارلي إبدو. لطالما كان الهجاء السّياسي والدّيني والاجتماعي وسيلة للمجتمع لكي يطهر نفسه من الغرور والتعالي الثقافي.

يُمكن للدعابة أن تعرِّي ثقافات بأكملها، وترفع القناع عن الخُرافات القديمة وتنزع عن الشّخصيات العامة هالة القداسة، وتساعد النّاس على تقبل أي منظور جديد، وتجعل الحقائق المطلقة نسبيّة، بل إنها تشجع النّاس على ترك مرحلتي الطفولة

والمراهقة الفكرية خلفهم. لهذا السّبب، ولأن النّكتة تجعل خوف الشّعوب أمام الطغاة يتلاشى، فهم يميلون للرد على الهجاء بتعصُّب. عندما أصدر آية الله الخوميني الفتوى ضد سلمان رشدي عام ١٩٨٩م، لم يفعل هذا لمُجرّد أن رواية سلمان رشدي **آيات شيطانيّة** قد صوّرت النّبي وزوجاته بشكل هجائي: بل إن الكتاب أيضًا سخر من الخوميني شخصيًا. طوال تاريخ الإسلام، استخدمت عبارة «سب النّبي» من قبل الحُكام الديكتاتوريّين كإدانة لإسكات المعارضة.

ولكن، الأسوأ من رقابة الدّولة والتّرهيب الإسلامي، هو الرّقابة الذّاتيّة وميل الكثيرين إلى الشّعور بالجرح الشّخصي والجماعي إذا سخر أحدهم من الدين. وكأن مشاكل الدّول الإسلاميّة ذاتها أسباب غير كافية لعدم الرّضا. إن الكثير من المُسلِمين يتصفحون الصّحف ويجوبون القنوات الفضائيّة يوميًا بحثًا عن قصص حول الأقليات المُسلِمة المضطهدة في الصّين أو أوروبا أو الفلبين، متشوّقين لإثبات أن هناك مؤامرة عالميّة ضد الإسلام. وفي الأيام الّتي لا يُجدي بحثهم نفعًا يواصلون البحث، وهذه المرّة يبحثون عن رسومات لمحمد، أو عن تصريحات للبابا يقول إن الإسلام دين غير إنساني أو عن أي شيء آخر ذي صلة، مُحافظين -بطريقة أو بأخرى- على شعور الغضب المفضّل لديهم! ولتبرئة النّبي من تهمة التشجيع على الإرهاب، قام البعض بقصف السّفارات بقنابل المولوتوف، بينما قام البعض الآخر بردود فعل عنيفة ضد عبارات قالها البابا بنديكت السّادس عشر وغيره. إنهم في حاجة ماسة لإثبات أن الإسلام دين إنساني من خلال كل أعمال العُنف!

عام٢٠٠٧م تمّ اعتقال **جيليان جيبونز**، وهي مُدرّسة بريطانيّة في السّودان بتهمة تسمية الدّبدوب الخاص بها محمد. وتشعر المنظمات الإسلاميّة، في الوقت نفسه، بالظلم الشّديد إزاء نشيد فريق كرة القدم الألماني **شالكه ٠٤**، الّذي يتضمن جملة تقول «كان محمد نبيًا لكنه لم يكن يعرف شيئًا عن الرّياضة». كما تلقى صُنّاع مسلسل الرّسوم المتحرّكة الأمريكي الكوميدي **ساوث بارك** تهديداتٍ بالقتل بسبب تصويرهم لمحمد يرتدي زي دبدوب كي لا يظهر وجهه، مع ذلك لم تظهر أية احتجاجات جماهيريّة أو تهديدات بسبب السّخرية المستمرة من موسى ويسوع وبوذا. نهاية عام ٢٠١٨ احتجت بعض المنظمات الإسلامية على وجود بعض البضائع على موقع أمازون عليها صورة الكعبة، من بينها سجادات للحمام، وطالبوا أمازون بحجب هذه المواد من البيع. ورغم أن أمازون مجرد وسيط لبيع هذه البضائع الصينية الصنع، تم الاستجابة للمسلمين، رغم أن أمازون يبيع أيضًا بضائع كثيرة عليها عبارات تسخر من المسيحية والمسيح بشكل مباشر.

في فبراير ٢٠١٠م، قُتل اثنان من المهاجرين المصريّين في ظروف مشابهة بشكل مثير للدهشة، ضُرِبَ أحدهما حتى الموت في ميلان خلال مشاجرة مع أمريكي جنوبي أما الآخر فقُتِل -بشكل عشوائي- في المملكة العربيّة السّعوديّة. وفي حين شكّل خبر وفاة الشخص الأول صدمةً وصلت لعناوين الصّحف في جميع أنحاء مصر لعدّة أيام، كانت تغطية خبر مقتل الآخر في السّعوديّة من خلال تقارير داخلية تائهة بين مقالات أخرى. وكأن المحرّرين كانوا يخشون ذكر اسم السّعوديّة مع جريمة

قتل في نفس الخبر. في الحالتيْن، كان يبدو أن هُويّة القتيليْن أقل أهميّة من المكان الّذي قتلا به ومن هُويّة القاتل، حتى إنّ النّداءات المصريّة للانتقام كانت موجّهة حصريًا على إيطاليا، أما المغترب الّذي قُتِل في السّعوديّة فبالكاد تمّ نعيه.

لا يمكن تجنُّب الانطباع بأن هويّة الضّحيّة ذات أهميّة أقل بالنّسبة للمسلمين من هويّة القاتل. في جميع أنحاء العالم، يقوم المُسلِمون بالمظاهرات الحاشدة ضد الرّسوم المسيئة للنبي وضد الصّراع في غزة، في حين أنهم يرفضون التّظاهر أو الاحتجاج ضد الإرهاب الّذي يقوم به تنظيم **القاعدة** و**بوكو حرام** أو **الدّولة الإسلاميّة**، على الرّغم من أن هذه المجموعات الثّلاث وحدها قتلت أعدادًا من المُسلِمين أكثر بكثير من الّذين قُتلوا في أي حرب مع إسرائيل.

إن المُسلِمين الّذين يتمسّكون بحُرمة نبيهم يعزّزون موقف الطغاة الّذين يقمعون الشعوب باسمه، ويعيقون محاولات الإصلاح ويمكّنون الإرهابيّين مثل أولئك الّذين هاجموا **تشارلي إبدو**. إنهم يتوقون للانتقام بسبب بضعة رسوم. وفي الوقت نفسه كثيرًا ما يحاول أصدقاء الإسلام حسنو النّيّة في الغرب الحفاظَ على السّلام في وطنهم عن طريق منح محمد نفس الحرمة، وهم يظنون أنهم بهذا الفعل يقدمون خدمة للمسلمين. لكن الاحترام الحقيقي لا بد أن يشمل تعامل المسلمين مع السّخرية والنّقد كما تتعامل أي مجموعة دينيّة أخرى. إن الإصرار على أن يُترك محمد وشأنه، كما يفعل البعض، كونه «أساس الهويّة الإسلاميّة» هو تجاهل لحقيقة أن حصوله على بطاقة دخول مجانيّة للسلطة على السياسة والتشريع لمدّة قرون

من الزّمن، هو السّبب في أن محمدًا ما زال يلعب مثل هذا الدّور.
سيأتي يوم سيكون فيه المُسلِمون ممتنين للمهرطقين ولناقدي الإسلام أكثر من المدافعين والمؤيّدين له، مثلما العالم المسيحي اليوم يدين لجاليليو جايلي وجوردانو برونو وفولتير بالامتنان والعرفان. الأمر الّذي يقودني للنظر إلى **تشارلي إبدو** كفرصة؛ فرصة للمسلمين إلى الاسترخاء أثناء مناقشة هذا الموضوع الّذي يتعلّق بنصوص دينهم ورموزه، وأن يدركوا أن الفكرة الهشة فقط هي التي تحتاج جدارًا مرتفعًا من التّهديد والوعيد لحراستها ضد القوى الخارجيّة، وتحتاج للصريخ حتى يسمعها الآخرون. إن رسومًا مثل الّتي نشرتها **تشارلي إبدو** قد تكون بمثابة علاج للمسلمين لكي يتقبّلوا النقد، ممّا قد يدفعهم إلى الاعتراف على الأقل أن صورة الإسلام في الغرب هي مشكلة ذات أهميّة أقل بكثير من الأعمال الّتي يتم تنفيذها بإسم الإسلام في جميع أنحاء العالم، وأن نزاعهم الرّئيسي اليوم لا يجب أن يكون مع نُقاّد الإسلام ولكن مع الإسلام نفسه ونُصوصه ونظرته للعالم.
يجب أن تكون رسومات تشارلي إبدو وموظّفيه الّذين ذُبِحوا سببًا لكي يتوقّف المُسلِمون عن جعل انتقاد محمد من المحرّمات. لا يوجد ما هو أقدس من حياة الإنسان، ولا يوجد ما هو ذو قيمة أكثر من الحريّة وحُقوق الإنسان. لن يحترم العالم المسلمين فيما بعد إذا استمروا بالهجوم وبتفجير السّفارات، ولكن فقط عندما يُظهروا اهتمامًا بحقوق الإنسان وبالحريات أكثر من اهتمامهم «بصورة» رجل مات منذ

١٤٠٠ سنة مضت. ومن بين تلك الحُقوق والحريّات حُرّية الفكر والمعتقد، مهما كانت هذه الحُريّات قاسيّة. ومن أجل تحفيز الإصلاح، رُبّما لا يحتاج العالم الإسلامي إلى مارتن لوثر الإسلامي، بل إلى ايرازموس، وفولتير، وتشارلي.

الخُلاصة

المعركة الأخيرة

يميل علماء الاجتماع وعلماء السّياسة، ومن بينهم إرنست جلنر وفرانسيس فوكوياما، إلى اعتبار الحركات الإسلاميّة مصدرًا للهويّة المشتركة للعالم الإسلامي اليوم، تمامًا مثلما كان القوميّون بالنّسبة لأوروبا في بداية القرن العشرين. أنا اختلف مع هذا الرّأي، لأن الإسلامويّة لم تكن يومًا مصدرًا للهويّة بل هي بالكاد بمثابة عكاز يتكئ عليه المسلمون تارة ثم يرفعوه مثل السّلاح في وجه أعدائهم تارة أخرى. إن الوجه الجماعي للإسلامويّين هو وجه جامد لرجل عجوز، يضرب بشراسة ويُلوّح بعكازه في كل الاتجاهات، وضجيج أتباعه ينم عن الضعف، لا القوة. إنها صرخة ذئب وحيد يحتضر وسط الصحراء. ومع هذا فإن الضّعف والاحتضار يجعل الإسلامويّين أكثر خطورة.

في ألمانيا وإيطاليا، ظهرت الفاشيّة في عصر «نحن ضد العالم»، كانت الدّول المعنيّة تتأرجح بين هُوياتها الثّقافيّة والوطنيّة الخاصّة والأحداث الواقعيّة العالميّة. اليوم، نجد المُسلِمين في جميع أنحاء العالم عالقين بين واقع الحياة من جهة والمتطلّبات التّقليديّة الدّينيّة من جهة ثانية. إنه نفس الاختلال الّذي أغرق العالم في كارثة مرتيْن في النصف الأول القرن العشرين وهو الّذي أدى إلى الفاشيّة الإسلاميّة الّتي تضم عددًا كبيرًا من المؤيّدين اليوم. ومع هذا، مهما كانت الفاشيّة متعدّدة الجوانب أو هائلة، على المدى الطويل، تظل فلسفةً محكوم عليها بالفشل.

إن بقاء الفاشيّة يتطلب وقودًا لحرب مستمرة، وأتباعًا ذوي أدمغة مغسولة ووفيّة حتى النّهاية للتضحيّة بالنّفس. ولكن لن

يؤدي المناخ العام إلى ارتفاعها، ولن يستمر الدّعم الوفي من أتباعها. والسّؤال، ليس ما إذا كان يمكن هزيمة الفاشيّة، لأنها في نِهاية المطاف تُهزم دائمًا، إنما السّؤال هو كم من الوقت نحتاج حتى نرى هزيمتها، وكذلك ما الثّمن الّذي سوف يدفعه أعداؤها. لقد تمت هزيمة الفاشيّة الأوروبيّة، لكن بعد أن تعرضت هذه القارة لفظائع الحرب العالميّة الثّانية والملايّين فقدوا حيواتهم بسبب هذه الحرب. لقد خلفت الحرب الكثير من المآسي ليس فقط في المدن بل في أقطار بأكملها. لقد غادر المنتصرون ومعهم جائزة مشكوك فيها إلى حرب باردة طالت لعقود من الزّمن. فهل من المرجح أن يمضي العالم الإسلامي إلى نفس المصير؟ وهل يمكن للجهود المبذولة من أجل التّحديث والدّيمقراطيّة في البلدان الإسلاميّة أن تنتصر من دون أن تدفع شعوب هذه الدول ثمنًا باهظًا مثل ما حدث مع العالم الغربي في الماضي؟ وهل يمكن لفشل مُدّته قرون أن يمر بدون عواقب؟ بطريقة أو بأخرى، لا يسعني إلا أن أشك في الأمر.

قد تكون جماعة الإخوان المُسلِمين فشلت في الوقت الرّاهن في مصر في محاولاتها لبناء دولة إسلاميّة، وقد تكون داعش قد انتحرت، على الأقل، سياسيًا وعسكريًا، ولكن هذا لا يعني إطلاقًا أن الإسلامويّة انتهت بالتمام في أماكن أخرى، ولا حتى جماعة الإخوان نفسها انتهت، فمؤيّدوها وممولّوها ما زالوا نشطين في أكثر من سبعين دولة أخرى، ومجهّزين بشبكة علاقات مستدامة ومليارات من الدّولارات. مُعلنين عن ولادة جديدة للخلافة الإسلاميّة. ورغم أن **داعش** أسقطت سوريا والعراق تحت سيطرتها في وقت قصير، إلا أنها بقيت دولة

بالاسم فقط، بلا حدودًا ثابتة، ولا مقرًا للحكومة، ولا جوازات سفر ولا عملات ولا حتى سفارات في الخارج، حتى انهارت.
إن إنشاء حكومات دينيّة سيصبح أكثر صعوبة بالنّسبة للإسلاميّين في المستقبل. صحيح أن الدّيكتاتوريّة الإسلاميّة تمكّنت من أن تتشكل منذ أربعين عامًا داخل إيران، وبقيت حتى يومنا هذا، لكن الظروف كانت حينها مختلفة تمامًا عنها اليوم. فإن كلًا من الحرب الباردة والبترودولار أدّيا إلى قدرة النظام الإيراني على الانعزال عن العالم، والعقود الّتي تلت جعلت الحفاظ على مثل هذه الدّول المعزولة صعبًا. وعلى وجه الخصوص، أعاقت أشكال الاتصالات الجديدة والاقتصاد العالمي المعولم محاولاتِ الطُغاة لمنع مجتمعاتهم من التقدُّم والتواصل مع العالم الخارجي ومقارنة بلادهم به، وأصبح هناك جلاسنوست جديد يحدث عبر الإنترنت على الرّغم من (أو رُبّما بسبب) القبضة الحديديّة لمن هم في السُّلطة. عاجلًا أم آجلًا، حتى دول مثل تركمانستان وكوريا الشّماليّة لن تكونا قادرتيْن على البقاء منعزلتيْن.
أثناء مؤتمر في برلين في سبتمبر 2013م، تناقشتُ مع فرانسيس فوكوياما حول مفهومه عن «نِهاية التّاريخ». بعد انهيار الاتحاد السّوفيتي، أعلن فوكوياما وفاة الأيديولوجيّات، وتوقّع أن تبقى فقط الدّيمقراطيّة الليبراليّة قابلة للتطبيق كخيار لكل شعوب العالم، وعندها سألته إذا كان هذا الأمر ينطبق على الأيدولوجية الإسلاميّة والإسلام السياسي، وما إذا كانت المجتمعات الإسلاميّة ستصبح ديمقراطيّة بشكل أسرع، أجاب فوكوياما أنه بسبب إحباط العديد من الشّباب المُسلِمين والوضع

الاقتصادي السّيئ لمعظم الدّول الإسلاميّة، فإن زوال الإسلامويّة ما زال احتمالًا بعيد المنال. واستطرد: هذا على عكس الصّين، حيث القطاعات العريضة المتزايدة من السّكان قد تستفيد من طفرة اقتصاديّة ومن سوق حُرّة ما زالت تجريبيّة، بينما الدّول الإسلاميّة ما زالت راكدة. على الرّغم من أنه كان متأكّدًا أن النّاس سوف تتنبه إلى الأحداث العالميّة عبر الإنترنت، وتحتج وربما تخلع الدّيكتاتور الطاغية. وقال فوكوياما المشكلة أن الثورات العربية والإطاحة بالدكتاتوريين عرّضت المجتمعات العربية للصدمة، لأنها حققت نتائج عكسية على الصّعيد الاقتصادي. ثورة هنا، وانقلاب هناك، ولكن كالمعتاد سوف تفرض التّجارة والتربيطات السياسية الخفية نفسها باستمرار. وهذه دائمًا أرض خصبة للتطرف والتيارات المسلحة.

ربما لن يتمكّن الإسلاميّون بعد من بناء دول قوميّة أو الحفاظ عليها، لكنهم يبقون جيوبًا للشّريعة والإرهاب على قيد الحياة في حطام الدّول الفاشلة مثل العراق، سوريا، ليبيا، الصّومال، أفغانستان، اليمن، مالي. وفي تلك الدّول الّتي ما زالت لم تفشل بعد بطريقة أو بأخرى، ما زال الإسلاميّون قادرين على إحداث إنقسام واضح في المجتمع بين مؤيد ومعارض، بل وتعطيل مؤسسات الدولة والسياحة أحيانًا. وتشير التّركيبة السّكانيّة في الدّول الإسلاميّة فقط إلى الأمور الّتي تزيد من حدّة هذه التّوترات. إن خمسة وستين في المئة من جميع المُسلِمين هم تحت سن الثّلاثين، مع ارتفاع نسبة البطالة خُصوصًا بين الشّباب بسرعة، الّذين طاقتهم وغضبهم يساعدان على توفير

وقود جديد لنيران التّطرُّف. عدد السكان والمشاكل في العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية والبيئية والتعليمية تزداد بوتيرة أسرع من قدرة أي سياسي على حلها أو استيعابها. هنا تكمن الكارثة الكبرى.

في البلدان الإسلاميّة، تخفق الدّولة في تلبية احتياجات الشّباب وفي توفير فرص أفضل لهم. واليوم، تفشل الحكومات في السّيطرة على الشباب، فهي تقمعهم بواسطة أجهزتها الأمنيّة، وهذا كله يصب في النهاية في مصلحة الإسلاميّين، الّذين يقفزون لطرح أنفسهم كبديل للسّلطات القمعية المتعثّرة. إنهم لا يشبعون من رغبتهم في الاستيلاء على السُّلطة، لأنهم مهما عملوا في الخفاء، لا ينتقل تركيزُهم الحقيقي أبدًا عن الهدف على المدى الطويل؛ ألا وهو الانتصار على الكُفّار، إذا لزم الأمر عن طريق الاستشهاد. يرفض الإسلاميّون الإيمان بقدرة مجتمعاتهم على التّغيير من خلال السّياسة أو الاقتصاد، فبالنّسبة لهم السُلطة هي أن يعلّقوا آمالهم على الله لا النّاس. إنهم يؤمنون فقط بمعركة مستمرة بين الخير والشّر، بما في ذلك الانتصار النّهائي والحتمي للخير. هم يؤمنون ببناء ملكوت الله على الأرض مرّة واحدة فقط، وكل البشريّة الّتي تقبل الإسلام سوف ترى أن السّلام أو الازدهار ممكنًا، وحتى ذلك الحين، سيستمر الجهاد.

في نفس الوقت، يشتبك الكثير من المذاهب والمدارس الفكريّة سياسيًا ودينيًا في موضوع إمكانية وحدة المُسلِمين التي هي ضرب من الخيال. لقد توقّع محمد أن ينقسم المُسلِمون إلى اثنتيْن وسبعين فرقة. وفي حين أن واحد وسبعين فريقًا منها

يتبع تعاليم كاذبة، وسوف ينتهي بهم المطاف إلى الجحيم، إلا أن فرقة واحدة فقط ستحافظ على الطريق الصّحيح، الّذي يسميه الفقهاء **الفرقة النّاجية**. اليوم، تدّعِي كل فرقة مسلمة أنها هي الفرقة النّاجية، متهمة الباقين بأنهم كُفّار. وهنا يكمن أساس كراهية أهل السّنة تجاه الشّيعة والأحمديّة والصّوفيّين والعلويّين. وبين أهل السّنة أنفسهم، أظهر العديد منهم أمارات العداء المتبادل، من بينهم السّلفيون والإخوان المُسلِمون فضلًا عن الحنابلة، والمالكيّة، والشّافعيّة، والحنفيّة، والأشاعرة. حتى في سوريا، يستمر الجهاديون المعارضون للأسد في مهاجمة بعضهم البعض. وفي ضوء هذه الانقسامات الّتي لا نِهاية لها، تبدو المخاوف الأوروبيّة من أسلمة العالم مبالغة. أنظر بعناية، المُسلِمون منشغلون في الخلافات فيما بينهم أكثر بكثير من انشغالهم بأن يتسلّحوا من أجل حملة دينيّة ضد الغرب، إنهم يخفقون حتى في أن يتّفقوا -ولو مؤقتًا- في تحديد أي إِسلام هو الصّحيح. وبالرغم من ذلك، فإنه يجب منعهم من الاستعداد لمعركة نِهاية الزمان التي يحلمون بها.

بعد أكثر من عشر سنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم يعد تنظيم القاعدة موجودًا كمنظمة تعمل بطريقة مركزيّة، فقد ضعفت بشدة بسبب «الحرب على الإرهاب». وقد واجهت ميليشيات الدّولة الإسلاميّة وضعًا مماثلًا، ولكن عندما تتلاشى مجموعات رائدة مثلها، يصبح دور الإرهابيين الفرديّين عند ذلك أكثر وضوحًا.

إن كل من القاعدة والدّولة الإِسلاميّة تعمل الآن من خلال المبادرات اللامركزيّة، ومكوناتها اللازمة متوفّرة على نطاق

واسع، بدءًا من وجهة نظر عالميّة مغلقة بإحكام بأسلوب الكل أو اللاشيء، هم يسممون الشباب بالغضب، حيث تقوم الأيديولوجيّة الإسلاميّة بتأجيج السّخط الدّنيوي بسبب البطالة أو الاحتلال وتُحوّله إلى غضب ديني وكراهية مقدسة، وتُجرّد الأعداء من الصّفة الإنسانيّة. إن المفجّرين الّذين نفّذوا أحداث ماراثون بوسطن عام ٢٠١٤م، والخاطفين الّذين تصدّرت أسماؤهم عناوين الصّحف في سيدني في نهاية عام ٢٠١٥، والقتلة الّذين قتلوا محرّري تشارلي إبدو، والإرهابي الذي قتل الألمان بشاحنة في برلين عام ٢٠١٦، وغيرهم، هذه كلها مُجرّد مقدّمات للعمل المقبل في التّاريخ السّياسي للإسلام. ليس هناك ضرورة للتجنيد ولا تنظيم عالمي أو تدريب مكثّف للإرهابيّين من أجل أن تكون خططهم قاتلة بشكل نافذ المفعول. إن أي شخص يرغب في صناعة قنبلة يمكنه العثور على تعليمات التصنيع على الإنترنت، ويستطيع أن يقوم بتجميع القنبلة بنفسه ثم تفجير المكان الّذي يختاره في بلدته. ليس من الضّروري حتى أن يكون الجهاد بهذا التّعقيد، فلدى أولئك الجنود القدرة على قطع رؤوس «الكُفّار» بسكاكين المطبخ في الشّوارع والميادين العامّة المزدحمة، أو دهسهم بالسيارات أو حتى أخذهم كرهائن. ويمكن الآن لمجموعات من الشّبان المُسلِمين التّجمع على شبكة الإنترنت، حيث يقومون بتدبير مؤامراتهم الخاصّة بدون أوامر من تنظيم القاعدة أو الدّولة الإسلاميّة. إن قيام داعش وسيطرتها على قطعة أرض كبيرة بين العراق وسوريا، ساعد على هجرة المجاهدين من كل أنحاء العالم للاستقرار في دولة الخلافة، وقد أدى انهيارها إلى هجرة

معاكسة للجهاديين لينشروا الإرهاب عن طريق الذئاب المنفردة.
إن أولئك الّذين يعملون بشكل منفرد أو في مجموعات صغيرة غالبًا ما يتصرّفون من تلقاء أنفسهم، ورغم أنهم يفتقرون إلى الدّقة الّتي يتمتّع بها الجهاديّون الّذين ينفّذون التّعليمات، إلا أنهم هم والتّهديد الّذي يشكّلونه موجودون في جميع أنحاء العالم. إنهم لا يأبهون لعدد ضحاياهم بقدر ما يهتمون بالرّعب الّذي تُثيره هجماتهم فيجذب الاهتمام الكبير لوسائل الإعلام. وكلما أصبح حلم الخلافة الإسلاميّة وهميًا بشكل أكثر وضوحًا، وكلما زادت الضّغوط الّتي تتعرّض لها الدّولة الإسلاميّة في العراق وسوريا، وزاد اضطرار الغرب على التّعامل مع أعمال المتعاطفين معهم في عقر دارهم. وتركيزه موجّه نحو الدّولة الإسلاميّة وشخصياتها الرّئيسيّة. «فالحرب على الإرهاب» ليس لها استراتيجيّة ضد أفراد مثل الخاطفين في سيدني. في ١٥ ديسمبر ٢٠١٤م قام إرهابي إيراني ويُدعى مان مؤنس باقتحام كافيتريا تقع في قلب العاصمة الاستراليّة. استغرقت العملية ست عشرة ساعة قبل أن تقتحم القُوات الخاصة الاسترالية المكان لتحرير الرهائن. قُتل خلال هذه العملية اثنان من الرهائن إلأى جانب الإرهابي. ما التّدابير الّتي يمكن أن يتّخذها العالم ضد الإرهابيّين؟! نفس الشيء ينطبق على حادثي الدهس في نيس الفرنسية وبرلين الألمانية. في كلتا الحالتين قام الإرهابيون بتأجير سيارة نقل بأنفسهم، وقادوها بأنفسهم ودهسوا بها عشرات الضحايا، دون أن تقتفي المخابرات أي أثر لهم.

إن أجهزة الاستخبارات قد تستطيع اكتشاف الهجمات الإرهابيّة التي يُخطَّط لها والّتي يوجد في تنظيمها العديد من النّاس المتورّطين في الدّاخل والخارج، وذلك عن طريق تتبع اتصالاتهم وتحويلاتهم البنكية وشرائهم لكميات كبيرة من المتفجرات. ولكن الّذين يعملون بشكل منفرد والمقلّدين يُصّعبون عمليّة تحديد مكانهم على قوات الأمن، وعادة ما يتصرّفون من تلقاء أنفسهم دون الحاجة إلى إعلام الآخرين عن خططهم. لم يعد للجهاد مسكن ثابت، بل أصبحت أهدافه ووسائله مبهمة على نحو متزايد. وكلما زادت الأعمال الإرهابية في الغرب، زاد العداء والكراهية تجاه المسلمين، مما يزيد ايضًا فرص التطرف. وهكذا نبقى في حلقة مفرغة من الهجوم والتبرير وردود الأفعال الغاضبة. وفي أول أزمة اقتصادية في أوروبا سيدفع المسلمون الثمن غاليًا سواء المتدينون أو العلمانيون. سندفع جميعًا ثمن تغذية الوحش لكل هذه القرون. سندفع ثمن التخاذل والتباطؤ في محاربته وفي تسمية الأشياء بأسمائها.

في القاهرة، التقيتُ مع القاضي المتقاعد والعضو السابق في جماعة الإخوان المُسلِمين؛ محمد عبد الرّسول. كان هذا المستشار ينتمي إلى تلك الجماعة لأكثر من عقد من الزّمان. وبعد أن قام بقراءة كل وثائقها وبياناتها الرّسميّة خلال ذلك الوقت، كان تشخيصه هو أنه لم يكن لدى الإخوان أي فكرة عن كيفيّة حُكم الدّولة القوميّة، وبدلًا من ذلك فهُم يستعدون فقط إلى حرب نهاية الزمان مع أعدائهم، والعالم كله هو عدوهم. عندما تكلّمنا معًا، كان الإخوان المسلمون يتقلّدون السُّلطة في مصر،

ولكن حتى حينها كان ضيفي قادرًا على أن يقول لي «من النّاحية السّياسيّة، سوف يفشلون. ثم بعد ذلك سوف يلجؤون إلى الإرهاب مُجدّدًا، لأن هو الشّيء الوحيد الّذي يفهمونه ويجيدونه حقًا. سوف يقومون بجمع الحشود للنضال من أجل المعركة الكبرى، وليس فقط في مصر بل في جميع أنحاء العالم. سوف يستجيب الكثيرون لهذا النّداء، لكن لن تكفيهم هذه الاستجابة لكي ينتصروا. ولكن هذه الاستجابة ستكون بما يكفي لإخضاع العالم لسنوات قليلة مليئة بالإرهاب الشديد. ليس هناك ما هو أسهل من إقناع شاب مسلم للقيام بهجوم انتحاري، فهو أفضل شيء يمكنه القيام به في الحياة».

إن الصّراعات في سوريا وليبيا وأفغانستان وباكستان والعراق ولبنان واليمن، وتصاعد الأصوليّة في دول الخليج، وتجدُّد التّوترات الدّينيّة السّعوديّة-الإيرانيّة، كل هذه الأمور قد مهّدت الطريق لموجة جديدة من التّطرُّف أكثر شراسة من أي تطرُّف كان في الماضي. ولقد انتشرت هذه الصّراعات ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن في أوروبا وأمريكا الشّماليّة أيضًا، ممّا يضمن طفرة للمزيد من التّطرُّف هناك. قال لي عبد الرّسول إن عمل الإسلاميّين في الغرب أسهل وأنهم يستفيدون أكثر من غيرهم من الحرية والديمقراطية هناك، وأنهم قادرون على التّنظيم والتّجنيد بكل حريّة وليسوا مُضطرين للتعامل لا مع الدّولة البوليسيّة ولا مع العقبات الماليّة، فأعضاء الجماعة الأغنياء قادرين على تحريك الأموال بسهولة عن طريق التنظيم الدولي، والأعضاء الفقراء أو العاطلون عن العمل

يحصلون على دعم من الدّولة ومن الجماعات المتطرّفة التي تحصل على تبرعات سخيّة من دول الخليج خاصة قطر.
إن كل من فوكوياما وعبد الرّسول يشكّكان في أن زوال الأيديولوجيّة سوف يمتد إلى الإسلامويّة، على الأقل في المستقبل المنظور. إن فشل الدّول الإسلاميّة هو عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تساعد على انتشار الإسلامويّة، ولكن هل هو العامل الوحيد الّذي يستحق النّظر فيه؟
لقد هُزِمَت النّازيّة في ألمانيا بعد أن احتلت رأس السُّلطة لمدّة اثني عشر عامًا. في أماكن أخرى، بقيت الشّيوعيّة اثنان وسبعين عامًا. وعلى العكس من ذلك، وعلى الرّغم من استمرار الهزائم المتعدّدة، إلا أن الإسلامويّة تواصل جمع الأراضي والأتباع الجُدُد، وهي قادرة على القيام بذلك بما أن مأموريّتها إلهيّة، وهي مُهمة يعتبرها الكثيرون من المُسلِمين واجب. وعلاوة على ذلك، فإن الضّغوط الخارجيّة أجبرت الفاشيّة في ألمانيا واليابان على الرّكوع، فالهزيمة المعنويّة والعسكريّة، حفزت المهزومين على المشي في طريق الإصلاح. لكن الغرب اليوم يضطر لأسباب اقتصادية أن يتعاون مع دول تدعم الفاشية الإسلامية مثل قطر وإيران وتركيا، كما يخشى الغرب أن ينقلب المهاجرون المسلمون ضدهم لو هم حاربوا الفاشية الإسلامية. فتجدهم يسمحون للإخوان والسلفيين وأنصار إردوغان بالانتشار بل واختراق الأحزاب السياسية والاتحاد الأوروبي.
وفي النهاية فإن محاربة الفاشية لابد أن تأتي من الداخل في المقام الأول، فبالرغم من أنها عمليّة شاقة جدًا إلا أن الشّعب

الألماني بعد الحرب أعاد تقييم التجربة النازية ورفض إلقاء اللوم على الحلفاء في المحاكمات الخاصّة بهم، رغم جور قاذفات الحلفاء التي تركت كل من درسدن وميونيخ وهامبورغ وبرلين غارقة في الخراب والدّمار. اعترف الألمان أن الحرب الّتي بدأها النّازيّون كانت حرب غير عادلة. حتى في هيروشيما وناغازاكي، حيث ساد دمار أكبر، ذهبت دعوات الانتقام أدراج الرّياح.

منذ صعود هتلر كان بعض الألمان نازيين ملتزمين بمبادئهم بشكل قوي، وكان البعض الآخر يسعى إلى المكاسب العسكريّة السّريعة للنظام أو ببساطة إلى التّصالح مع نظام هتلر. استغرق الأمر وقتًا حتى لم يعد هتلر ورفاقه المباشرون هم المسؤولون الوحيدون عن فظائع نظامهم، ولكن على الرّغم من ذلك اعترف الألمان بأخطائهم، وأدركوا أن عقليّة فاشيّة أمسكت بزمام الأمور في بلادهم، وأن أفكارها العنصريّة المشوَّهة والنّظرة الإستعلائية للإنسانيّة هي التي دمرت مجتمعهم. وليس فقط هجوم الحلفاء والسوفيت. ولكن رغم هذا النقد الذّاتي كان محو آثار النازية بطيئًا بعد الحرب، وربما لم يكن طوعيًا بالكامل، لكنه حدث. هنا، ومرّة أخرى، الإسلاميّون يشكّلون حالة للاختلاف، فهم لم يُهزموا حتى الآن لا عسكريًا ولا معنويًا بشكل نهائي، ولم يفلح الضّغط الدّاخلي والخارجي على حد سواء في هز قناعات أتباعهم. في الواقع، ليس لدى الإسلاميّين أيُّ سببٍ للشك في أفكارهم وأهدافهم، فهم مقتنعون أن الخطأ دائمًا عند الآخرين.

وقد حُظرت جماعة الإخوان المُسلِمين ثلاث مرّات خلال تاريخ مصر، مرّة في الأربعينيّات ومرّة في الخمسينيّات من القرن الماضي، وكانت آخر مرّة عام ٢٠١٣م، إلا أن العقليّة الّتي وُلدت منها هذه الجماعة لم يتم القضاء عليها أبدًا، وهي تظهر حتى يومنا هذا تقريبًا في جميع الكُتب المدرسيّة المصريّة وكتب الأزهر. كما وتُعتبر حُرمة الإسلام وقدسية النبي بمثابة الباب الخلفي الّذي يُمكّن الجماعة دائمًا من العودة إلى مركز مجتمعها. إن مفاهيم كالجهاد باعتباره مُهمّة مُقدّسة، وأحلام النّصر الإسلامي، والنّظر إلى الكُفّار على أنهم شر الدواب وأنهم نجس وحصب جهنم، كلها تبقى أجزاء مكّونة للشريعة التي يتعلّمونها في معظم الدّول الإسلاميّة في المدارس والمساجد وهي بمثابة مقاربات انتقائيّة للتاريخ، أضف إلى ذلك الشّبح المصطنع لعدو لا ينتهي أبدًا، والإيمان بأن المُسلِمين هم شعب الله المُختار، وأن الله وعدهم أن يورثهم الأرض وينصرهم على أعدائهم في نهاية الزمان، كل هذه من أهم محفزات الإرهاب، قبل أن يرفع الإرهابيون السلاح.

وحتى لو عارض الكثيرون من المُسلِمين تعاليم وممارسات السّلفيّين والإخوان والدواعش على حد سواء، إلا أنهم يظلّون غير مستعدين لحرق الجسور بينهم وبين مفهوم دولة الخلافة وتطبيق الشريعة، مُعتبرين أن الفكرة نفسها طيّبة وجيّدة، لكن عيبها هو فقط الخلل في التّطبيق. هناك قلة قليلة فقط يمكنها أن تميّزالعلاقة بين عقليّة الإسلامويّة وادعاءات الإسلام نفسه، وهذه القلة عازمة على العيش في دولة ديمقراطيّة ولكنها متأثرة بالإسلام الذي شكّلها. هم يخلقون توافقًا وهميًا بين

الشريعة والديمقراطية، وهو توافق يشبه سيارة مرسيدس يقوم بجرِّها زوجٌ من الحمير بدلًا من المحرّك. وسلوكيّات خداع النّفس هذه هي ما يساعد الإسلامويّة دائمًا إلى إعادة اختراع نفسها، ويجعلهم يبيعون نفس البضاعة في أغلفة جديدة. لذلك، وبرغم كل هذه الانتكاسات، مازال الإسلاميّون اليوم مستمرّون في الوجود ولم/لن ينتهوا.

لم تنجح الدّيمقراطيّة ولا التّحديث في اليابان إلى بعد أن قام الشعب بإنزال الإمبراطور من منزلة الإله إلى الأرض، معترفين أنه إنسان عادي. قبل ذلك، كان قد تورّط عدد كبير من الطيّارين الانتحاريّين في حرب لا معنى لها حيث ضحّوا بحياتهم من أجله بصرخات «تِنّو بانزاي» أي «يحيا الإمبراطور»! وحتى يومنا هذا، هناك عدد قليل في العالم الإسلامي يجرؤ على إعادة تقييم حُكم الله على الأرض، ناهيك عن محاولة إسقاطه، والكثير من المُسلِمين الّذين لا يعترفون بالحُريّة والدّيمقراطيّة يتمسّكون بشكل غريب بمفهوم أن الإنسانيّة أتت بأوامر من السماء ولابد أن تُحكم بقوانين من السماء. وكذلك الكثيرين جدًا ما زالوا غير قادرين على تقبُّل الحقيقة التي مفادها أن أعمال أي شخص هي أكثر أهميّة من معتقداته. لا توجد أيديولوجيّة تستحق أن يقتل المرءُ أحدًا آخر من أجلها، ناهيك عن أن يموت هو نفسه من أجلها! حب الحياة وتقديس الحرية والفن والجمال هي أفضل الأساليب لمحاربة الفاشية، لذلك يكرهها الفاشيون الدينيون والعسكريون والقوميون على حد السواء.

Abdel-Samad, Hamed, Der Untergang der islamischen Welt. Eine Prognose, Munich, Droemer Verlag, 2010.
Akhavi, Shahrough, Religion and Politics in Contemporary Iran, Albany, State University of New York Press, 1980.
Amin, Ahmed, Fajr al-Islam, Beyrouth, Dar al-Kutub al-'Ilmiya, 2004. —, Duha al-Islam, Le Caire, Al-Haya'a al-Masriya al-A'ama lil-Kitab, 1997.
Arendt, Hannah, Les Origines du totalitarisme : Sur l'antisémitisme, Paris, Le Seuil, 1973 (Points Essais, 2005), L'Impérialisme, Paris, Le Seuil, 1982 (Points Essai, 2006), Le Système totalitaire, Paris, Le Seuil, 1972 (Points Essais, 2005).
Ashmawi, Ali, Al-Tarikh al-Sirri li-Jama'at al-Ikhwan al-Muslimin, Le Caire, Markaz Ibn Khaldun (centre ibn Khaldoun), 2006.
Aslan, Reza, Kein Gott außer Gott. Der Glaube der Muslime von Muhammad bis zur Gegenwart, Munich, Piper Verlag, 2008 [No

god but God. The Origins, Evolution and Future of Islam, New York, Random House, 2005].
Banna, Hassan, al-, Majmua’at Rasael al-Imam al-Shahid Hassan al-Banna, Le Caire, 1999. —, Rasa’el al-Imam al-Shahid Hassan al-Banna, Le Caire, Dar al-Daa’wa, 2008. E001-304-9782246812418.indd 275 001-304-9782246812418.indd 275 10/01/2017 11:15 0/01/2017 11:15 Le fascisme islamique 276 Benz, Wolfgang, Geschichte des Dritten Reiches, Munich, Deutscher Taschenbuch Verlag, 2003.
Blaker, Carmen, Japanese Enlightenment. A Study of the Writings of Fukuzawa Yukichi, University of Cambridge Oriental Publications, no 10, Cambridge, Cambridge University Press, 1964.
Brenner, Michael, Geschichte des Zionismus, Munich, C. H. Beck Verlag, 2002. —, Kleine jüdische Geschichte, Munich, C. H. Beck Verlag, 2008.
Brynjar, Lia, Society of the Muslim Brothers in Egypt. The Rise of an Islamic Mass Movement.

1928-1942, Reading (UK), Garnet Publishing, 1999.
Bukhari, Mohamed Ibn Ismael al-, Sahih al-Bukhari, Beyrouth, 1982.
Ceylan, Rauf et Kiefer, Michael, Salafismus. Fundamentalistische Strömungen und Radikalisierungsprävention, Wiesbaden, Springer VS, 2013.
Chehabi, Houchang E., Iranian Politics and Religious Modernism. The Liberation Movement of Iran, Ithaca (NY), Cornell University Press, 1990.
Constable, Olivia R., Medieval Iberia. Readings from Christian, Muslim, and Jewish Sources, Philadelphie, University of Pennsylvania Press, 1997. Courbage,
Youssef et Todd, Emmanuel, Le Rendez-vous des civilisations, Paris, Le Seuil, 2007. Denon, Dominique Vivant, Voyages dans la Basse et la Haute Égypte pendant les campagnes de Bonaparte en 1798 et 1799, Ch. Taylor, 1817.
Diner, Dan, Versiegelte Zeit. Über den Stillstand der islamischen Welt, Berlin, List TB, 2007.

Eco, Umberto, Cinq questions de morale, Paris, Grasset, 2002. Eichner, Heidrun (éd.), Averroes. Mittlerer Kommentar zu E001-304-9782246812418.indd 276 001-304-9782246812418.indd 276 10/01/2017 11:15 0/01/2017 11:15 277 Sources bibliographiques Aristoteles’ « De generatione et corruptione », Paderborn, Schöningh, 2005. Fromm, Erich, La Peur de la liberté, Parangon, 2007.
Göbel, Karl-Heinrich, Moderne schiitische Politik und Staatsidee Staatsidee. Nach Islamic Fascism Taufiq al-Fukaikī, Muḥammad Ǧawād Muġnīya, Rūḥullāh Humainī (Kohmeyni), Schriften des Deutschen Orientinstituts, Leske + Budrich, 1984.
Habermas, Jürgen, Foi et Savoir. L’avenir de la nature humaine. Vers un eugénisme libéral ?, Paris, Gallimard, 2002.
Haikal, Mohamed Hussein, Muthakkerat fi al-Siyasa al-Masria 1937- 1952, vol 2, Le Caire, 2000.
Hariri, Abu Musa, al-, Qass wa Nabi, Bahth fi Nasha’at al-Islam, Beyrouth, 2001. Herf, Jeffrey, Hitler, la propagande et le monde arabe,

Paris, Calmann-Lévy, 2012. Himpele, Klemens, Antisemitismus in arabischen Staaten. Eine Einführung, Sarrebrucke, VDM Verlag Dr. Müller, 2008.
Hottinger, Arnold, Bonaparte in Ägypten. Aus der Chronik des Abdelrahman Al-Gabarti, Munich, Piper Verlag, 1989.
Ibn Hischām, Abd al-Malik, Sirat an-Nabi, vol. 2 et 3, Tanta (Égypte), Dar al-Sahaba, 1995. Ibn Ishaq, Muhammad, Vie du Prophète Muhammad, Ozoir-laFerrière, Al Bouraq, 2006.
Ibn Khaldoun, Le Livre des exemples, Paris, Gallimard, 2002.
Ibn Majah, Al-Hafiz Abi Abdullah, Sunan Ibn Majah, Kitab an-Nikah, Beirouth, Dar al-Ma'rifah, 1996. Ipgrave, Michael, Justice and Rights. Christian and Muslim Perspectives, Washington, DC, Georgetown University Press, 2009.
Jarrar, Hussein, Al-Hajj Amin al-Husseini Raed Jihad wa Batal Qadiyya, Amman, Dar al-Dia', 1984. E001-304-9782246812418.indd 277 001-304-9782246812418.indd 277 10/01/2017

Jawzi, Abdul Rahman al-, Al-Muntazim fi Tarikh al-Umam wal-Muluuk, vol. 3, Beyrouth, 1995, 2e éd.
Jonker, Gerdien et Hecker, Pierre, Muslimische Gesellschaften in der Moderne. Ideen, Geschichten, Materialien, Vienne, Studien Verlag, 2007.
Kamal, Ahmed Adel, Al-Nuqat Fawq al-Huruf. Al-Ikhwan al-Muslimin wan-Nizam al-Khas, Le Caire, 1989.
Kepel, Gilles, Jihad, Expansion et déclin de l’islamisme, Paris, Gallimard, 2003 (rééd.). —, Le Prophète et Pharaon. Les Mouvements islamistes dans l’Égypte contemporaine, Paris, Gallimard, 2012 (rééd.).
Khirbawi, Tharwat, al-, Qalb al-Ikhwan, Le Caire, Dar Nahdet Masr, 2010. , Sirr al-Maa’bad, Le Caire, Dar Nahdet Masr, 2012.
Khomeyni (Ayatollah), Der islamische Staat, Islamkundliche Materialien 9, Berlin, Schwarz, 1983.

Krämer, Gudrun, Hasan al-Banna (Makers of the Muslim World), Oxford, Oneworld Publications, 2009. Krebs, Gerhard, Das moderne Japan 1868-1952. Von der Meiji Restauration bis zum Vertrag von San Francisco, Berlin, Oldenburg Verlag, 2009.
Kuhn, Axel, Die Französische Revolution, Leipzig, Reclam Verlag, 1999.
Kurzman, Charles, The Unthinkable Revolution in Iran, Cambridge (MA), Harvard University Press, 2004. Lewis, Bernard, L'Islam en crise, Paris, Gallimard, 2003.
Luxenberg, Christoph, Die Syro-aramäische Lesart des Koran. Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache, Berlin/ Tubingen, Hans Schiler, 2007, 3e éd.
McGregor, Andrew James, A Military History of Modern Egypt from the Ottoman Conquest to the Ramadan War, Westport (CT), Praeger Security International, 2006.
Mallmann, Klaus M. et Cüppers, Martin, Croissant fertile et Croix E001-304-9782246812418.indd 278 001-304-9782246812418.indd 278 10/01/2017 11:15

0/01/2017 11:15 279 Sources bibliographiques gammée. Le IIIe Reich, les Arabes et la Palestine, Lagrasse (Aude), Verdier, 2009.
Matussek, Carmen, Der Glaube an eine « jüdische Weltverschwörung ». Die Rezeption der « Protokolle der Weisen von Zion » in der arabischen Welt, Berlin, Lit Verlag, 2012.
Maul, Thomas, Sex, Djihad and Despotie, Fribourg en-Brisgau, Ça ira Verlag, 2010.
Meddeb, Abdelwahab, La Maladie de l'islam, Paris, Le Seuil, 2002. — et Stora, Benjamin, Histoire des relations entre juifs et musulmans des origines à nos jours, Paris, Albin Michel, 2013.
Mohamed, Hassan, Man Qatala Hassan al-Banna?, Le Caire, Dar al-Shorouk, 1987.
Moin, Baqer, Khomeini. Life of the Ayatollah, New York, Thomas Dunne Books, 2000.
Nagel, Tilman, Die islamische Welt bis 1500, Berlin, Oldenbourg Verlag, 1998.
Namnam, Hilmy, al-, Hassan al-Banna Allathi la Yaa'rifuhu Ahad, Le Caire, Madbouli, 2011.
Nawawi, Yahia ibn Sharaf, al-, Sahih Muslim, Beyrouth, Dar al-Kutub al-'Ilmiya, 1996.

Nirumand, Bahman, Mit Gott für die Macht, Berlin, Rowohlt Verlag, 1989.
Nolte, Ernst, Das 20. Jahrhundert. Die Ideologien der Gewalt, Munich, Herbig, 2008.
—, Le Fascisme dans son époque, 3 vol. : L’Action française, Le Fascisme italien, Le National-Socialisme, Paris, Julliard, 1970. —, Die dritte radikale Widerstandsbewegung. Der Islamismus, Berlin, Landt Verlag, 2009.
Plessner, Helmuth, Die verspätete Nation. Über die politische Verfü hrbarkeit bü rgerlichen Geistes, Francfort-sur-le-Main, Suhrkamp, 2001.
Qahtani, Muhammad al-, Al-Walaa wal-Baraa fil-Islam, Le Caire, An-Nur al-Islamiyah, 1998. E001-304-9782246812418.indd 279 001-304-9782246812418.indd 279 10/01/2017 11:15 0/01/2017 11:15 Le fascisme islamique 280 Qutb, Sayyid, Al-mustaqbal lihatha al-Din, Le Caire, Al-Shorouk, 2005. —, Ma’alim fi at-Tariq, Le Caire, Al-Shorouk, 1973.
Ramadan, Tariq, Islam, La réforme radicale. Éthique et libération, Paris, Presses du Châtelet, 2008.

Rasafi, Marouf, al-, Al-Shakhsiyya al-Muhammadiyya, Berlin/ Tubin gen,Verlag Hans Schiler/Al-Kamel, 2002.
Reich, Wilhelm, La Psychologie de masse du fascisme, Paris, Petite Bibliothèque Payot, 1998.
Roy, Olivier, L'Échec de l'islam politique, Paris, Le Seuil, 1992. —, L'Islam mondialisé, Paris, Le Seuil, 2004.
Sadat, Anwar, al-, Al-Bahth a'n al-Dhat, Le Caire, Al-Maktab al-Masri al-Hadith, 1978 [In Search of Identity. An Autobiography, New York, Harper and Row, 1977, 1978].
Saiid, Reafaat al-, Al-Irhab al-Mutaa'slim. Hassan al-Banna al-Musallah, vol. 2, Le Caire, 2004. Sansal, Boualem, Gouverner au nom d'Allah. Islamisation et soif de pouvoir dans le monde arabe, Paris, Gallimard, 2013.
Sartre, Jean-Paul [1943], L'Être et le Néant, Paris, Gallimard, Tel, 1976.
Schieder, Wolfgang, Der italienische Faschismus. 1919-1945, Munich, C. H. Beck Verlag, 2010.

Schulze, Reinhard, A Modern History of the Islamic World, Londres, Tauris, 2002. Sijistani, Abu Dawūd al-Hafez Sulaiman al-, Sahih Sunan abi Dawūd, Riad, Maktabat al-Ma’arif lil-Nashr wa-al-Tawzî, 1998.
Suyuti, Jalaluddin al-, Al-Itqan fi Ulum al-Qur’an, vol. 2., Riad, 2005.
Tabari, Abi Ja’far Muhammad ibn Jarir, al-, Tarikh al-Umam wal-Muluk, vol. 1, 2 et 3, Beyrouth, Mu’assassa al-Alani, 1988.
Taheri, Amir, Khomeiny, Paris, Balland, 1988.
—, The Persian Night. Iran under the Khomeynist Revolution, New York, Encounter Books, 2010. Tibi, Bassam, Vom Gottesreich zum Nationalstaat. Islam und E001-304-9782246812418.indd 280 001-304-9782246812418.indd 280 10/01/2017 11:15 0/01/2017 11:15 Sources bibliographiques panarabischer Nationalismus, Francfort-sur-le-Main, Suhrkamp TB Wissenschaft, 1987.
Tirmidhi, Mohamed ibn Isa ibn Sura al-, Al-Jami’i al-Sahih, Sunan al-Tirmidhi, Beyrouth, Dar al-Kutub al-’Ilmiya, 1978.

Waisi, Abd al-Fattah al-, The Muslim Brothers and the Palestinian Question. 1938-1947, Londres, Tauris Academic Studies, 1998.
Waldmann, Peter, Determinanten des Terrorismus, Weilerswist, Velbrück Verlag, 2005.
Watt, W. Montgomery, Muhammad. Prophet and Statesman, Londres, Oxford University Press, 1961.
Wezler, Harald, Les Guerres du climat. Pourquoi on tue au XXIe siècle, Paris, Gallimard, Folio, 2012.
Wolf, Christian, Die ägyptische Muslimbruderschaft. Von der Utopie zur Realpolitik, Hambourg, Diplomica Verlag, 2008.
Zeghal, Malika, Gardiens de l'Islam. Les Oulémas d'al Azhar dans l'Égypte contemporaine, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1996.
Le Coran, édition arabe, Médine, 2009.
Le Figaro, 14 octobre 1978.
Spiegel Geschichte, n0 2, 2010

الكاتب فى سطور:

- **حامد عبد الصمد**
- **باحث في العلوم الساسية وتاريخ الإسلام**
- **عمل مدرسًا للدراسات الإسلامية في جامعة إيرفورت وجامعة ميويخ بألمانيا**
- **عمل خبيرًا تربويًا بمنظمة اليونيسكو.**

صدر له:

- وداعًا أيتها السماء	رواية	القاهرة	**ميريت** ٢٠٠٨
- سقوط العالم الإسلامي	دراسة	القاهرة	**ميريت** ٢٠١٠
- الحرب أو السلام	دراسة	ميونخ	**درومر** ٢٠١١
- الفاشية الإسلامية	دراسة		٢٠١٤
تُرجم لعشر لغات حتى ٢٠١٩			
- رحلة باستيت الأخيرة	رواية	القاهرة	**ميريت** ٢٠١٨

يعد ويقدم برنامج **صندوق الإسلام**
يشرح فيه تاريخ الإسلام ونصوص القرآن على قناة يوتيوب
Hamed.Tv

الفهرس

شكر خاص..

لمحمود ناجي وهارون إبراهيم..
على دعمهم المستمر ودورهم في إخراج هذا الكتاب للنور.